كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
College of Sharia and Islamic Studies
جامعة قطر QATAR UNIVERSITY

بصائر المعرفة القرآنية ﴿٢٠﴾

تسوير السور القرآنية ﴿١٦﴾

مفصل تفسير

سورة الأعراف

موضوعها الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقي من الفساد والأنفاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

الجزء الثالث

تفسير وبصائر الآيات (٥٤-٥٨)

المعالم العامة التي تعرف بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المنزل من رب العالمين

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصل تفسير

سورة الأعراف

الجزء الثالث

MUFASSAL

TEFSİR SURE EL-Â'RAF

EL-MİHVER EL-SANİ

PROF. ABDULSALAM ALMAJEEDY

1. Baskı: İstanbul

2024 - 1446

بصائر المعرفة القرآنية ﴿٢٠﴾

تسوير السور القرآنية ﴿١٦﴾

مفصل تفسير

سورة الأعراف

موضوعها الكلي

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، ويخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، ويقي من الفساد والأنفاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

الجزء الثالث

تفسير وبصائر الآيات (٥٤-٥٨)

المعالم العامة التي تعرف بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المنزل من رب العالمين

الأستاذ الدكتور
عبد السلام مقبل المجيدي
كلية الشريعة / جامعة قطر

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

مفصّل تفسير

سورة الأعراف

الجزء الثالث

عبد السلام مقبل المجيدي

القياس: 17 X 24 سم | عدد الصفحات : 224 ص

ISBN: 978-625-94820-1-9

الطبعة الأولى ١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

التحكيم العلمي

د. الخضر سالم بن حليس اليافعي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

المراجعون

الشيخ/ العزي سليمان — د/ خالد بُرّيه

أ.د/ سعيد بن دحباج — د/ حمود ردمان

د/ عامر الخميسي — أ / أميرة ردمان

مكتبة الأسرة العربية®

خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة

طباعة ونشر وتوزيع

إصدارات مُختارة للأسرة العربية

www.arabfamilybs.com

+90 212 631 81 09 - +90 555 028 11 55

info@arabfamilybs.com

UFUK neşriyat.®

BASIN-YAYIN-DAĞITIM

Sertifika No: 65276

UFUK NEŞRİYATIN.® TÜRKİYE BASIM YAYIN MESLEK BİRLİĞİ ÜYESİDİR.

Baskı Cilt: Yılmaz Basımevi maltepe Mh. Litros Yolu 2.Matbaacılar Sıt, 2E1 İstanbul

تقديم فضيلة الدكتور/ الخضر سالم بن حليس اليافعي

الحمد لله المحمود بجميع المحامد كلِّها على الدوام، والصلاة والسلام الأتمَّان الأكملان على سيِّدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أما بعد:

فقد كان لي شرف التحكيم على المحور الأول والثاني من سورة الأعراف من هذا التفسير الذي خطَّه قلم الأستاذ الدكتور عبد السلام المجيدي، وقد قرأت هذين المحورين وتتبعت أفكارهما على السطور فسرني ما قدَّمه من مجهود مثالي يضاف إلى سلسلة جهوده في خدمة التفسير القرآني، وإني لأرجو المولى أن يتمَّ له مشروعه على النحو الأتم الأكمل.

وقد كانت مسلكية هذا العمل في تقديري تمضي في تتبع دقيق للألفاظ القرآنية وإسقاط حمولتها الدِّلاليَّة، وما تُدْلِي به تلك المشاهد من معانٍ هدائية تثمر في النفس والسلوك.

واستفرغ المؤلِّف جهده في إيجاد العلاقات والروابط المنسجمة بين الآيات وَوَصَل بين ما أمر الله به أن يوصل من تتابعها الترتيبي لتحقيق انتظام معانيها التَّسلسليَّة في ذهن المتلقي، فقلب قَتَادَها ثُمامًا، وهو عمل مظفَّر جسور، والخطأ في مضماره مغفور، عسى أن يؤتي أكله ويحقِّق مراميه لقارئ هذا التفسير، وقد أورد فوائد لم يوردها السَّلَف، فخذها ولا تخف.

وقد بدا لي أن هذا المشروع خطوة مهمَّة في سُلَّم العمل التفسيري المتتابع عبر القرون للكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولا تتوقف مناقبه.

وَفَّقَ الله المؤلِّف، وأعانه وسدَّده، وكتب له التوفيق والقبول.

د. الخضر سالم بن حليس اليافعي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

الخريطة الكلية لسورة الأعراف

الموضوع الكلي

القرآن تبصير بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، ومخطط الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقية من الفساد والانفاض الإسرائيلية المؤسسة للانطلاق من الأنوار الإلهية

المقدمة:

1. القرآن كتاب الإنذار العالمي من الأخطار الواقعة والمتوقعة [الأعراف: ١-٩]

المحور الأول

2. البداية والنهاية للرحلة الإنسانية الكبرى في مسيرة الحياتين [الأعراف: ١٠-٥٣]

المحور الثاني

3. المعالم العامة التي تعرف بالله عز وجل، وتقتضي ضرورة اتباع المُنْزَل من رب العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]

المحور الثالث

4. أهم العهود التاريخية الفاصلة التي قادت الإنسانية قبل العهد الإسرائيلي في التاريخ القديم [الأعراف: ٥٩-٩٣]

المحور الرابع

5. السنن الاجتماعية الكونية العامة التي تحكم تاريخ الذرية الآدمية أمام دعوات الإصلاح النبوية، وخطوات القدر التي تتعامل مع حركة البشر [الأعراف: ٩٤-١٠٢]

المحور الخامس

6. العهد السادس من عهود الذرية الآدمية، ويمثل التاريخ الوسيط: العهد الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٧١]
وانقسم إلى ثلاثة فصول كبرى:

- فصل [1]: ظهور موسى عليه السلام، وعودة الإيمان بالله عز وجل، وبداية الانبعاث الإسرائيلي [الأعراف: ١٠٣-١٣٦].
- فصل [2]: عهد المواجهة ونهاية التاريخ الفرعوني [الأعراف: ١٣٧-١٣٧].
- فصل [3]: عهد التمكين الإسرائيلي: أهم مظاهر نقض الإسرائيليين للعهد الإلهي [الأعراف: ١٣٨-١٧١].

المحور السادس

7. العهدُ الإنسانيُّ الحديثُ والأخيرُ، ويُظهر الله عز وجل فيه آيات القرآن التي جاء بها النبي الخاتم ﷺ لتمثل للعالم مفاتح فَهْمِ الحياة، وتقدّم للبشرية دوافع الاهتداء [الأعراف: ١٧٢-١٩٨].

الخاتمة

8. آداب التعامل مع الكتاب الذي يحمي الإنسانية من الأخطار الظاهرة والخفية [الأعراف: ١٩٩-٢٠٦].

عبد السلام مقبل المجيدي

الموضوع الكلي لسورة الأعراف

القرآن بين الاتباع والتذكير والإنذار والتبصير

القرآن يبصر بالمعرفة العليا للمراحل التاريخية البشرية، وبخطر الملأ المستكبرين في تأسيس دار الفاسقين، وبقى من الفساد والانفاض الإسرائيلية المؤسسة للانسلاخ من الأنوار الإلهية

المحور الثاني

المعالم العامة التي تُعرِّف بالله، وتقتضي ضرورة اتباع المنزل من ربِّ العالمين

[الأعراف: ٥٤-٥٨]

المعالم التَّعريفيّة العامَّة بالله عز وجل الخبير اللطيف

الاسم المُعظَّم
معلم تعريفي [1]

فالرب الذي يجب أن تتخذوه ربًّا هو الله عز وجل:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: 54].

خلق الكون "وهو المكان"
معلم تعريفي [2]

فتربية الله عز وجل بدأت بأنْ خلق السموات والأرض قبل أن يخلقنا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: 54].

مدة خلق الكون
معلم تعريفي [3]

فخلقُ السموات والأرض حَدَثَ في ستة أيام بناء على قوانين وضعها ليكتمل الخلق وَفْقها ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54].

استواء الله عز وجل على العرش
معلم تعريفي [4]

استواء يليق بجلاله وكماله "فهو فوق المكان":

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54].

خلق الله عز وجل الزمان، وتحكَّم به
معلم تعريفي [5]

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54].

خلق الله عز وجل ما بين السماء والأرض
معلم تعريفي [6]

فذكر الله عز وجل لنا الأجسام الكبرى التي تحيط بالأرض وتتحرك في السماء ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 54].

يتفرد الله بخلق الكون وإدارته بتدبيره
معلم تعريفي [7]

دون أن ينازعه أحد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54].

ثبتت الخيرات التي تصدر عن الله
معلم تعريفي [8]

ودامت، وتنوعت، وتكاثرت

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

دعاؤه سبحانه وتعالى يعرِّفنا به
معلم تعريفي [9]

فإن مَن له الخلق والأمر النافذ في الخلق قادرٌ على تغيير الواقع بما يفيد الداعي ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55].

إحياء البلد الميت بالماء
معلم تعريفي [10]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: 57].

الله هو القادر الذي يحكم نتائج دورة الحياة
معلم تعريفي [11]

حيث تظهر النَّتيجة بعد نزول الماء على الأرض بإذن الله عز وجل، وتختلف هذه النتيجة من موضع لآخر ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58]

الله عدل في حكمه
معلم تعريفي [12]

ويجزي كلًّا وَفْقَ ما اختار من قبول الهدى أو الصَّدِّ عنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58].

المحور الثاني

المعالمُ العامَّة التي تُعَرِّف بالله ﷻ، وتقتضي ضرورة اتِّباع المنزل من ربِّ العالمين [الأعراف: ٥٤-٥٨]

مراحل الحياة الإنسانيَّة تجعل أهمَّ مهمَّات حياة البشر أن يتعرَّفوا إلى الله -تعالى مجدُه- الذي خلق الخلق، ووضع خطَّته.

المناسبة والاتِّصال:

مراحل الحياة الإنسانيَّة التي ذُكرت في المحور الأول تجعل أهمَّ مهمَّات حياتهم أن يتعرَّفوا إلى الله -تعالى مجده- الذي خلق الخلق، ووضع خطَّته، وأنزل آياته التي تبيِّن نظامه في الخلق، فذكر في هذا المحور معالم تعريفيَّة تعرِّف به ﷻ.

ويفتتح هذا المحور بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ويرصد المتأمل فى هذه الآية العجيبة اشتمالها على العذوبة فى ألفاظها المفردة، والسَّلاسة فى تراكيبها، والنِّظام العجيب، والتَّأليف الأنيق، والأسلوب البديع، حتى لا تكاد لفظة واحدة تخلو عن ملاحظة البلاغة، ومواقع الفصاحة، وكيف احتوت على التَّنبيه على أسرار عظيمة ومعان فخمة على أسهل نظام وأيسره، وأتم بيان وأكمله(١).

ولعلَّك تسأل: هل هذه الآية تتمَّة للمحور السَّابق أم تفتتح محورًا جديدًا، وما المحور الجديد الذي تبصِّرنا به؟ وما المناسبة والاتصال بينها وبين ما قبلها؟

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٧٤).

الجواب: هذه الآية تمثِّل بداية محور جديد من محاور هذه السُّورَة، وآيات هذا المحور من حيث العدد محدودة، فهي خمس آيات فقط، ولكنَّها آياتٌ عظيمة أنزلها الله ﷻ في موضعها الرَّائع الدقيق من هذه السُّورَة، فهذه **تقدِّم لك المعالم العامَّة التي تعرِّف بالله ﷻ، وتقتضي ضرورة اتباع المنزل من ربِّ العالمين.**

فإن قلت: ما المناسبة والاتِّصال بين هذا المحور الجديد والمحور السَّابق الذي عرفنا أنَّه أوَّل محور في السُّورَة؟

الجواب:

١) المحور الأوَّل عرض لطرفي الحياة الإنسانيَّة بدايتها ونهايتها؛ فذكر الله ﷻ في أوَّله قصة الخلق والتصوير ممثلة بخلق آدم عليه السلام، ومفتتح الصراع مع إبليس، وكيف بدأت القصَّة؟ قصَّة الصِّراع المرير والكفاح الكبير بين بني الإنسان والشَّيطان، حينما راهن على إضلال الخليقة، ومحاصرتها والتَّرصُّد لها في كلِّ اتجاه، وتعهد بالقعود في طريقها مدى الحياة، فلخَّص منطلق الصراع وطبيعته وديمومته هو يريد الإغواء ونحن نريد الحياة في ظلِّ اتِّباع ما أنزل إلينا من ربِّنا ﷻ، فرَبَطَ المحورُ الأول بداية الحياة بآخرها، ونقلنا مباشرة من بداية الحياة الإنسانيَّة إلى نهايتها، وبداية الحياة الأخرى ليقدِّم تصورًا محيطيًّا كليًّا يستطيع الإنسان رسم أبعاده وغاياته.

فقال عن بداية الحياة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١].

وقال عن نهايتها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ثمَّ اختزل الزَّمكان في جملة واحدة تُلخِّص دورة الحياة في مراحلها الثلاثية: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

ثمَّ أوجز كلا الطَّرفين فقال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقدَّم صورة موجزة لمآل كلا الفريقين:

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧]، ثم ذكر ربُّنا -تعالى مجدُه- دخول أهل النار إليها بسبب أعمالهم القبيحة، فقال: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وأخبرنا عن دخول أصحاب الجنَّةِ الجنَّةَ برحمة الله ﷻ، وبسبب أعمالهم العظيمة، فقال: ﴿نُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

٢) وقد ميَّزَ هذه السُّورَة المباركة بذكر أقوام يعتلون الأعراف، يتوسطون مشهد الخليقة وتفويجها، يعرفون سيما البشرية ويجيدون تمييزها، ويذكِّرونهم بأنَّ دخول كلٍّ منهم في داره كان باستحقاق استحقَّه، حسب أعمال الدنيا، فقال: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦-٤٧].

٣) فالمحور الأوَّل يتكلَّم -إذن- عن بداية الحياة الإنسانيَّة ونهايتها، ويُقَدِّم لنا لوحة كاملة عن طبيعة الوجود: لماذا هذا الوجود؟ وأين المصير؟

٤) وخُتِمَ ذلك المحور بما بُدِئَت به السُّورَة من ضرورة اتِّباع الكتاب المُفصَّل على علم هداية بهم ورحمة قبل أن تتحقَّق حقائق الآخرة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢].

٥) وحثَّهم على أن يتَّبعوا القرآن قبل فوات الأوان: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فكان الدَّافع الأوَّل لاتِّباع القرآن هو معرفة خَلْقِ هذا الوجود بداية ونهاية.

٦) ويظهر في المحور الأوَّل تحبُّب الله ﷻ إلى عباده، بما امتنَّ عليهم من نعمة الإيجاد والإمداد، فأوجدهم فيها من العدم، وأسجد لهم الملائكة ﷺ، ومَكَّنَهم في الأرض، استقرارًا ومتاعًا إلى حين، فماذا يريد الإنسان أعظم من ذلك تحبُّبًا ليتَّبع ما أُنزل إليه من ربِّه ﷻ؟ مع أنَّ الله ﷻ غنيٌّ عن عباده، أَوَ ما يكفي ذلك؛ لنعبده ونستمع إلى كلامه، ونتَّبع آياته؟ فأرشدنا الله ﷻ إلى اتِّباع كلامه بتعريفنا بخطَّة هذا الوجود، وخريطته، وتحبَّب الله ﷻ إلى عباده بتمكينهم في هذه الحياة.

٧) وفي هذا المحور الثاني يذكِّر الله ﷻ عباده بأن يتَّبعوا ما أنزل إليهم بتعريفهم بذاته العليَّة، وأفعاله العظيمة القويَّة الجليَّة؛ ولذا بدأ الله ﷻ المحور الثاني بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولكأنَّ هذا المحور نتيجة تلقائيَّة أفضى إليها المحور الأوَّل، ونداء ضارب في عمق تاريخ الوجود الإنسانيِّ، وجميع مراحل الحياة البشريَّة التي عرض لها.

فإن قلتَ: كان هذا ما يتعلق بالترابط والاتصال بين المحورين: الأوَّل والثاني، فماذا عن التَّرابط بين المحور الثاني والمحور الثالث الذي يليه؟

الجواب:

١) أمَّا المحور الثالث فسنسمع فيه عرضًا مكثَّفًا لأهمِّ الأحداث التي وقعت في التاريخ البشريِّ القديم، وسترى فيه أعظم قيادات البشريَّة من الأنبياء ﷺ وهم يحاولون إرجاع ذرِّيَّة آدم ﷺ إلى جادَّة الحقِّ، وإصلاح الأرض بعد أن أفسدوا فيها، وذلك بعبادة الله ﷻ، وترك الإجرام الذي يمارسونه.

٢) ويكلِّمنا المحور الثالث عن المسيرة البشريَّة وهي تكافح الشَّيطان، وكيف تقوم القيادات المصلحة بمحاولات تخليص البشريَّة من الأَسْرِ الشَّيطانيِّ، فيقاومها قبيل الشَّيطان، وأسراه من البشر، فناسب المحور الثاني أن يسبِقَ المحور الثالث، فقَبْلَ أن يذكر

الله ﷻ الرِّسالات المصلحة لا بدَّ أن يعرِّفنا بنفسه، وهذا معتاد في السُّوَر القرآنيَّة؛ فإنَّ الله ﷻ بَيْنَ كلِّ محور ومحور من محاور إصلاح الحياة الإنسانيَّة يتكلَّم عن نفسه ليصلنا به، ويعرِّفنا بأعظم صفاته، فنزداد حبًّا له، ورغبة في لقائه، والتَّذلُّل بين يديه.

٣) هكذا ترى تناسقًا كبيرًا ومهيبًا في هذه الآيات، وتتجلَّى لك سورة الأعراف متماسكة متراصة متناسبة في موضوعاتها:

مقدِّمة تحثُّ الإنسانيَّة على اتباع القرآن، بخصائصه الفريدة التي جعلت منه كتابَ الإنذار العالميِّ من الأخطار الواقعة والمتوقَّعة [الأعراف:١-٩].

وبدأ المحور الأوَّل بتفصيل ذلك، حيث أبان عن المعرفة القرآنيَّة التي تبصِّرك بالبداية والنِّهاية للرِّحلة الإنسانيَّة الكبرى في مسيرة الحياة، ويتضمَّن الإنباء بتفاصيل المعركة الأولى لها ضدَّ ألدِّ أعدائها [الأعراف:١٠-٥٨]، وختم الله ﷻ المحور الأوَّل بما بدأ به المقدِّمة من ذكر مكانة القرآن المجيد، وحقِّ البشريَّة في معرفته، واتِّباعه.

المناسبة والاتِّصال بين الرَّازي وابن عاشور ومحمد رشيد رضا ﷺ:

وكل ما سبق يلخِّص الحقائق الكبرى للكون: كيف بدأ؟ وإلى أين يصير؟ والإيمان بهذه الحقائق الكونية الكبرى لا يتحقق إلا إذا آمن المرء بخالق الكون؛ ولهذا انتقل المحور إلى التَّعريف بخالق الكون ومنزل القرآن الذي ينبغي أن يتَّبعَه الإنسان، فذكر الله ﷻ هنا آلاءه وآياته في الكون الماديِّ؛ ليذعن الخلق لربوبيته، ويبحثوا عن تشريعاته المبثوثة في نظامه، ويشعر ابن عاشور ﷺ بهذا النِّظام المتماسك لسورة الأعراف، وبترابط هذا المحور بالذي قبله، فيقول: «فلذلك اسْتُؤْنِفَ بجملة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية، اسْتِئْنافًا ابْتِدائِيًّا عاد به التَّذْكِيرُ إلى صدر السُّورَة في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الأعراف: ٣]، فكان ما في صدر السُّورَة بمنزلة المطلوب المَنطِقِيِّ، وكان ما بعده بمنزلة البرهان، وكان قوله: ﴿إِنَّ

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ بمنزلة النَّتِيجَةِ للبرهان، والنَّتيجة مساوية للمطلوب، إلا أنَّها تؤخذ أوضح وأشَدَّ تَفْصِيلًا»[١].

وأما الرَّازيُّ رحمه الله فيبيِّن وجه الاتصال في هذا الموضع بأسلوبه المعهود، لكنَّ نظره هنا يَكِلُّ، فيكتفي بربط المحورين من خلال الآيتين الأخيرتين من المحور الأوَّل، فيقرِّر أَنَّ مَدَارَ أَمْرِ الْقُرْآنِ عَلَى إيضاح المقاصد الكلِّيَّة الْأَرْبَعة التي يدور حولها القرآن، **فما هذه المقاصد الأربعة التي يدور حولها القرآن عند الرَّازيِّ رحمه الله ؟**

الجواب: مقاصد القرآن بحسب ما يقرِّر الرَّازيُّ رحمه الله هِيَ: التَّوْحِيدُ، وَالنُّبُوَّةُ، وَالْمَعَادُ (الآخرة)، وَالْقَضَاءُ وَالْقَدَرُ، ولا يمكن الإيمان بالمعاد إلا على إثبات التَّوْحِيدِ والقُدرة وَالْعِلْمِ، فلمَّا بالغ الله تعالى في تقرير أمر المعاد في المحور السَّابق عاد إلى ذِكْرِ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوحِيدِ وَكَمَالِ القُدْرَةِ والعلم في هذا المحور، لِتَصِيرَ تِلْكَ الدَّلَائِلُ مُقَرِّرَةً لأصول التَّوحيد، وَمُقَرِّرَةً -أَيْضًا- لإثبات المعاد، أي: الدَّار الآخرة[٢].

فهل حاول غير الرَّازيِّ رحمه الله إثبات مثل هذا الاتِّصال؟

الجواب: نعم، حاول محمد رشيد رضا رحمه الله بيان وجه الاتصال، فقرَّر أن الله تَعَالَى بيَّن فِي الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قبل هذه الآية [٥٢-٥٣]، وَبَعْدَ آيَاتِ الْجَزَاءِ وَالْمَعَادِ- سَبَبَ هَلَاكِ الْكَافِرِينَ وَخُسْرَانِ أَنْفُسِهِمْ بِالشِّرْكِ فِي أُلُوهِيَّتِهِ، وَعِبَادَةِ مَنِ اتَّخَذُوهُمْ شُفَعَاءَ عِنْدَهُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ؛ إذ قال الله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٥٩).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٥).

ولذلك كانت النار عاقبتهم، وسيتدافعون فيها، ثُمَّ قَفَّى بعد تلك الآية بِخَمْسِ آيَاتٍ جَامِعَةٍ لِجُمْلَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ في التعريف بالله -جلَّ في علاه- وكبريات اليقينيات الدينية بِإِيجَازٍ بَلِيغٍ ابْتَدَأَهَا بِآيَةِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ الْهَادِيَةِ إِلَى حَقِيقَةِ الرُّبوبيَّة وَالْأُلُوهِيَّةِ بُرْهَانًا عَلَى أَصْلِ الدِّينِ(١).

وهذا قريبٌ مما قرَّره الرَّازيُّ ﷺ، لكنه يكشف عن جوهر آيات هذا المحور، ولا يكشف عن سبب الاتصال كشفًا جليًّا؛ لأنَّ الاتِّصال ينبغي أن يكون متكاملًا بين الآيات اللَّاحقة، وجميع الآيات السَّابقة، وليس بين الآيتين الأخيرتين مما سبق، والآيات اللَّاحقة فحسب، لكن ما قرَّراه ﷺ يُسهم فيما ذكرته لك من الاتصال؛ فالمحور الأوَّل كان سردًا طويلًا للمراحل الخمس التي مرَّت بها البشريَّة أو ستمرُّ بها ابتداء من خلق آدم عليه السلام ووصولًا إلى استقرار أصحاب الجنة في الجنة، اللهم اجعلنا منهم.

واستقرار أصحاب النار في النار، اللهم أعذنا من حالهم ومصيرهم.

وبإمكاننا أن نخيط كلا المحورين، فخيط الاتصال الدَّقيق هو خطاب (الرُّبوبيَّة) المفتتح به السُّورة بالدعوة إلى اتباع ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٣] وإلى تقرير ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إنه الرَّبُّ الذي أنزل الكتاب ليربِّي بتعاليمه البشريَّة، هو الرَّبُّ الذي أنشأ تلك الأجرام السماويَّة، ربُّكم جميعًا بلا تمييز: هذه تعاليم تربويته، وتلك مشاهد ربوبيته.

فناسب أن يكلِّمنا الله ﷻ هنا عن نفسه حتى يكون ذلك دافعًا عظيمًا لنا لنحبَّه، ونحبَّ جنَّته، ونرى آثار قدرته، فنستمسك بحبله، ونعتصم بعهده. اللهم اجعلنا في أقرب أوليائك يا أرحم الراحمين.

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٣٩٥).

جسر الاتِّصال، وموقع الجلال والجمال:

وسنلاحظ شيئًا عجيبًا -ليس في هذه السُّورَة، وإنما في جميع القرآن-، وهو أن الله ﷻ إذا ذكر محورًا طويلًا فإنه يخلِّلُه بمحورٍ يسمِّيه العلامة محمد عبد الله دراز ﷺ حَلْقة اتصال[1]، وغالبًا يكون هذا المحور الذي يصل بين محورين تعريفًا بالله ﷻ بطريقةٍ أو بأخرى.

خذ سورة الكهف على سبيل المثال، فقد بدأها الله ﷻ بالتعريف بالقرآن الكريم، والتعريف به -جلَّ في علاه-، ثم ذكر قصَّة أصحاب الكهف في سردٍ طويلٍ لحالهم، وما وقع لهم من أحوال عجيبة عندما ناموا ثلاثمائة سنة، وبعد الانتهاء من قصَّتهم نقلنا نقلة مباشرة إلى الحياة الأخرى، فقال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، فحدَّثَنا ربُّنا ﷻ عن نفسه، والحقِّ الذي جاء منه، وما يترتَّب على الإيمان والكفر به، فكان هذا المحور جسر اتصال بين قصَّة الابتلاء بالشِدَّة والضراء التي رأيناها في قصَّة أصحاب الكهف، وبين الابتلاء بالرخاء والنعماء التي رأيناها في قصَّة صاحب الجنَّتين، ليعود بعد هذا المحور مجدَّدًا إلى تعريف العالم به ﷻ، وبحقيقة الدنيا، وبالمصير في الآخرة.

وهذا المحور (الثاني) من سورة الأعراف جسر من جسور الاتصال، فبين جولة مطوَّلة في المحور الأول عرضت للمراحل الزَّمنيَّة للحياة البشريَّة، وجولة مطوَّلة في (المحور الثالث) أخرى ستعرض للمسيرة البشريَّة وهي تكافح الشَّيطان، والأدوار العظيمة للقيادات المصلحة في مدافعة القبيل الشَّيطانيِّ، واستنقاذ ذراري وأجيال وبني آدم من أَسْرِه.. بين هاتين الجولتين يأتي جسر الاتِّصال (المحور الثاني) تذكيرًا بالخالق البارئ، وتعليقًا للقلوب بجنابه، وتعريفًا بكبرى اليقينات العقديَّة.

---

(١) انظر مثلًا: النبأ العظيم (ص: ٢٢٤).

نعود إلى هذا المحور الثاني، فما الفكرة المركزيَّة التي تدور حولها آيات هذا المحور؟

الجواب: هذه الآيات الخمس من (٥٤) إلى (٥٨) تدور حول التعريف بالله ﷻ، فلماذا يعرِّفنا الله بنفسه؟

لأننا إذا عرفنا الله ﷻ حقًّا اقتضى ذلك أن نتَّبع الآيات التي تأتينا منه ﷻ.

وهنا ربما تسأل: ألا يمكن أن نعرف الله ﷻ في وجوده وذاته وصفاته بأنفسنا؟

والجواب: أن معرفتنا بالله ﷻ يتعلَّق بها عددٌ من الأمور من أهمِّها: معرفتنا بوجوده، ومعرفتنا بذاته، ومعرفتنا بصفاته، فأما معرفتنا بوجوده، فتشهد عليه كلُّ ذرَّة من ذرَّات الكون، لكنه في ذاته وصفاته غيبٌ بالنسبة للطَّاقة البشريَّة في الدنيا المحدودة، فلا يمكن أن ندرك ذلك، فالله ﷻ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار جلَّ في علاه، ولذا يُعرِّفنا هو بنفسه وصفاته، فـ:

> **بصيرة: عقيدة التوحيد الإسلاميَّة لا تدع مجالًا لأيِّ تصوُّرٍ بشريٍ عن ذات الله سبحانه ولا عن كيفيات أفعاله، فالله سبحانه ليس كمثله شيء، ومن ثم لا مجال للتَّصوُّر البشريِّ لينشئ صورة عن ذات الله ﷻ إلا ما أنشأها الله لنفسه.**

فكلُّ التَّصوُّرات البشريَّة إنما تنشأ في حدود المحيط الذي يستخلصه العقل البشري مما حوله من أشياء، فحين يرسم الرَّسَّامون أو عندما يحاول أصحاب الخيال السِّينمائيِّ في السِّينما وفي التِّلفزيون أن يضعوا أشكالًا لا يمكن أن يخرجوا عن الأشكال التي عرفوها؛ لأن ذلك يعكس حدود معرفتهم القاصرة، فكيف يمكن لهذا الفكر البشري المحدود أن يحيط بالله ﷻ، الذي لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء؟ وكيف يحيطون بصفاته أو بذاته؟ وإذا كان الله ﷻ ليس كمثله شيءٌ، توقَّف التَّصوُّر البشري إطلاقًا عن إنشاء صورة معينة لذاته

تعالى، وقد وصل ابن خلدون رحمه الله إلى تقرير ذلك، فهو يرى أن لا مطمع لعقلك أن تزن به قضايا التوحيد، وأحوال الآخرة، وأن تتقحَّم به مناطق مجهولة من الغيب، فذلك إقدام محال، ولن يبلغه الخيال[1]، ومتى توقَّف عن إنشاء صورة معينة لذاته العليَّة فإنه يتوقَّف تبعًا لذلك عن تصور كيفيات أفعاله جميعًا. ولم يبق أمامه إلا مجال تدبُّر آثار هذه الأفعال في الوجود من حوله.

ومن ثم تصبح أسئلة كهذه: كيف خلق الله السَّمَوات والأرض؟ كيف استوى على العرش؟ كيف هذا العرش الذي استوى عليه الله سبحانه؟!... تصبح هذه الأسئلة وأمثالها لا محلَّ لها[2]!، ولكن هذه الآيات جاءت تعرِّفنا بالله ﷻ من خلال كلامه -تعالى مجده-.

ولماذا جاء التعريف بالله ﷻ في هذا الموضع من السُّورَة؟

الجواب: كان المحور الأول رحلة مدهشة واسعة الآماد، ممتدَّة الأبعاد، من مولد البشريَّة ونشأتها إلى أن تبعث في يوم المعاد.

حكى المحور الأول القصَّة الحقيقيَّة للإنسانيَّة منذ بداية وجودها إلى المكان الحقيقي الذي ستنتقل إليه عندما تلاقي مصيرها.

وهنا ينقلك الله ﷻ إلى رحلة في الأبعاد المشاهدة وغير المشاهدة من السَّمَوات والأرض لتتعرف على مجد ربِّك، وجلاله، وعظمته، فهو لم يدقق في تفاصيل (الفعل) وإنما لفت انتباهك إلى إعجاز (الفاعل). نعم الوصول إلى (الفاعل) عبر شهود أجزاء (الفعل).

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، (٤٦٠).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٣/ ١٢٩٦).

ينقل الله ﷻ البصائر والأبصار لتطَّلع إلى ما يحويه الكون من مخلوقات وأسرار، ولتشاهد أفعال ربِّك ﷻ في هذا الكون الزاخر المَوَّار.. ينقلك بصورة مشوِّقة إلى السَّمَوات والأرض، وإلى الليل الذي يطلب النهار في ذلك الفلك الدَّوار.

ينقلك الله ﷻ إلى الرياح التي تتناسق حركتها مع السُّحُب المُسيَّرة بأمر الله ﷻ مسخَّرة إلى مكان محدَّد، حيث توجد أرض ميتة، فترسل المياه التي تنعشها بالحياة، وتنبت فيها الثَّمرات.

في أثناء ذلك يخبرك الله ﷻ عن نفسه؛ لتدعوه تضرُّعًا وخفية، وخوفًا وطمعًا، ولتتعرف إليه أكثر عندما تعلم أنه ينهاك أن تفسد في الأرض التي خلقها لك صالحة، فالناس يرون السَّيَّارات في غاية الإحكام والصنع ويتنافسون على شرائها، أرأيت لو قام أحدهم فحوَّل السَّيَّارة إلى مكبِّ نفايات بدلًا من أن يجعلها فيما صُنِعت له، ما تقول فيه؟ كيف سيشعر صانعها والناس حوله بفداحة هذا الإفساد الذي يقوم به؟ وكذلك فإن الله تعالى ينهانا أن نفسد في الأرض التي خلقها لمصالحنا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

إن الله ﷻ يعرِّفك بنفسه تعالى جَدُّهُ وتبارك اسمه.. يعرِّفك بنفسه بشهود مخلوقاته، وبشهود نظامه في هذه المخلوقات.

إنه –تعالى ذكرُه– يريد أن يهتزَّ قلبك تعظيمًا له، وتقديسًا لملكه.. يريد أن يَوجَلَ فؤادُك تسبيحًا بحمده، وأن يشعر بهذه العظمة الفيَّاضة بصنعه.. حينما تشعر شعورًا قاهرًا بوجود المدبِّر المقدِّر صاحب الخلق والأمر.. «وهذه هي الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى

الاستجابة لداعي الله ﷻ، والاستسلام لسلطانه الذي يستسلم له هذا الوجود كلُّه، ولا يتخطَّاه».

حِكَمُ التَّعريف بالله ﷻ في القرآن:

لماذا يعرِّفنا الله ﷻ بنفسه مع أن معرفته في نفوس الناس غير المعاندين فطريَّة ضروريَّة؟

الجواب:

أما أولًا: فلأن معرفة الله ﷻ باعتباره إلهًا يسيِّر الكون ضروريَّة في فطرة الناس، لكن شياطين الإنس والجنِّ يحاولون تغطية هذه المعرفة، ولذلك سمَّاهم الله ﷻ كفَّارًا (من الكفر الذي هو التَّغطية والسَّتر)، فيذكِّرنا الله ﷻ بهذه المعرفة الضَّروريَّة، وقد أشار النَّبيُّ ﷺ إلى الجهود الضَّخمة المجرمة للشَّياطين في تغطية معرفة الله ﷻ، فقال فيما يرويه عن ربه: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١).

وأما ثانيًا: نحن نعرف الله ﷻ بفطرتنا ولكننا لا نعرف صفاته تفصيلًا، ولذلك اضطرب الناس في وصف الله ﷻ، فمنهم من جعله بشرًا إلهًا كالذين يؤلِّهون عيسى عليه السلام ، ومنهم من زعم أن إلهه شمس، أو أحجار، ومنهم من تاه فجعله مخلوقًا مقدَّسًا لا يعلم من أين جاء؟! وهكذا حدث الشرك والوثنية، ومنهم من زعم أنه يعبد المخلوقات لتقرِّبه إلى الله ﷻ زلفى، ومنهم من نفى صفاتٍ لله ﷻ هي صفات كمال، ومنهم من أثبت صفاتٍ لله هي صفات نقص.. فحدَّثنا الله ﷻ عمَّا يعرِّفنا به؛ لئلا يكون لأحد حجَّة بعد ذلك.

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

وأما ثالثًا: فلأننا نعرف الله ﷻ في الجملة، ولكننا لا يمكن أن نعرف تفاصيل صفات جلاله وكماله، فالله غيب من هذه الناحية لا تدركه الأبصار، فأخبرنا الله عما يعرفنا به على الوجه الصحيح.

وأما رابعًا: فلأن الله ﷻ يريد أن نتحقَّق في اعتقادنا بوجوده والإيمان بصفاته بالعرفانية، لا المعرفية المجرَّدة، وهذه طريقة القرآن المتفرِّدة المطَّردة في التَّعريف بالله سبحانه، وهو ما أشرنا إلى شيء من ملامحها آنفًا من استدعاء عظمة الكون، ودِقَّة صنع المخلوقات، ونواميس تسييرها وتدبيرها.. استدعاء كلِّ ذلك شاهدًا على عظمة وجلال وجمال الخالق سبحانه، وتنمية الهيبة من جنابه والمحبَّة له في القلوب.

المعالم التَّعريفيَّة العامَّة بالله ﷻ الخبير اللطيف الموصلة للشرف المنيف التي تضمنتها آيات المحور الثاني:

سبقت الإشارة إلى أن آيات هذا المحور قد عرضت لاثني عشر مَعْلمًا من المعالم الكبرى، تعرِّفنا بالله ﷻ، وتوصلنا إلى حضرته، فتمتلئ قلوبنا محبَّة له، وهيبة لجلاله، وسنتناولها تباعًا:

هنا سنسأل: فما المعلم التعريفي الذي نشعر به في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ۝٥٤﴾؟

الجواب:

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الأوَّل: الاسم المعظَّم: فالرَّب الذي يجب أن تتخذوه ربًّا هو الله ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴿٥٤﴾﴾، فـ"الله" اسم للرَّبِّ الذي يجب أن يكون ربَّ العالمين، فلا تختاروا من عندكم أشياء، فتجعلوها أربابًا لكم:

وصف الله ﷻ نفسه بأنه ربُّنا، ووَصْفُه لنفسه بالرُّبوبيَّة يعني ثلاثة أمور كما بيَّنَّا في سورة الفاتحة[1] عند قول ربِّنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفَاتِحَة: ٢]، وتستلزم رابعًا: فالرَّبُّ هو السَّيِّد المطاع، الملك المالك، المربِّي للشَّيء، المصلح له حالًا فحالًا حتى يبلغ كماله، وهذه الأوصاف الثلاثة تستلزم أن يكون الله ﷻ خالقًا. فبيَّن الله ﷻ للبشريَّة أهمَّ اليقينيات التي تقوم عليها بقية الحقائق وتستمد ثبوتها من ثبوتها كأنَّه يقول: انظروا حواليكم ماذا تجدون؟

سيقولون: كونًا فسيحًا.

فكأنَّه سألهم عن أنفسهم: ماذا ترون في أنفسكم؟

سيقولون: مخلوقات بشريَّة ذكيَّة جدًّا تحاول أن تستفيد من هذا الكون المنظَّم المسخَّر، حينها كأنه أراد أن يخبرهم عن حقيقة وجودهم، فقال لهم: أنا خلقتكم كما خلقت هذا الكون من حولكم ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، فكأنه قال: إن سيِّدكم ومالككم وملككم ومنشئكم ابتداء من الإيجاد من العدم، ومربيكم ومصلحكم، حتى ظهرتم بهذه الخلقة العظيمة.. فعرَّفهم باسمه العلم، وهو الله ﷻ.

لاحظ قوَّة البداية في مطلع الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ﴿٥٤﴾﴾، فكاف الخطاب في كلمة ﴿ربكم﴾ تدل على وجود مخاطبين، فمن المخاطبون بالآية؟

---

(١) ينظر: الإسلام في سبع آيات (ص: ٩٨، ٩٩).

الجواب: الخطاب عالميٌّ، يشمل جميع السامعين، وفيه استثارة لذهن المتلقِّي واهتمامٌ به، فهو مُوَجَّهٌ لنا -أعني المسلمين-، ولغيرنا من الكافرين والمشركين، فهو خطابٌ للعالمين، يخبرنا الله فيه هذا الخبر العظيم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الحرف ﴿إِنَّ﴾ حرف توكيدٍ، يجعل الخطاب موجَّهًا للمُقِرِّ وللشَّاكِّ أو المُنكِر.. لماذا يؤكِّد الله ﷻ هذا الخبر للمُؤمن المُقِرِّ وللشَّاكِّ أو لِلمُنكِر؟

الجواب:

١) التأكيد للمُؤمن المُقِرِّ يصوِّر لك محبَّة المخاطِب للمخاطَب؛ إذ يؤكِّد له الخبر ليزداد إيمانًا ومعرفة وتبصرة ويقينًا بربوبية الله ﷻ، ومَجْدِه، وعَظَمَتِه، وسِعَةِ مُلْكِهِ، وشعورًا بِدَلائِلِ قُدْرَتِهِ، واعتزازًا بعبوديته لله ربِّه ﷻ.

٢) وللشَّاكِّ المُنكِر لربوبية الله ﷻ؛ لأن التأكيد يناسب حالة الإنكار حتى لو لم يشعر بعظمة التأكيد، لكن التأكيد على ربوبية الله ﷻ يعني التَّعريض برذالة كلِّ إلهٍ يدَّعيه من يعبدون غيره:

تَخيَّلْ أن بعض بني آدم يعبدون البقر، ويذرون الله ﷻ خالق البقر والبشر.. الذي خلق لهم البقر ليربِّيَ بخيراتها الممكنة أجسادَهم وينتفعوا بها في حياتهم في نظامٍ مستقرٍّ. هنا يقول الله ﷻ لهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

تَخيَّلْ! أن بعض بني آدم يعبدون الشمس والقمر، ويذرون خالق الشمس والقمر الذي سخَّرهما وسائر النجوم لنفع البشر، حيث تتربَّى أجسادهم، وتنمو حياتهم بسبب ذلك التَّسخير في نظام مستمرٍّ. هنا يقول الله ﷻ لهؤلاء التائهين: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

تَخيَّلْ أن بعض بني آدم يعبدون البشر، فيعبدون فرعون وسائر المتجبِّرين، أو يعبدون الأولياء والصالحين كعيسى المسيح عليه السلام، أو بعض الأنبياء عليهم السلام والصِّدِّيقين، وينسون أن الله

ﷻ أرسل الأنبياء ﷺ ليهتدي بهم البشر، فيربِّي الله ﷻ بتلك الهدايات عقولهم وأرواحهم وحياتهم في نظام دقيق. هنا يقول الله ﷻ لهؤلاء التائهين: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولكنَّنا بالغيبِ نؤمنُ لا بما ... لدينا مِنَ المَعْنَى الذي طابَ مَوْرِدَا
تباركَ رحمانًا على عرشِه استوى ... كما هو يَدْرِي والذي قد دَرَى اعتدى
ونحنُ له الأفعالُ يفعلُنا متى ... أرادَ فَنَدْرِي فِعْلَهُ اليومَ لا غدَا
ونُسْلِمُ إخلاصًا إليه نُفُوسَنا ... مطيعينَ إمَّا للنَّجاة أو الرَّدَى
ولا حُكْمَ فينا للعقولِ ولا لِمَا ... تُحَدِّدُهُ كلُّ العقولِ تحددا
وما هو إلا أمرُه سِرُّ خلقِه ... يُبِينُ ويخفى مطلقًا ومقيَّدَا
ونحنُ التَّقاديرُ التي هو عالمٌ ... بها وهو عنَّا في الغُيُوبِ تَوَحَّدَا
فلم ندرِ منه غيرَ ما نحنُ فيه من ... معانٍ ومحسوسٍ وما خُلِقْنَا سُدَى[1]

نشعر بأن في هَذِهِ الآيَةِ بِشارَةً عَظِيمَةً لِلْعُقَلاءِ؛ لِأَنَّ الله ﷻ قالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولَمْ يَقُلْ: أَنْتُمْ عَبِيدُهُ، بَلْ قالَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ فلماذا؟ وما الفرق بين التعبيرين؟

الجواب: تأمَّل الجمال البيانيَّ القرآنيَّ: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ولم يقل: إنكم عبيد لله؛ ليقرِّر حقيقة الرُّبوبيَّة، فالرَّبُّ الذي يجب أن يقصد هو ﷻ لا غيره، وليتحبَّب إلينا عن طريق أفعاله لا عن طريق واقعنا، وأفعاله عظام تمتلئ بالجمال والرَّحمة والإكرام، وأفعاله تؤدِّي إلى الشُّعور بالنِّعم التي تحيط بنا، والمَعْنى: إنَّ الَّذِي يُرَبِّيكم شيئًا فشيئًا في كلِّ لحظة أبدًا.. إن الذي يصلح أحوالكم وشؤونكم، ويُوَصِّلُ إلَيْكُمُ النِّعم والمكرمات والخَيْراتِ، ويَدْفَعُ عَنْكُمُ المصائب والمصاعب والمَكْرُوهاتِ هو الله ﷻ، ولا يصنع بكم ذلك إلا لكمال

(١) الأبيات لعبد الغني النابلسي. ينظر ديوانه، (ص: ٥٥٤).

قدرته، وكمال علمه وحكمته ورحمته، وأودع فيها أصناف المنافع وأنواع الخيرات، ومن كان له مربٍّ موصوفٌ بهذه الحكمة والقدرة والرَّحمة، فكيف يليق أن يرجع إلى غيره في طلب الخيرات أو يعوّل على غيره في تحصيل السّعادات؟!

ثمَّ في الآية دقيقةٌ أخرى وهي أنَّه تعالى لمَّا نسب نفسه إلينا سمَّى نفسَه في هذه الحالة بالرَّبِّ، وهو مشعرٌ بالتّربية وكثرة الفضل والإحسان، فكأنَّه يقول من كان له مربٍّ مع كثرة هذه الرَّحمة والفضل، فكيف يليق به أن يشتغل بعبادة غيره؟[1]

هنا ترى عبدًا تمتلئ نفسه بمجد ربوبية الله ﷻ، فيقول:

لك الحمدُ كم أوليتَ يا ربِّ من فضلٍ ... وآتيتَ من علمٍ ووقَّيت من جهلِ

ووفقتَ من برٍّ وألهمتَ من تُقَى ... ومن خلقٍ سهلٍ ومن منطقٍ جزلِ

فإن كنتُ -يا ربِّ- عن الشُّكر عاجزًا ... فما شكرُ هذا الفضلِ بالعمل السَّهلِ[2]

فهمنا المَعْلَم الذي يعرِّفنا بالله في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ فما المعلم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟

الجواب: هنا يأتي المعلم الثاني:

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٨).

(٢) ديوان الشيخ أحمد سحنون (٢/ ٣٥٦).

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الثاني: خلق الكون "وهو المكان":

فتربية الله ﷻ بدأت بأنْ خلق السَّمَوات والأرض قبل أن يخلقنا ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]:

وهذا نوع لطفٍ ربانيٍّ ربما دقَّ إدراكه على بعض البشر؛ إذ في خلق السَّمَوات والأرض قبل خلق البشر نوع تهيئة وتمهيد لقدوم هذا الكائن الجديد، ونوع تكريم لهذا الضَّيف الذي سيحلُّ بساح الوجود.

هناك جزءٌ كبيرٌ من السَّمَوات والأرض تشاهده الإنسانيَّة وتجوب آفاقه، وهناك أجزاء من خلق السَّمَوات والأرض أكبر وأعظم لم تشاهدها الإنسانيَّة من هذا الكون، والله ﷻ يبيِّن لنا أنه هو الخالق لها، فخلق لنا ما نبصر وما لا نبصر، فلما أخبرنا بأنَّ الرَّبَّ الحقَّ هو الله ﷻ لربما تساءل أحدهم، فقال: فما دليل أنه ربُّنا؟

فيأتي الجواب قاطعًا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الحجَّة هنا شديدة الوضوح: فقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ دعوى حقٍّ قرنها الله ﷻ ببرهان لا يمكن لأحد أن يعترض عليه، وهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فهذا الكون من ذراته إلى مجراته خلقه الله ﷻ، فهل يستطيع أحدٌ أن يزعم أنه فعل ذلك؟ هل يستطيع أحدٌ أن يزعم أن أحدًا آخر فعل ذلك؟

الله ﷻ يخبر عن نفسه أنه خلق السَّمَوات والأرض، فإذا قال قائل: لا، هناك خالقٌ آخر. نقول له: الله ﷻ أخبر عن نفسه أنه خلق السَّمَوات والأرض وأنت بيِّنْ لنا من هذا الذي يزعم أنه خلق السَّمَوات والأرض سواه؟ لا يوجد أحد حتى فرعون لمَّا قال: أنا ربكم الأعلى، لم يستطع أن يأتي ببيِّنة على قوله إلا أنه قال بصورة تشبه المزاح: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّخرُف: ٥١].

فأقصى ما ادَّعاه أنه له ملك مصر، وعلى الرغم من كذبه إلا أنه لم يدَّعِ أنه خلق مصر، بل أن له ملكها، أما يكفيه أن يقول الله ﷻ واصفًا نفسه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، خلق السَّمَوات والأرض، وليس فقط ملك مصر.

وقد تسأل: ما معنى كلمة ﴿خَلَقَ﴾، وكيف يعرِّفنا ذلك بالله ﷻ؟

الجواب: كلمة ﴿خَلَقَ﴾ بديعة المعنى، عظيمة المبنى؛ لأنها تعني أنشأ أو أوجد على تقدير سويٍّ مستقيم، وقد سبق أن فصَّلنا ذلك في الآية العاشرة من هذه السُّورَة.

وخلق السَّمَوات والأرض على هذا التقدير السويِّ المستقيم يحوي أدلَّة كثيرة ترشدك إلى الإيمان بالله ﷻ على هيئة مدهشة، من جملة وجوهٍ عظيمة:

الأول: أوجد الله ﷻ ذواتهما، وقدَّر هذه الذَّوات من ذرَّاتها إلى مجرَّاتها بميزان محدَّد معلوم، فلو زادت المقادير أو نقصت لحدث اختلال ما ربَّما يفضي إلى فنائها، واضمحلالها، وهذا يقتضي أن يكون له القدرة المطلقة، ولذا قال جلَّ مجدُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢].

وهذا الخلق يقتضي أن يكون الخالق عليمًا بكلِّ شيء، ومن ذلك الوزن الذي يستحقُّه كلُّ مخلوق؛ لينسجم مع بقيَّة المخلوقات ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ [الأنعام: ١٠١].

وتخيَّل لو أن الشَّمس أكبر من ذلك -مثلًا- ماذا سيحدث؟ أو الشَّمس أصغر من ذلك ماذا سيحدث؟ لو كان التَّقدير للجاذبية مختلًّا، ماذا سيحدث لمن يسكنون على الأرض؟ «فاختصاص كُلِّ واحد منهما بمقداره المُعَيَّنِ لَا بُدَّ وأن يكون بِتَخْصِيصِ مُخَصِّصٍ، وذلك

يَدُلُّ على افتقار خلق السَّمَوات وَالْأَرْضِ إلى واحدٍ فَاعِلٍ قادرٍ مريد، يخلق ما يشاء ويختار»[١].

الثاني: هذه الْأَجْسَام المخلوقة في السَّمَوات والأرض تجري إلى أجل مسمًّى في كونٍ يزداد توسُّعًا، وتسير وَفْقَ تقديرٍ متوازنٍ بهذه البهجة دون أن تتصادم، ودون أن تفسد، ودون أن تضطرب، ودون أن تميل، فمن الذي منحها هذا التَّوازن؟ ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥].

الثالث: أَجْرَام هذه الْأَفْلَاكِ وَالْكَوَاكِبِ وَالْعَنَاصِرِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ أَجْزَاءٍ صَغِيرَةٍ، وفي الذَّرَّات الصَّغيرة عوالم، فالذَّرة تتكون من سحابة من الشُّحْنات السَّالبة (الإلكترونات)، وهذه تدور حول نواة موجبة الشُّحْنة صغيرة جدًّا في المركز، وتتكوَّن النَّواة من بُرُوتُونات موجبة الشُّحْنة، ونُيُوترونات متعادلة، ولا يبغي بعضها على بعض، فمن الذي نظَّمها كلَّ هذا التَّنظيم المدهش؟!

الرابع: أنَّ كلَّ واحدٍ من الأفلاك متحرِّكٌ إلى جهةٍ مخصوصةٍ وحركةٍ مختصَّةٍ بمقدارٍ معيَّنٍ مخصوصٍ من البطء والسُّرعة، وذلك أيضًا خلقٌ وتقديرٌ، ويدلُّ على وجود المخصِّص القادر[٢].

الخامس: هذه الأجسامُ مُحْدَثَةٌ حسب النَّظريَّات المختلفة التي تُجْمِعُ على أن الكون نشأ قبل زمن محدَّد، حدَّده العلماء حاليًا بـ ١٣,٨ مليار سَنَة، وقد يكتشفون معطيات جديدة تجعلهم يظنون أن عمر الكون غير ذلك، فكلُّ هذا الخلق في هذه المدَّة يمسكه الله ﷻ من

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٥).

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٥).

الزَّوال والاختلال مربِّيًا له، لا تأخذه في أيِّ لحظة سِنَةٌ ولا نوم.. فمن ذا الذي يزعم أنه يفعل شيئًا من ذلك؟!

إنه الله ﷻ:

ولا شـــيءَ يُشـــبِـهُـهُ جُـمْـلَـةً ... تـحـقَّـقَ ذلـك مـنْ قـد عَـلِـمْ
فـأبـدى الـلُّـغـاتِ وأعـطـى الـعـلـومَ ... وأفشـــى الصِّـــنـاعـاتِ والـكـلَّ زَمْ
ولـولا الـتـعـالـيـمُ لـم نَـدْرِهـا ... ولا عـاش حـيٌّ ولـم تَـغْـذُ أُمْ[1]

إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] تحسم مادَّة الإلحاد، وتأتي عليه من أساسه، وتحاصره من جذوره؛ ذلك أن الملحدين يروِّجون لفكرة مفادها أن هذا الكون أزليٌّ، بمعنى أن ليس له بداية كما أن ليس له نهاية، فقد كان موجودًا منذ الأزل، وسيبْقَى إلى الأبد، وإنما يريدون من هذا التَّوصُّل إلى نفي الخالق الذي أنشأ الكون من العدم، فتأتي هذه الآية لتسقط هذه الفِرية.

ولكن الله ﷻ قيَّد خلق السَّموات والأرض بقوله: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فلماذا قيَّد هذا الفعل العظيم بهذا القيد؟

الجواب: هذا هو المعلم التَّعريفيُّ الثالث:

(١) من شعر ابن حزم الأندلسي. ينظر: تاريخ الأدب الأندلسي (ص: ٣٧٢).

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الثالث: مدَّة خلق الكون:

فخلق السَّمَوات والأرض حدث في ستَّة أيَّام بناءً على قوانين وضعها؛ ليكتمل الخلق وَفْقَها، ولو شاء لخلقها في لمح البصر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فكلمة ﴿ستَّة﴾ تدلُّ على العدد المعروف بعد العدد خمسة[1]، فالزمن الذي استغرقه خلق السَّمَوات والأرض ستَّة أيام، وهنا يعطينا الله ﷻ مَعْلَمًا ثالثًا في تعريفه بأنه ربُّنا، وهذا المَعْلَم أنه خلق السَّمَوات والأرض في ستَّة أيَّام؛ ليبيِّن لنا غيبًا لا نعرفه، وهذا الخلق في هذه الأيام الستة كان وفق قوانين داخلة في تدبيره -جل مجده- كما قال ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ﴾ [يونس: ٣].

لعلَّك تسأل: ما طبيعة هذه الأيام السِّت؟ وهل مقاديرها تشبه مقادير الأيام الأرضيَّة؟

الجواب: هذا سؤالٌ مهمٌّ؛ لأن الناس يخطر على بالهم أن الأيَّام تتكوَّن من (٢٤) ساعة معدودة عدًّا بالدَّقائق والثَّواني، ولكننا نوجِّه نظر هؤلاء إلى أن مصطلح كلمة ﴿يوم﴾ يتغيَّر بحسب السِّياق في القرآن الكريم، وممَّا يقرِّب لنا المسألة: اليوم الأرضي غير اليوم في المريخ، وغير اليوم في كوكب زُحَل.

فالأيام ضمن المجرَّة الواحدة تختلف، فما بالك بالأيام قبل مفهوم الزمان، فالأيَّام السِّتَّة لا تخضع للميزان البشريِّ الذي يحدِّد اليوم حسب حركة الأرض حول نفسها، بل الأيَّام السِّتَّة تدل على مُدَدٍ زمانيَّة يتميَّز الزَّمان فيها عن غيره، فهي ليست ستَّة أيام من أيام الأرض

---

(١) وفي هذا الموضع من القرآن المجيد ترى لفتةً لغوية يفتح زهرتها الْوَاحِدِيُّ ﷺ عَنِ اللَّيْثِ أَنَّهُ قَالَ: الْأَصْلُ فِي السِّتِّ وَالسِّتَّةِ سِدْسٍ وَسِدْسَةٍ، أَبْدَلَ السِّينَ تَاءً، وَلَمَّا كَانَ مَخْرَجُ الدَّالِ وَالتَّاءِ قَرِيبًا أَدْغَمَ أحدهما في الآخر واكتفى بالتاء؛ لأنك تَقُولُ: فِي تَصْغِيرِ سِتَّةٍ: سُدَيْسَةٌ، وَكَذَلِكَ الْأَسْدَاسُ، وَجَمِيعُ تَصَرُّفَاتِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ. التفسير البسيط (٩/ ١٦٦).

ولا بقيَّة الكواكب، فكلُّ هذه الأيام إنما عرفت تقديراتها الزَّمانيَّة بناء على حركة الأجرام السَّماويَّة حول نفسها، وفي موضعها، ولم تكن هذه الأجرام السَّماويَّة قد خُلِقت حينها حتى تقدَّر الأيام بناء على حركتها، وقد ذكر الله ﷻ لنا اختلاف مقادير الأيام من جهة إلى أخرى، فهناك يوم يقدَّر بألف سَنَة أرضيَّة، كما في قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وَوَصَفَ الله ﷻ مدة يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]، وكذلك لمَّا وصف النَّبيُّ ﷺ الدَّجال ذكر أن أيامه تختلف مدَّتها وتقديراتها، فيوم منه كسَنَة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه مثل أيامكم هذه(١).

وبذلك تكون الأيَّام السِّتَّة التي خلق الله ﷻ فيها السَّمَوات والأرض غيبًا لم يشهده أحد من البشر ولا من خلق الله ﷻ جميعًا: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف: ٥١]، وإنما شهده من أراد الله ﷻ في حينه أن يشهده.. وكلُّ ما يقال عن بداية الخلق خارج ما وصف الله ﷻ لنا إنما هو محض تخرُّص لم يستند على نقل مصدَّق، ولا بحث محقَّق.

قصَّة بداية خلق الكون، وتحديد الموعد الزَّمنيِّ لخلق الأرض والسماء:

فصَّل الله ﷻ الكلام عن هذه الأيَّام السِّتَّة المذكورة فِي سُورَةِ (حم السَّجْدَةِ - فُصِّلَتْ)، وفِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وفي سورة النازعات.

وقد سبق ذكر الجمع بين هذه الآيات في المحور الأول من مفصل سورة البقرة بتفصيلٍ مشوِّق عن بداية خلق الكون، مع تحديد الموعد الزَّمنيِّ لخلق الأرض والسماء.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم (٢٩٣٧).

المراحل التي مرَّ بها خلق السَّموات والأرض:

المراحل التي مرَّ بها خلق السموات والأرض

المرحلة الأولى: الدُّخانيّة

فالْمادّة الّتي خُلِقَتْ منْهَا السّمَوَاتُ كَانَتْ دُخَانًا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: 11]

المرحلة الثانية: الفتق بعد الرّتق

كانت السّمَوات والأرض رتقًا، ففتقهما الله عز وجل، أي: كانتا كتلة واحدة منسدّة لا انفتاح فيها ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: 30].

المرحلة الثالثة: مرحلة التّمييز لتكوين كلّ من السماء والأرض

لما فتق الله عز وجل الأرض عن السماء ميّز كلًا منهما في خلقه وتكوينه، فخلق الأرض في يومين، وأكمل تكويناتها في يومين آخرين. ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 9 - 10].

المرحلة الرابعة: مرحلة التّكليف للسّماء والأرض

فبعد المرحلة الثالثة استوى الله عز وجل إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله عز وجل خطابًا تكليفيًا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

المرحلة الخامسة: بناء السماء

لما استوى إلى السماء قضاهن وسوّاهن: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12] أي قدّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: 12]، فخلق نجومها.

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض

وقد حدثت في الوقت نفسه الذي حدثت فيه المرحلة الخامسة بصورة عامّة، لكن ذلك كان بعده عند التفصيل ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: 30-31].

فإن قلت: هل يمكن أن نقدِّم خلاصة هادية في الجمع بين هذه الآيات؟

الجواب: نعم! فقد مرَّ الخلق الأول للسماء والأرض بستِّ مراحل تداخلت بعض تفاصيلها، وسأذكرها على وجه الإجمال؛ لأنه قد سبق تفصيلها في المحور الأول من مفصل سورة البقرة:

المرحلة الأولى: الدُّخانيَّة:

فالْمَادَّة الَّتِي خُلِقَتْ مِنْهَا السَّمَوَاتُ كَانَتْ دُخَانًا، ويدلُّ لذلك قوله في سورة فصِّلت: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، وفي الوقت الذي كانت السَّمَوات فيه دخانًا خلق الله ﷻ الأرض، لتكون ملتصقة (مرتتقة) بالسَّماء، فقال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [فصلت: ٩].

المرحلة الثانية: الفتق بعد الرَّتق:

كانت السَّمَوات والأرض رتقًا، ففتقهما الله ﷻ، أي: كانتا كتلة واحدة منسدَّة لا انفتاح فيها، فكانتا مرتتقتين (متلاصقتين)، كما أفاد ذلك قول الحقِّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ويمكن أن يكون هذا الاتِّصال عندما كانا مادة دخانيَّة واحدة، وربَّما كان هناك شيء آخر مع المادة الدُّخانيَّة، ويكون ذلك أشبه باتصال عناصر متعددة مع كونها ليست جامدة، وقد علمنا أن السَّمَوات كانت مادة دخانيَّة، لكن هل الأرض كانت مادة دخانيَّة؟ ثُمَّ فَتَقَ اللهُ ﷻ رَتْقَهَا أَيْ: فَصَلَ بَعْضَهَا مِنْ بَعْضٍ.

المرحلة الثالثة: مرحلة التَّمييز لتكوين كلٍّ من السماء والأرض:

فلما فتق الله ﷻ الأرض عن السماء ميَّز كلًّا منهما في خلقه وتكوينه، فكوَّن الله الأرض في هذه المرحلة، وقال عن تكوينها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ

لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩ - ١٠]، **فخلق الأرض في يومين، وأكمل تكويناتها، فجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي يومين آخرين، وبذا خلق لنا ما في الأرض جميعًا، وتمَّ ذلك في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سواء.**

المرحلة الرابعة: مرحلة التَّكليف للسَّماء والأرض:

فبعد المرحلة الثالثة استوى الله ﷻ إلى السماء وهي ما زالت دخانًا، فخاطبها الله ﷻ خطابًا تكليفيًّا: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

المرحلة الخامسة: بناء السماء:

فلما قالت السماء والأرض: ﴿أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾، وهو قد استوى إلى السماء، قضاهنَّ -كما في سورة فصِّلت المكِّيَّة- وسواهنَّ -كما في سورة البقرة المدنية- ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ١٢]: ففتق الله ﷻ السماء عن الأرض من قبل، وفتقها في هذه المرحلة في ذاتها، فجعلها سبع سموات.

وفي هذين اليومين أيضًا ﴿وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]: أي: قدَّر أنظمتها وقوانينها، ثم قال: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، فخلق نجومها التي صارت مصابيح للسَّماء، **وفي هذه المرحلة** ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩﴾ [النَّازِعَات: ٢٧-٢٩].

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض:

وقد حدثت في الوقت نفسه الذي حدثت فيه المرحلة الخامسة بصورة عامَّة، لكن ذلك كان بعده عند التفصيل ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلۡجِبَالَ

أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٠-٣٣]، فقد قرَّر أئمة اللُّغة أن الدَّحو غير الخلق(١).

فالماء أخرجه منها، وأخرج منها المرعى، وتقارن هذا بقول الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحَدِيد: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمَر: ٦]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

فتُوقِنُ أن هذه الأمور الثلاثة إنما أنزلها الله ﷻ إنزالًا، وليس المراد بالإنزال الخلق، فالخلق أمر آخر، ولا ترى سببًا مقنعًا لتفسير من فسَّر ﴿أَنزَلَ﴾ خلق.

وبذا فمما حدث في بداية الخلق أن خلق الله ﷻ جميعَ الكائنات الحيَّة مِنَ الْمَاءِ، وهذا ما ذكره لنا في آية الأنبياء، ولكن الذي يظهر أنَّ خلق الأحياء من الماء ليس له علاقة مباشرة بالأيَّام السِّتَّة المذكورة.

فالدَّحو يمكن أن يكون خارج الأيَّام السِّتَّة، ويمكن القول بأنه جزء من اليومين الأخيرين يحتمل هذا وذاك.

وبيَّن لنا الْكِتَابُ الْحَكِيمُ أن الله ﷻ قدَّر الأمر في التَّكوين والإحياء تقديرًا دقيقًا، فقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وبيَّن الله ﷻ أن هذا التَّقدير كان موزونًا، وليس عشوائيًا، وكما بنى الكون بميزان محدَّد، وتقدير دقيق، فقد أمر بأن نقيم الميزان في حياتنا، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٢/ ١٤٤).

وقال حِكَايَةً عَنْ رَسُولِهِ نُوحٍ عليه السلام مُخَاطِبًا لِقَوْمِهِ: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٣ – ١٧].

وهذه المراحل السِّتُّ نفيدها من الجمع بين الآيات، وبذا تبهرك المعرفة القرآنيَّة في بيان كيفية خلق السَّمَوات والأرض التي لم نشهد خلقها، ومهما وصلنا إلى تحليلات عبر الاكتشافات العلميَّة فلا يمكن أن نصل إلى التَّحديد الدَّقيق التَّامِّ المنطبق، لماذا؟ لأننا ما شهدنا ولم نره.

فتمَّت المراحل السِّتُّ كلُّها في ستَّة أيَّام، وتوافق هذا مع قوله -تعالى جَدُّهُ-: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

وبذا اجتمعت الآيات في صورةٍ واضحة ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقد نظم سعيد بن دحباج –عفا الله عنه– هذه المراحل السِّتَّ فقال:

سبحانَ مَنْ خلقَ السَّماءَ وأرضَنا ... مِنْ مَهْمَهِ الدُّخَانِ قَدْ أنشاها

وقَضَى بِفَتْقِهِما وفَكِّ رِتاقِها ... وقَضَى بأمرٍ منه حين دَعَاها

ثمَّ استوى وإلى السَّماء بِحُكْمِهِ ... وبمُقْتَضَى العِلْمِ القَدِيمِ بَنَاها

والأرضّ سَوَّاها وأخرجَ ماءَها ... للخلقِ مَدَّ بساطَها ودَحَاها

عند التَّأمل يجد الإنسان القرآن مبينًا وواضحًا ولا تناقض بين كلماته.

حديثٌ في وصف بدايات الخلق والإشكال الوارد فيه:

وهنا ربما سألت، فقلت: قد ورد حديث يبين كيفية الخلق في هذه الأيَّام السِّتَّة المذكورة، وذلك فيما أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللهُ ﷻ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلاَثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ»[1]، فكيف نوفق بين هذا الحديث والآيات الواردة؟

فهذا الحديث بنصِّه لا يتعلَّق بموضوعنا؛ لأنه يذكر مسائل تفصيليَّة في خلق الأرض، وبناء على ذلك رأى بعضهم أنه لا يناقض ذكر الأيَّام السِّتَّة في القرآن، وكثير من علماء الحديث رأوا أنه حديث معلول، قدح فيه أئمَّة الحديث، ورأوه من رواية حَجَّاجِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَعْوَرِ الْمَصِّيصِيِّ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، وَهُوَ قَدْ تَغَيَّرَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ وَثَبَتَ أَنَّهُ حَدَّثَ بَعْدَ اخْتِلَاطِ عَقْلِهِ[2]، وذكروا أن الصحيح أنه موقوف على كعب الأحبار رحمه الله.

وممن قال بعدم ثبوت الحديث مرفوعًا: البخاريُّ، وعلي بن المدينيِّ، وابن جرير الطَّبريُّ، والبيهقيُّ، وأبو العباس القرطبيُّ، وأبو عبد الله القرطبيُّ، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيِّم، والحافظ ابن كثير، والزَّركشيُّ، والمناوي، والآلوسيُّ، وأبو شهبة[3].

---

(١) مسلم (٢٧٨٩).

(٢) ينظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٢٠٥-٢٠٦).

(٣) يراجع كتاب: الأحاديثُ المُشْكِلَةُ الواردةُ في تفسير القرآنِ الكريم (عَرْضٌ وَدِراسَةٌ) للدكتور/ أحمد بن عبد العزيز بن مُقْرِن القُصَيِّر (ص: ٢٤٣-٢٥٨)، حيث قال في خلاصة الحكم على الحديث: «الذي يظهر صوابه - والله تعالى أعلم - أَنَّ حديث أبي هريرة ﷺ لا يصح رفعه للنبي ﷺ، وأن أبا هريرة ﷺ إنما أخذه عن أهل الكتاب، لا من النبي ﷺ، والذي يتقوى لدي أَنَّ الخطأ وقع من أيوب بن خالد، أحد رواة الحديث؛ فإنه لم يوثِّقه أحد سوى ابن حبان، وابن حبان معروف بتساهله في

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلَّم عليه علي بن المدينيِّ والبخاريُّ وغير واحد من الحفَّاظ، وجعلوه من كلام كعب (أي: كعب الأحبار اليهودي الأصل ثم أسلم)، وأن أبا هريرة رضي الله عنه إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعًا وقد حرَّر ذلك البيهقي»[1].

فربَّما كان الحديث من خلل في تذكُّر كعب -إن كان إسلامه غير مدخول فذلك هو الأصل، لأن بعض الناس يطعن في إسلام كعب ونحن لا نميل إلى هذا الطَّعن- على أنَّ ابن جرير رحمه الله أخرج عنه في تفسيره قال: «بدأ الله خلق السَّمَوات والأرض يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس، وفرغ منها يوم الجمعة، فخلق آدم عليه السلام في آخر ساعة من يوم الجمعة، قال: فجعل مكان كلِّ يوم ألف سنَّة»[2]، وَثَمَّةَ آثَارٌ أُخْرَى عَنْ مُفَسِّرِي السَّلَفِ فِي تَقْدِيرِ الْيَوْمِ مِنْهَا بِأَلْفِ سَنَةٍ، مِنْهَا: رِوَايَةُ الضَّحَّاكِ رحمه الله عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، وَمِثْلُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رحمهم الله، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُمْ وَإِنْ سَمَّوْا تِلْكَ الْأَيَّامَ بِأَسْمَاءِ أَيَّامِنَا فَإِنَّهُمْ لَا يَعْنُونَ أَنَّهَا مِنْهَا، وإنما هي أشبه بمراحل للخلق عَلَى أَنَّ الْخَمْسَةَ الْأُولَى مَأْخُوذَةٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَعْدَادِ الْأُولَى[3].

وذكر ابن كثير رحمه الله تحديدًا لهذه الأيام، فقال:

توثيق الرواة، كما نص على ذلك الأئمة، وحسبك ما نقله الأزدي عن أهل العلم بالحديث من تضعيفهم لأيوب بن خالد، وقوله: إن يحيى بن سعيد القطان ونظراءه كانوا لا يكتبون حديثه. وهذه الشهادة من الأزدي كافية في رد رواية أيوب، وعدم الاعتماد عليها، كيف وقد تفرَّد برواية هذا الحديث، ورفعه للنبي ﷺ، مع ما في متنه من غرابة، ومعارضة لآيات القرآن الكريم».

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣١٥).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ٢٤٥).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٤٠٠).

«وَالسِّتَّة الأيَّام هِيَ: الْأَحَدُ، وَالِاثْنَيْنُ، وَالثُّلَاثَاءُ، وَالْأَرْبِعَاءُ، وَالْخَمِيسُ، وَالْجُمُعَةُ -وَفِيهِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ كُلُّهُ، وَفِيهِ خُلِقَ آدَمُ عليه السلام، فَأَمَّا يَوْمُ السَّبْتِ فَلَمْ يَقَعْ فِيهِ خَلْقٌ؛ لِأَنَّهُ الْيَوْمُ السَّابِعُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ السَّبْتُ، وَهُوَ الْقَطْعُ»(١).

وهذا الذي ذكره ابن كثيرٍ رحمه الله لم يثبت بنصٍّ صحيح صريح، ولا أميل لإثباته حتى يأتينا برهانٌ على ثبوته، وينبغي في المغيبات الاستغناء بالتَّنزيل عن التَّأويل، وكيف تحدَّد الأيام والشمس والقمر والأرض لم تخلق بعد؟!

ربما نسأل: ماذا عن ما بين السَّموات والأرض من الخلق، هل يدخل في الأيَّام السِّتَّة أم هو خارج عنهما؟

الجواب: ذكرَ الله أنه خلق السَّمواتِ والأرْض في ستَّة أيَّام، وأخبرنا في آية أخرى أنه خلق ما بينهما في المدَّة نفسها، فقالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]، وقالَ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝٥٨ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الفُرقان: ٥٨، ٥٩]، وقالَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨].

البصائر في ذكر الأيَّام السِّتَّة تبرزها أسئلة وجوديَّة:

الذي جعلنا نتكلَّم في هذه التَّفاصيل هو قوله -تعالى مجدُه- في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، هنا قد يدفعك التَّدبُّر إلى طرح أسئلة وجوديَّة لا بدَّ منها، نذكر منها ما يأتي:

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٢٦).

أن تكون السَّمَوات والأرضُ مخلوقتين فذلك دليلٌ على ربوبيَّة خالقهما، ولكن ما علاقة ذلك بذكر أنهما خُلِقتا في ستَّة أيَّام.. ما الفائدة في ذكر الأيَّام السِّتَّة، وهي مسألة لا يمكن للخلق إدراكها، ولا فرق عندهم بين أن يكون الخلق تم في لحظة أو يوم أو ستَّة أيَّام؟

ويتعلَّق بهذا سؤالٌ آخر: إنَّ حُدُوثَ السَّمواتِ والأرْضِ دُفْعَةً واحِدَةً أدَلُّ عَلى كَمالِ القُدْرَةِ والعِلْمِ مِن حُدُوثِها في سِتَّةِ أيَّامٍ.. فهل ذكر الأيَّام السِّتَّة يشعر بنقصٍ في القدرة؟ وبعبارة أخرى: ذكرُ الأيَّام السِّتَّة بيانٌ لواقع غيبيٍّ.. وما فائدة ذكره والإنسان لا يستطيع إدراكه أو إثباته؟

الجواب:

أولًا: ذكر الله ﷻ أمرين:

الأول: خلق السَّمَوات والأرض.

والثاني: أن هذا الخلق في سِتَّةِ أيَّامٍ.

فأما الأول وهو خلق السَّمَوات والأرض: فيمكن أن نعرف معرفة جزئيَّة ماديَّة أو منطقيَّة عقليَّة بشأنه، تدلُّنا على أن وراءه خالقًا، ويكاد علماء الكون أن يجمعوا على أن للسَّموات والأرض بداية، إلا من يعاند.

وأما الثاني: فيصعب وهو أن هذا الخلق كان في ستة أيام فيصعب وَفْقَ الإمكانات البشريَّة المتاحة التَّوصُّل إليه، والأيَّام السِّتَّة واقع غيبيٌّ ذكره الله ﷻ ليزيد المرء إيمانًا به ﷻ، إذ قضى الله ﷻ ألَّا يكون الخلق في مدَّة زمنيَّة واحدة كيوم أو ساعة مثلًا، وكان يمكن كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس : ٨٢] ، لكنه خلق السَّمَوات والأرض على مراحل وفي مراحل زمنيَّة مختلفة؛ ليبيِّن الله ﷻ لنا أنه تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فلا اعتراض عليه في أمر من الأمور وكلُّ شيء صنعه ولا منازع لصنعه

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القَصص: ٦٨].

وأخبر الله ﷻ عن هذه المراحل؛ ليعلم كلُّ من يحاول معرفة كيفية بداية الخلق أنَّ علمه – وإن زاد مع الأيَّام– محدود قاصر، فهو لا يستطيع الإحاطة بالكيفيَّة التَّفصيليَّة والتَّزمينيَّة لهذا الخلق عند بدايته.

وممَّا يدلُّ على أهمِّية الحديث عن هذا الأمر الغيبيِّ أن بعض الناس يذكر خرافات عن بداية الخلق كما تجد الآن واضحًا في أضخم الأفلام السِّينمائيَّة العالميَّة، فإنها ممتلئة بكلام كاذب مفترٍ حول كيفية بداية الكون مثل ما تنتجه خرافات شركة (مارفل) وغيرها، حيث تتكلَّم أفلامها عن الأبطال الخارقين، وعمَّا تسميه الآلهة، وتوقع في روع المشاهِد –بصورة مباشرة وغير مباشرة– معلومات خاطئة كاذبة عن بداية الخلق، وتجعل ما تسميه بالآلهة لا همَّ لهم إلا ظلم الإنسان واللَّعب به.. من أجل ذلك قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١]، وكذلك فإن الملحدين حاولوا أن يقدِّموا نظريَّاتٍ كاذبةً خاطئةً عن بداية الكون ليصرفوا الناس عن الإيمان بالله ﷻ كنظرية التَّطوُّر.

ويحدِّثنا النَّبيُّ ﷺ عما قبل خلق الكون، فعنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ أن نَاسًا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ سألوا النبي ﷺ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ؟ فقَالَ: «كَانَ اللهُ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوات وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»[1]، وفي رواية: «كَانَ اللهُ

(١) البخاري (٧٤١٨).

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»[١]، وعن عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «كتب الله مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السَّموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»[٢].

ثانيًا: ذكر الأيَّام السِّتَّة يزيدك يقينًا بأنه تَعالى يَفْعَلُ ما يَشاءُ ويَحْكُمُ ما يُرِيدُ، ولا اعْتِراضَ عَلَيْهِ في أمْرٍ مِنَ الأُمُورِ، وكُلُّ شَيْءٍ صُنْعُهُ، ولا منازع له، ولذلك قال أبو القاسم الرَّافعيُّ رحمه الله (ت: ٦٢٣هـ):

المُلْكُ لله الَّذي عَنَتِ الوُجُو ... هُ لَه وذَلَّتْ عِنْدَه الأربابُ

مُتَفَرِّدٌ بالمُلْكِ والسُّلطانِ قدْ ... خَسِرَ الَّذين تَجَاذَبُوهُ وخَابُوا

دَعْهُمْ وَزُعْمَ المُلْكِ يومَ غُرُورِهِمْ ... فسيعلمونَ غدًا مَنِ الكَذَّابُ[٣]

ثالثًا: من أهمِّ فوائد ذكر الأيَّام السِّتَّة بيان أن القرآن مصدقٌ لما بين يديه من الكتاب كالتَّوراة والإنجيل ومهيمن عليه.

وهنا لا بدَّ أن نتساءل: ماذا عن خلق السَّمَوات والأرض في الكتب السَّابقة. هل يتطابق تمامًا مع ما جاء في القرآن؟

جاء في سفر التَّكوين من التَّوراة في الفصل الأول وصف تفصيليٌّ لخلق السَّمَوات والأرض منه ما يتفق مع ما عندنا ومنه ما لا نستطيع أن نصدِّقه أو نكذِّبه، ومما ورد فيه:

(١: ١) فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ.

عندما تقارن هذه العبارة مع حديث النَّبيِّ ﷺ السابق تجد تعظيم الله ﷻ أقوى في الحديث، وهنا تشعر بهيمنة الوحي الخاتم على ما سبق.

---

(١) البخاري (٣١٩١).

(٢) مسلم (٢٦٥٣).

(٣) الأمالي الشارحة لمفردات الفاتحة، لأبي القاسم الرافعي (ص: ١٨٧).

ثم نتابع بعض ما في التوراة:

(١: ٢) وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ.

(١: ٣) وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ.

(١: ٤) وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ.

(١: ٥) وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا[1].

وهكذا مضت التَّوراة في بيان تفاصيل دقيقة غيبيَّة في كيفية الخلق لا يوجد عندنا أدلَّة في تصديق بعضها، ولكنك لا تشعر بالجمال والجلال ذاته عندما ترى الوصف في القرآن والسُّنَّة، فالذي فيهما أعظم تبجيلًا، وأقوم قيلًا، وأهدى سبيلًا.

فجاء القرآن مصدِّقًا للأيَّام السِّتَّة لكن المقياس الزَّمنيَّ بذكر الصَّباح والمساء لا يوجد دليل واضح عليه، وكذلك التَّفاصيل الغيبيَّة الدَّقيقة المذكورة في التَّوراة لا يوجد عندنا ما يصدِّقها بل قد نتوقَّف في قبول بعضها للشَّك في دخول التَّحريف فيها، ولم تذكر التَّوراة موضوع أن السَّمَوات والأرض كانتا رتقًا، وغير ذلك من التَّفاصيل.

وممَّا يثير انتباهك أنه جعل السَّمَوات والأرض أوَّل المخلوقات وَفْقَ هذه العبارة المحتملة، مع أن العرش والقلم قد سبقا خلق السَّمَوات والأرض، ثم ذكر في اليوم الثاني أنه فصل السماء عن الأرض بعد أن كان كلٌّ منهما ماء مجتمعًا، وفي الثالث ذكر أنه خلق أنوارًا في السَّماء، أي: النجوم، وأنَّ الله ﷻ خلق النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ، وفي الرابع خلق التَّنَانِينَ الْعِظَامَ –هكذا في التَّوراة–

(١) تفسير سفر التكوين (ص: ١٣٥- ١٤١).

وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحيَّةِ الدَّبَّابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ، وفي الخامس أخرجت الأَرْض ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا، وخلق الإنسان، وسلطه على بقية أنواع الأحياء في الأرض، ثم أكمل الكلام في الفصل الثاني من سِفْر التَّكوين، وذكر أن الله ﷻ فَرَغَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ.

قولهم: "فاستراح" إن كان المقصود به الرَّاحة من التَّعب، فأعوذ بالله من هذا الوصف الكاذب الكَفَّار، فالله ﷻ قد نفاه عن نفسه قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، فالله ﷻ بيده كلُّ شيء، فما الذي يتعبه؟ تعالى الله عمَّا يقول الظَّالمون علوًّا كبيرا.

بعضهم يقولون: نحن لا نقصد في التوراة أنه استراح من تعب، وإنما نقصد أنه قطع عمله وانتهى منه، فنقول لهم: ولماذا تعبِّرون عن ذلك بقولكم: "استراح"؟

هذا تعبير موهم وهو موجود في الترجمة العربيَّة، وكذلك الإنجليزيَّة، فإن كان كذلك فهو كذب وكفر محض.

رابعًا: هناك فائدة أخرى أعظم في ذكر الأيَّام السِّتَّة، وهي: أن يتعوَّد البشر على معرفة القوانين السَّببيَّة الحكيمة المحكمة، وليس على الفعل الإلهيِّ الذي يقول للشَّيء كن فيكون، فمن باب أولى أن نتعوَّد نحن على تدريب أنفسنا على أن الزَّمان جزء من التَّدبير والعلاج، وعلى المرحليَّة لأجل الوصول إلى تحقيق أهدافنا، فبنى الله ﷻ الكون على أسباب محدَّدة، وقوانين دقيقة يتمُّ التَّفاعل فيما بينها، وبذا يعتاد الناس على اكتشاف العلاقات والتَّحوُّلات.

خامسًا: يتأكَّد هنا الرَّبط بين السُّنَن الكونيَّة والسُّنَن الاجتماعيَّة، فكما يكون للخلق وقتٌ محدَّدٌ معلوم، فكذلك يكون للتَّحوُّلات الاجتماعيَّة أجل محتوم.

وهنا تتجلَّى حكمةُ أن الزَّمان جزء من العلاج، وهنا تجد الجواب الشَّافي لقول المعاندين والسَّاخرين وقوى الجهل والظَّلام: إذا كانَ الله قادِرًا ما له لا يعذِّبنا فورًا؟

فالله -جلَّ في علاه- قادرٌ على أن يخلق جَمِيع الأشْياءِ بمقتضى أمره للشَّيء أن يقول له كن فيكون.. هو قادر على أن يخلق الأشياء في لمح البصر، كما قال -جلَّ ذِكرُه-: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وقادر على أن يهلك العالم في لحظة، ولكنَّه ﷻ يفعل ما يشاء.

بصيرة: قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يبيِّن الله ﷻ لنا فيه أنه جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ نظامًا، وأسبابًا، وحَدًّا مَحْدُودًا، ووَقْتًا مُقَدَّرًا، ومن ذلك أن الله ﷻ قادِرٌ عَلى إيصالِ الثَّوابِ إلى المُطِيعِينَ في الحالِ، وعَلى إيصالِ العِقابِ إلى المُذْنِبِينَ في الحالِ إلا أن الله ﷻ جعل لكلِّ شيء قدرًا، وحدَّ لكلِّ قضيةٍ أجلها المعلوم.

ولذلك دائمًا يذكر هذه القضية قضية الأجل المسمى، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ٢﴾ [الأنعام: ١-٢] ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفُرقَان: ٢].

ويقرِّب لك ذلك: الأنظمة التي وضعها البشر لأنفسهم: متى يكون الزواج؟ وكيف يعلن نجاح الطلاب؟ ومتى يحين وقت الفطام؟ ومتى يقوم المرء ومتى ينام؟.. وكلُّ ذلك انعكاس لما يعنيه خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيَّام.

هنا يمكن أن نقول: هذا التَّقرير جميل:

الأيَّام السِّتَّة بيانٌ للخلق الكونيِّ؛ لينظِّم البشر حياتهم مستلهمين من ذلك، ولذا قال تعالى في سُورَةِ ق: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، فهذه سنةٌ اجتماعيَّةٌ أعقبها بذكر واقع خلق الكون، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، ثم عاد ليربط بين خلق السَّموات والأرض في ستَّة أيَّام مع إمكان أن يكون ذلك في لحظة، وبين الصَّبر في الواقع الإنسانيِّ والاجتماعيِّ، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٨، ٣٩].. إن الله ﷻ يعلِّمنا أن الزَّمان جزء من العلاج، وأنه لا بد من الصَّبر، والرِّفق، وأنَّ تأخُّرَ الثَّواب والعقاب لا يعني أن الله ﷻ أهمل عباده، أو عطَّل صفاتِه الأخرى التي تملأ قلبك بجلال قوَّته، وقدرته، وعدله.

ويقرِّر القرطبي رحمه الله هذا، فيقول: «وَذَكَرَ هَذِهِ الْمُدَّةَ وَلَوْ أَرَادَ خَلْقَهَا فِي لَحْظَةٍ لَفَعَلَ، إِذْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَقُولَ لَهَا كُونِي فَتَكُونُ. وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُعَلِّمَ الْعِبَادَ الرِّفْقَ وَالتَّثَبُّتَ فِي الْأُمُورِ، وَلِتَظْهَرَ قُدْرَتُهُ لِلْمَلَائِكَةِ شَيْئًا بَعْدَ شيء، وَهَذَا عِنْدَ مَنْ يَقُولُ: خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَحِكْمَةٌ أُخْرَى- خَلَقَهَا فِي ستَّة أَيَّام؛ لأنَّ لكلِّ شي عِنْدَهُ أَجَلًا. وَبَيَّنَ بِهَذَا تَرْكَ مُعَاجَلَةِ الْعُصَاةِ بالعقاب، لأن لكل شي عنده أجلًا»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٩).

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: شبه جملة قرآنية تكرَّرت في (٧) مواضع في القرآن الكريم، وتكرارها يدل على تأكيد هذه القضية وبرمجتها في أذهان السامعين؛ تعبيرًا عن سعة العلم وإمكانية القدرة.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: إحصاء وقتيٌّ للأيام المستهلكة في إنجاز هذا الكون العملاق، وهي مُدَّة - بحسب ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ - تعبِّر عن التَّدرج الحكيم في بناء الكون المترامي؛ ليكون أتقن صنعًا، وأكثر إبداعًا مما لو خُلِق دفعة.

سادسًا: الخلق في مجموعة أيام فيه ردٌّ على عابدي الصُّدفة الذين يقولون: إن الخلق حدث فجأة، فلو أُحْدِثَ الخلق دُفْعَةً واحِدَةً ثُمَّ انْقَطَعَ طَرِيقُ الإحْداثِ، فَلَعَلَّهُ يَخْطُرُ بِبالِ بَعْضِهِمْ أنَّ ذاكَ إنَّما وقَعَ عَلى سَبِيلِ الِاتِّفاقِ، أي: على سبيل الصُّدفة، أمّا إذا حَدَثَتِ الأشْياءُ عَلى التَّعاقُبِ والتَّواصُلِ مَعَ كَوْنِها مُطابِقَةً لِلْمَصْلَحَةِ والحِكْمَةِ، كانَ ذَلِكَ أقْوى في الدَّلالَةِ عَلى كَوْنِها واقِعَةً بِإحْداثِ مُحْدِثٍ قَدِيمٍ عظيم، قوي، حَكِيمٍ، وقادِرٍ عَلِيمٍ رَحِيمٍ[1].

لكنَّ سؤالًا مهمًا يطرح نفسه: اليَوْمُ إنَّما يَمْتازُ عَنِ اللَّيْلَةِ بِسَبَبِ طُلُوعِ الشَّمْسِ وغُرُوبِها فَقَبْلَ خَلْقِ الشَّمْسِ والقَمَرِ كَيْفَ يُعْقَلُ حُصُولُ الأيّامِ؟

الجواب: يحتمل أحد أمرين:

الأول: أن التَّقدير الزَّمنيَّ هنا قائم على أساس اقترانيٍّ لأشياء لم تذكر لنا، فمعلوم أن الزَّمن يحدَّد بالنظر إلى دوران الشمس أو إلى حركة الشمس ودوران الأرض أو إلى حركة الأرض والاقتران بهما، وإذا كان الأمر كذلك فإن الله ﷻ يجعل الأيام التي خلقت فيها السَّمَوات والأرض متعلِّقة بأمر اقترانيٍّ لم يذكر لنا؛ فليس بالضَّرورة أن يكون الاقتران لبيان اليوم قائمًا فقط على أساس وجود الأرض والشمس، ومن أبرز الأمثلة هذه الأيَّام أننا نقول: يوم كوكب

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٧).

زحل غير يوم كوكب الأرض، ويوم كوكب المريخ غير يوم كوكب الأرض، ونقول: إن يوم أورانوس غير يوم كوكب الأرض وكذلك إذا ذهبنا إلى مجموعات شمسيَّة خارج نطاق المجموعة الشَّمسيَّة التابعة لمجرَّة درب التَّبَّانة فإن أيامها تختلف.

وتعال نضرب مثالًا يوضِّح لك عدم ضرورة وجود ما نراه من الواقع الاقتراني؛ فعن عبد الله بن عمرو ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إن الله ﷻ قدَّر مقاديرَ الخلائقِ، قبل أن يخلقَ السَّمَوَاتِ والأرضَ بخمسين أَلْفَ سَنَة، وكان عرشُه على الماء»(١)، والشاهد من النَّص أن الله ﷻ ورسوله ﷺ ذكرا لنا أن الماء كان موجودًا قبل خلق السَّمَوات والأرض، وأن الله ﷻ قدَّر مقادير كلِّ شيء قبل خلق السَّمَوات والأرض بخمسين ألف سَنَة، إذًا هذه وحدة زمنيَّة.

فهذا التقدير بخمسين ألف سَنَة لا يتعلَّق قطعًا بوجود الشمس والقمر، فإنهما لم يخلقا بعد، وكذلك قول الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

الثاني: أنَّ المُرادَ أنَّهُ تَعالى خَلَقَ السَّمَوَات والأرْضَ في مِقْدارِ سِتَّةِ أيّامٍ، وهو كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وأصحاب الجنة لا يوجد عندهم شمس، كما قال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣] فكيف عرفوا البكرة والعشيَّ؟ والبكرة هي الصَّباح، والعشيُّ من بعد الظُّهر إلى الغروب، والمراد على مقدار البكرة والعشيِّ في الدُّنيا، أي: تقريب لأفهامكم في الدُّنيا، وأنه عندهم نسبة زمنيَّة لا نعرفها، لأنَّه لا ليلَ ثَمَّ

(١) مسلم (٢٦٥٣).

ولا نهارَ[١]، ويدلُّ على ذلك أن اليوم قد يُعنى به الوقت المحدَّد كَما في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٦]، أي: حِينَ إذ يَلقاهم زَحفًا[٢].

سابعًا: هذا يفتح لنا أفقًا عظيمًا في محاولة الاكتشاف العلميِّ والدِّراسة لهذا الكون، فإن:

بصيرة: الله ﷻ يحثُّنا على النَّظر في هذا الكون الفسيح بصورة لا تجدها في أيِّ كتاب سواء أكان أصله سماويًّا أم أرضيًّا.

تـبـارَكَ الـبـارئ مـبـدعُ الـورى ... بـالـحقِّ والـحكـمـةِ عـن ظـهـرِ غِـنـى
أنشـأَ في الـدُّخـانِ كـلَّ صُـورةٍ ... فسَـمَـكَ السَّـمـاءَ والأرضَ دحَـا
(وكـان عـرشُـه عـلـى المـاءِ) الـذي ... أنشـأَ مـنـه كـلَّ حـيٍّ وَبَـرَا
وخـلـقَ الأشـيـاءَ أزواجًـا ومِـنْ ... ذرِّيَّـةِ الـزَّوجـيـنِ يَـذْرُو مـا يشـا
ثـمَّـتَ (أعـطـى كـلَّ شـيءٍ خَـلْـقَـهُ) ... بـقَـدْرِ اسـتـعـدادِه (ثـمَّ هـدى)
فـكـلُّ شـيءٍ عـنـده بـقَـدَرٍ ... لا أنُـفٌ مـبـتـدأٌ ولا سُـدَى[٣]

وسؤال آخر: أَنَّهُ تَعالى قالَ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القَمَر: ٥٠]، وهَذا كالمُناقِضِ لِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؟

الجواب: الجمع واضح بين الآيتين فقَوْلهُ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القَمَر: ٥٠]، مَحْمُولٌ عَلى إيجادِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الذَّواتِ وعَلى إعْدامِ كُلِّ واحِدٍ مِنها؛ هذا ما ذهب إليه الرَّازيُّ ﵀ في الإجابة عن هذا السؤال فهو محمول عنده عَلى إيجادِ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الذَّواتِ،

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٦٢).

(٣) الأبيات للعلامة محمد رشيد رضا، أوردها في تفسيره، (١٢/ ٢٠).

أي: الإنسان لم يكن شيئًا، فأوجده الله ﷻ نطفة في لمح البصر، وصحيح أن النُّطفة تأخذ وقتًا حتى تنتقل إلى مرحلة أخرى، مرحلة العلقة، ثم مرحلة المضغة، ثم مرحلة تكوُّن العظام وهكذا، لكن الوجود في ذاته في لمح البصر لا يشعر الإنسان به، يلتفت فيرى نطفة يمكن أن ترمى وتغسل، ويلتفت فجأة ويرى أن هذه النُّطفة قد اتَّحدت مع البويضة، -بويضة المرأة- وصار الآن بداية تكوُّن جنين، وكذلك موضوع الإعدام يرى الإنسان إنسانًا بجواره في كامل قواه، فإذا هو بعد قليل يلتفت وإذا هو قد خرجت روحه. إذًا هذا ما قرَّره الرَّازيُّ رحمه الله أن إيجادَ الذّاتِ الواحِدَةِ، وإعْدامَ المَوْجُودِ الواحِدِ، لا يَقْبَلُ التَّفاوُتَ؛ لأنه يحدث فجأة فَلا يُمْكِنُ تَحْصِيلُهُ إلّا في لحظة سريعة لا تكاد تُتَصَوَّر دُفْعَةً واحِدَةً، وأمَّا ما بعد ذلك وقبل ذلك من المراحل فهذه تأخذ وقتها، وأمَّا الإمْهالُ والمُدَّةُ فَذاكَ لا يَحْصُلُ إلَّا في المُدَّةِ[1].

وعند ابن عاشور رحمه الله لا تنافي بين الآيتين فصفة ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ وصف لموصوف محذوف دل عليه الكلام، والتقدير: إلا كلمة واحدة، وهي كلمة: (كن) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: وما أمرنا إلا كلمة واحدة، وذلك في تكوين العناصر والبسائط، وكذلك في تكوين المُرَكَّبات؛ لأن أمر التكوين يتوجَّه إليها بعد أن تسبقه أوامر تكوينية بإيجاد أجزائها، فلكُلِّ مكوِّن منها أمر تكوين يخصه هو كلمة واحدة، فتبين أن أمر الله ﷻ التَّكوينيَّ (كلمة واحدة)، ولا ينافي هذا قوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، فخلق ذلك قد انطوى على مخلوقات كثيرة لا يحصر عددها، كما قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزمر: ٦]، فكلُّ خلق منها يحصل بكلمة واحدة كلمح البصر على أن بعض المخلوقات تتولَّد منه أشياء وآثار

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٨).

فيعتبر تكوينه الخاطف عند إيجاد أوله[١]، وخَلْق السَّموات والأرض في هذه المدة المحسوبة للإنسان بكلِّ ما فيهما من دقَّة وتفاصيل جزء من هذه السرعة، إذا ما تصوَّر الإنسان أن بناء بيت واحد دقيق التفاصيل، محكم التراكيب، ذاتي التفاعل، قد يستغرق منه الكثير من الوقت.

وسؤال آخر: أَنَّهُ تَعالى خَلَقَ السَّمَوَات والأَرْضَ في مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ، فَما الحِكْمَةُ في تَقْيِيدِها وضَبْطِها بِالأَيّام السِّتَّة؟

الجواب: هذا السؤال يناقض الحكمة؛ فإننا نصف الله ﷻ بأنه الحكيم، الفعَّال لما يريد، يخلق ما يشاء ويختار، فاختار زمنًا محدَّدًا، وطلب تغيير التَّوقيت عبث؛ لأنَّ الله ﷻ هو الذي أوجد القوانين، ولو اختار مِقْدارًا آخَرَ مِنَ الزَّمانِ لَعادَ ذَلِكَ السُّؤالُ، وقالَ بَعْضُهم: لِعَدَدِ السَّبْعَةِ شَرَفٌ عَظِيمٌ، وهو مَذْكُورٌ في تَقْرِيرِ أنَّ لَيْلَةَ القَدْرِ هي لَيْلَةُ السّابِعِ والعِشْرِينَ، وإذا ثَبَتَ هَذا قالُوا: فالأيّام السِّتَّة في تَخْلِيقِ العالَمِ واليَوْمُ السّابِعُ في حُصُولِ كَمالِ المُلْكِ والمَلَكُوتِ. وبِهَذا الطَّرِيقِ حَصَلَ الكَمالُ في الأيّامِ السَّبْعَةِ[٢].

الإجابة على هذه الأسئلة واضحة ومنطقيَّة لكن المذهبيَّة الفكريَّة عند بعض المفسِّرين تشوِّش عليها أحيانًا؛ فعندما تقرأ الحوار الذي ينشئه الرَّازيُّ ﷺ حول مثل هذه الأسئلة يشوِّش عليك ادِّعاء صحَّة الإجابة وَفْقَ المذهب بدلًا من الرُّجوع إلى الصَّفاء القرآنيِّ البعيد عن الكدورة المذهبيَّة.

فإن قلت: علمنا المَعْلَم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فما المَعْلم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾؟

---

(١) التحرير والتنوير، (٢٧/ ٢٢٠).

(٢) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٥٨).

الجواب: هنا يأتي المَعْلم الرابع:

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الرابع: استواء الله ﷻ على العرش، استواء يليق بجلاله وكماله "فهو فوق المكان" ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

ذكر الله -تعالى مجده- قَوْلَهُ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ في سُوَرٍ سَبْعٍ؛ إحْداها هَاهُنا، وثانِيها في يُونُسَ، وثالِثُها في الرَّعْدِ، ورابِعُها في طه، وخامِسُها في الفُرْقانِ، وسادِسُها في السَّجْدَةِ، وسابِعُها في الحَدِيدِ. ستسأل: ما معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في اللغة، وفي القرآن الكريم؟

الجواب: هذه صفة غيبيَّة عظيمة من صفات الله ﷻ العظمى، وقد نظر بعض علمائنا ﷺ في هذه الصِّفة من زاوية جدليَّة فلسفيَّة أبعدت من كان له قلب عن استنشاق عبير الأُنس في الشُّعور بعظمة هذه الصِّفة الإلهيَّة المهيبة، وعرض القرطبيُّ ﷺ الجدل في هذه الصِّفة، فقال: «هَذِهِ مَسْأَلَةُ الِاسْتِوَاءِ، وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهَا كَلَامٌ وَإِجْرَاءٌ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَقْوَالَ الْعُلَمَاءِ فِيهَا فِي الْكِتَابِ (الْأَسْنَى فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى) وَذَكَرْنَا فِيهَا هُنَاكَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ قَوْلًا»[1].

وحتى نتعرَّف إلى هذا المَعْلم العظيم الذي يعرِّفنا بربِّنا -جلَّ مجدُه-، ونشعر بجلال هذه الصِّفة الكبرى لخالقنا تعالى جَدُّهُ لنبدأ بالتَّعرُّف إلى المعنى اللغويِّ لكلمتي: استوى، وعرش، ثم نذكر المقتضيات الشرعية:

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢١٩).

أولًا: المعنى اللُّغويُّ لكلمة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾:

الوجوه اللغوية لكلمة {ٱسْتَوَىٰ}

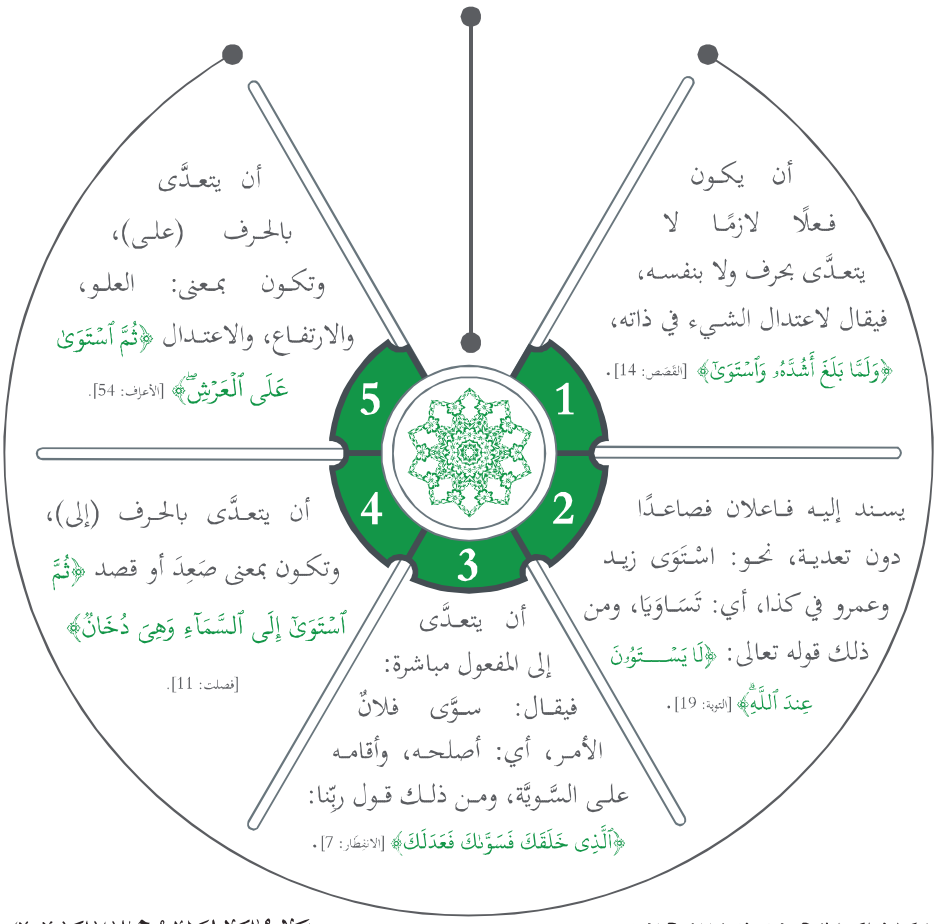

كلمة ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، فمشتقَّة من سَوِيَ[1]، وهي كلمةٌ تدُلُّ عَلَى اسْتِقَامَةٍ وَاعْتِدَالٍ بصور مخصوصة، وذكر الرَّاغب رحمه الله أن الفعل ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ يقال على وجهين[2]، وذكر تقسيمًا مربكًا، وعند التأمل تجد هذا الفعل جاء على خمسة وجوه:

أولها: أن يكون فعلًا لازمًا لا يتعدَّى بحرف ولا بنفسه، فيقال لاعتدال الشيء في ذاته، ففي قصة موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القَصَص: ١٤]، فالـمُسْتَوِي مِن الرِّجال الَّذِي بَلَغَ الغايَةَ مِن شَبَابِه، وتَمَامِ خَلْقِه وعقْلِه، وذلكَ بتمامِ ثَمَانٍ وعِشْرِين إِلَى تَمامِ ثَلاثِين.

والثاني: يسند إليه فاعلان فصاعدًا دون تعدية، نحو: اسْتَوَى زيد وعمرو في كذا، أي: تَسَاوَيَا، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: ١٩].

والثالث: أن يتعدَّى إلى المفعول مباشرة: فيقال: سوَّى فلانٌ الأمر، أي: أصلحه، وأقامه على السَّويَّة، أي: هيَّأه ليكون في أكمل الاستقامة والاعتدال، ومن ذلك قول ربِّنا: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفِطَار: ٧]، قال الرَّاغب رحمه الله: تَسْوِيَةُ الشَّيء: جعله سواء، إمَّا في الرِّفعة، أو في الضِّعَة.

والرابع: أن يتعدَّى بالحرف (إلى):

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾ [فصلت: ١١]، ذكر فيها أئمة اللُّغة معاني منها:

١) قالَ الجوهريُّ رحمه الله: أَي (صَعِدَ)؛ وَهُوَ تَفْسيرُ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما.

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١١٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣٩)، تاج العروس (٣٨/ ٣٢٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٩٣٤).

(٢) المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣٩).

٢) ومنها (عَمَدَ) إِلَيْهَا، (أَو قَصَدَ) إِلَيْهَا، أو (أَقْبَلَ عَلَيْهَا)؛ وهذا المعنى عن ثَعْلَب، والفرَّاء رحمهما الله.

الخامس: أن يتعدَّى بالحرف (على)، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرُف: ١٣]، والذي يظهر أن معناه هنا: لتعلوا حال كونكم مستقرِّين عليها متَّخذين ظهورها مقرًّا سويًّا.

وقد قال أبو جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة العبسيُّ (ت٢٩٧): «هذا - أيضًا- معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة»(١).

وقال الماتُريديُّ رحمه الله: «﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ [هود: ٤٤] أي: استقرَّت على الجوديِّ، وهو جبل»(٢).

وزعم الراغب رحمه الله أنه متى عدِّي بـ(على) اقتضى معنى الاستيلاء، كقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وَمِنْه قَوْل الأَخْطَل أَنْشَدَه الجوهرِيُّ:

قَـدِ اسْـتَـوَى بِشْـرٌ عـلـى الـعِـرَاق ... مـن غَـيـرِ سَـيْـفٍ ودَمٍ مُـهْـراق(٣)

ونلاحظ خطأ منهجيًّا واضحًا هنا؛ إذ خلط التَّحليل بين استوى المتعدِّي بـ(على)، والمتعدِّي بـ(إلى)، وسوَّى.

---

(١) العرش وما روي فيه (ص: ١٨٤)، وقال الدكتور/ جبل رحمه الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: علا/ أقبل، [ل] وكذا كل (استوى) مسندة إلى الله ﷻ، أي: عدا ما مرَّ من استواء النُّضج، وكذا عدا استواء الاستقرار. (المعجم الاشتقاقي ٢/ ٩٣٥، ٩٣٦). ولو فرق الدكتور رحمه الله بين معاني الكلمة حسب الحرف الذي تعدَّت به لكان أولى.

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٦/ ١٣٥).

(٣) الرجز للأخطل في تاج العروس (٣٨/ ٣٣١)، وليس في ديوانه، وبلا نسبة في الصحاح (٦/ ٢٣٨٥)، لسان العرب (١٤/ ٤١٤).

وإذا رجعنا إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى رحمه الله وجدناه يقول:

«﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: مجازه: ظهر على العرش وعلا عليه، ويقال: استويت على ظهر الفرس، وعلى ظهر البيت»(١)

وينقل ابن قتيبة رحمه الله ذلك عنه، ثم يقول: «وقال غيره: استوى: استقرَّ. واحتج بقول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨] أي: استقررت في الفلك»(٢).

وقد نقل الماتُريديُّ رحمه الله: ثلاثة معانٍ في معنى هذه الكلمة، فقال: «قيل فيه بأوجه ثلاثة:

أحدها: الاستيلاء، كما يقال: استوى فلان على كورة كذا، بمعنى: استولى.

والثاني: العلو والارتفاع، كقوله: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقوله: ﴿إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أي: علوتم.

والثالث: التَّمام، كقوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القَصَص: ١٤]، أي: تمَّ واستقرَّ»(٣).

فالمعنى الأول لا يمكن فهمه إلا بالاقتضاء، وعند وجود مضادٍّ، ولا مضادَّ لله عز وجل، فليس له كفؤًا أحد، والثالث ليس مدار البحث؛ لأنه تامٌّ غير متعدٍّ إلى مفعول، فلم يبق إلا الثاني، وقد نقل الأزهري رحمه الله هذا المعنى ذاته، فقال: «وَقَالَ الْأَخْفَش رحمه الله: استَوى: أَي علا، وَيَقُول: استوَيْتُ فوقَ الدَّابَّة، وعَلى ظهر الدَّابَّة، أَي: عَلَوْته»(٤).

وحكى الفرَّاء رحمه الله عن داود بن علي الأصبهاني رحمه الله قال: كنت عند ابن الأعرابي فأتاه رجل، فقال: ما معنى قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]؟ فقال ابن الأعرابي: هو

---

(١) مجاز القرآن (١/ ٢٧٣).

(٢) غريب القرآن لابن قتيبة (ص: ٢٧٧).

(٣) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة (٧/ ٢٦٨).

(٤) تهذيب اللغة» (١٣/ ٨٥).

على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبد الله إنما هو استولى، فقال ابن الأعرابي: ما يدريك، العرب لا تقول استولى على الشَّيء حتى يكون له مضادٌّ، فأيُّهما غلب فقد استولى، أما سمعت قول النابغة:

إلا لِـمِـثْـلِـكَ أو مـن أنـتَ ســابـقُـهُ ... سبقَ الجوادِ إذا استولى على الأمدِ»[1]

وبعد: فإن الاستواء على العرش يأتي لمعانٍ متعدِّدة في اللُّغة وردت عن علمائنا ﷺ، ونحن نتكلَّم عن المعنى بالنسبة للبشر في العربية، فذكر ابن القيِّم رحمه الله منها أربعة معانٍ، فقال:

فـلـهـم عـبـاراتٌ عـلـيـهـا أربـعٌ ... قـد حُصِّـلـت لـلـفـارسِ الـطَّـعَّـانِ
وهي اسـتقرَّ، وقـد علا، وكـذلـك ار ... تـفـع الـذي مـا فـيـه مـن نُـكـرانِ
وكـذاك قـد صـعـدَ الـذي هـو رابـعٌ ... وأبـو عـبـيـدة صـاحـب الشـيـبـاني
يـخـتـارُ هـذا الـقـولَ في تـفـسـيـرِه ... أدرى مـن الـجـهـمـيِّ بـالـقـرآنِ
والأشـعـريُّ يقول تفسـير اسـتوى ... بـحـقـيـقـة اسـتـولى من البهتانِ[2]

ويأتي لما هو أوسع من ذلك، ويظهر أن الجامع بينها أن قوله: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى﴾ يعني: العلوَّ والارتفاع، والتَّمكُّن والاستقرار، وتمام التَّمكُّن، واكتماله على وجه يستقيم أمره فيه.

وكلُّ ذلك يقتضي كمال الملك، والتَّمكُّن فيه.

---

(١) الغريبين في القرآن والحديث (٣/ ٩٥٧)، وذكر شاكر رحمه الله في تفسير الطبري (١٧/ ٦١٣) أن البيت موجود في «(مختار الشعر الجاهلي، بشرح مصطفى السقا، طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ص ١٥٢) من قصيدته التي مطلعها: يا دار ميَّةَ بالعلياء فالسَّندِ، وهي خمسون بيتًا، والشاهد هو السادس والعشرون منها. قال شارحه: الأمد: الغاية التي تجري إليها».

(٢) نونية ابن القيم (ص: ٨٧).

ثانيًا: المعنى اللغوي لكلمة ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾

ستسأل أيضًا: ما معنى كلمة ﴿ٱلۡعَرۡشِۖ﴾؟

الجواب: العَرْشُ[1]: كلمة تدل على ارْتِفَاعٍ فِي شَيْءٍ مَبْنِيٍّ، وتَعْرِيشُ الْكَرْمِ، لِأَنَّهُ رَفْعُهُ وَالتَّوَثُّقُ مِنْهُ، وقد يقال لذلك الـمُعَرَّشُ، قال تعالى: ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وَالْعَرِيشُ: بِنَاءٌ مِنْ قُضْبَانٍ يُرْفَعُ وَيُوَثَّقُ حَتَّى يُظَلِّلَ. وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ: «أَلَا نَبْنِي لَكَ عَرِيشًا؟»[2]، وقَالَ الْخَلِيلُ: الْعَرْشُ: سَرِيرُ الْمَلِكِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، ويكون مسقّفًا على هيئة معظَّمة، وجمعه عُرُوشٌ، وسمِّي مجلس السُّلطان عَرْشًا اعتبارًا بعلوِّه، وكنِّي به عن العزِّ والسُّلطان والمملكة، قيل: فلان ثُلَّ عَرْشُهُ، قَالَ زُهَيْرٌ:

تَـدَارَكْتُمَـا الْأَحْلَافَ قَـدْ ثُـلَّ عَرْشُـهَـا ... وَذُبْيَـانَ إِذْ زَلَّـتْ بِـأَقْـدَامِهَـا النَّعْـلُ[3]

والبشر يعلمون ما معنى العرش، وكيف يرمز إلى قوَّة أصحابها وعظمتهم في عالم المخلوقات، إذ قال الله ﷻ: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النَّمل:٢٣].

ولله العرش العظيم الذي لا يمكننا إدراك كُنْهِهِ وحقيقته، إذ قال الله ﷻ بعد هذ الآية من سورة النمل: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النَّمل: ٢٦].

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٢٦٤)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٥٨)، تاج العروس (١٧/ ٢٥١)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٤٤٣).

(٢) بهذا اللفظ عند البغوي في شرح السنة (٩١٨)، وهو عند البزار (٧٦١) بلفظ: «طَلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ جَعَلْنَا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ عَرِيشًا»، قال الهيثمي (١٤٣٣٣): «رواه البزار، وفيه من لم أعرفه».

(٣) ديوان زهير (ص: ١٠٩)، (ثُلَّ عرشها): هذا مَثَل، أي: أصابها ما كسرها وهدمها.

وقد تسأل: ما الحكمة من اختيار الله ﷻ هذه الكلمة ليعبِّر بها عن شأن من شؤون عظمته جلَّ شأنه؟

الجواب: لأن الإخبار عن عالَمِ الغَيْبِ لا بدَّ أن يكون بلفظ يعرفه من هو في عالم الشَّهادة.. وأشار ابن عاشور رحمه الله إلى أن السَّلَفَ كانوا يَتَلَقَّوْنَ أمثال هذه الكلمات بِلا بَحْثٍ ولا سُؤالٍ، بل حتى الكفَّار كانوا يتلقونها بلا بحث ولا سؤال، وهذا عجيب جدًّا، يعني أن الكفَّار يعلمون أنَّه لا يمكن أن يسألوا عن شيء لا يقدرون على أن يحيطوا به، فما سمعنا أن أبا جهل جاء واعترض على النَّبيِّ ﷺ وقال: ما معنى استوى؟! لِأنَّهم عَلِمُوا المَقْصُودَ الإجْمالِيَّ مِنها، فاقْتَنَعُوا بِالمَعْنى مُجْمَلًا، ويُسَمُّونَ أمْثالَها بِالمُتَشابِهاتِ، ثُمَّ لَمَّا ظَهَرَ عَصْرُ ابْتِداءِ البَحْثِ كانُوا إذا سُئِلُوا عَنْ هَذِهِ الآيَةِ يَقُولُونَ: اسْتَوى اللهُ عَلى العَرْشِ، ولا نَعْرِفُ لِذَلِكَ كَيْفًا[1].

وهنا لا بدَّ أن نشعر بعبير الآيات ورونقها، فقد عرفنا معنى ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى﴾، ومعنى ﴿ٱلْعَرْشِ﴾، فكيف تعرِّفنا هذه الصِّفة بالله العظيم؟

الجواب: عندما نقرِّر المعاني اللغوية ينبغي أن نتذكَّر أن هذا المَعْلم العظيم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ مَذْكُورٌ فِي سبع آيَات من الْقُرْآن، يبصِّرنا بعظمة الملك الإلهيِّ، ويزيدنا شعورًا بجلال ذي الجلال والإكرام، وعندما نردِّد هذا المَعْلم، ونتلو هذه الصِّفة الإلهيَّة الكبرى كما في القرآن لا ينبغي أن نسمح للخطرات البشريَّة أن تصوِّر لنا ذلك على الكيفيَّة التي اعتاد البشر على فعلها عندما يستوون على عروشهم.

فمعاني الكلمات معلومة بالنسبة لنا، وأما كيفيَّتها بالنِّسبة للذَّات الإلهيَّة فينبغي أن نفهمها في إطار قانون كليٍّ أبانه الله ﷻ في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورَى:

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٦٣).

١١]، ونتذكر قول علمائنا: ما خطر ببالك فالله -بعظمته وجلاله- ليس كذلك، وكما قال ربيعَة بن أبي عبد الرحمن رحمه الله: «الاستواء غير مَجْهُول، والكيف غير مَعْقُول، وَمن الله الرِّسَالَة وعَلى الرَّسُول الْبَلَاغ، وعلينا التَّصْدِيق»(١).

وقال يَحْيَى بْنَ يَحْيَى رحمه الله: كُنَّا عِنْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ رحمه الله، فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ، ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، كَيْفَ اسْتَوَى؟ قَالَ: فَأَطْرَقَ مَالِكٌ رحمه الله رَأْسَهُ، حَتَّى عَلَاهُ الرُّحَضَاءُ -أي: العَرَق- ثُمَّ قَالَ: الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ -أي بالنسبة لنا- وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعًا(٢)، يعني هذه مسائل إيمانية، والبشر لا تستطيع أن تحيط علمًا بكل ما عند الله.

وَينسب إلى الشَّافعيِّ رحمه الله أَنه قَالَ: «آمَنت بِلَا تَشْبِيه، وصدَّقت بِلَا تَمْثِيل، واتهمت نَفسِي فِي الْإِدْرَاك، وَأَمْسَكت عَن الْخَوْض غَايَة الْإِمْسَاك»، وَينسب إلى أَحْمد بن حَنْبَل رحمه الله أَنه قَالَ: «اسْتَوَى كَمَا ذكر، لَا كَمَا يخْطر للبشر»(٣).

وربَّما تساءلنا: فكيف تكرَّرت هذه الصِّفة العظيمة المتعلِّقة بالعرش حتى قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غَافِر: ١٥]؟

الجواب: لأنَّ العرش دال على عظمة الله ﷻ، فيصفه علماؤنا بأنه: «أعلى المخلوقات، وأعظمها، وسقفها، وهو كالقُبَّة على العالم»(٤)، ولا يعني وجوده أن الله ﷻ محتاجٌ لمن

---

(١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٤١).

(٢) الاعتقاد للبيهقي (ص: ١١٦).

(٣) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص:١٢٠)، والقولان عن الشافعي وأحمد لا بدَّ من التحقُّق من نسبتها لهما؛ إذ لا تشبه طريقتهما في الجملة، ولم أجدها مسندة في كتب متقدمة في ضوء بحث صغير، لكن معانيها صحيحة واضحة، ويبقى عندي توقف في نسبتها.

(٤) العرش للذهبي (١/ ٢٨١).

يحمله فالله ﷻ هو الذي يمسك السَّمَوات والأرض، وكلُّ مخلوق كما قال ربُّنا ﷻ من قبل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فَاطِر: ٤١].

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التَّوبَة: ١٢٩]، وكما وصف العرش بالعظمة فقد وصفه بالمجد[1]، فقال: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾ [البُرُوج: ١٢-١٥]، ووصفه بأنه الكريم، أي: الفريد في نوعه الذي لا يشابه شيء ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [المُؤمِنُون: ١١٦].

وقال ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[2].

وفشا ذكر العرش في الكتب السَّابقة، فلعلَّ من ذلك قول أُمَيَّة بْن أَبِي الصَّلْتِ -إن صحت عنه-:

مَجِّدُوا اللهَ فَهُوَ لِلْمَجْدِ أَهْلُ ... رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرَا
بِالْبِنَاءِ الْعَالِي الَّذِي بَهَرَ النَّا ... سَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا
شَرْجَعًا لَا يَنَالُهُ بَصَرُ الع ... ـين تُرَى حَوْلَهُ الْمَلَائِكُ صُورَا[3]

---

(١) وقرأه الجمهور بالرفع (المجيدُ) على أنه خبر رابع عن ضمير الجلالة، فهو اسم لله تعالى. وقرأه حمزة والكسائي وخلف بالجر(المجيدِ): نعتًا للعرش فوصف العرش بالمجد، كناية عن مجد صاحب العرش. ومن لطائف الوقف أن يوقف في قراءة الرفع على (العرش) وتوصل بما قبلها. ويبدأ بـ(المجيد) وتوصل بما بعدها؛ بيانًا لتبعية الوصف. ينظر: النشر (٢/ ٣٩٩).

(٢) البخاري (٧٤٣٢).

(٣) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ١٣٩)، وَالشَّرْجَعُ: هُوَ الْعَالِي الْمُنِيفُ.

ونسبوا لعَبْدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ ﷺ أنه قال:

شَـــهِـدْتُ بِـأَنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ ... وَأَنَّ الـنَّـارَ مَـثْـوَى الْـكَـافِـرِيـنَـا
وَأَنَّ الْـعَـرْشَ فَـوْقَ الْـمَـاءِ طَـافٍ ... وَفَـوْقَ الْـعَـرْشِ رَبُّ الْـعَـالَـمِـيـنَـا
وَتَـحْـمِـلُـهُ مَـلَائِـكَـةٌ شِـــدَادٌ ... مَـلَائِـكَـةُ الْإِلَـهِ مُسَـــوَّمِـيـنَـا[1]

وقد أخبرنا الله ﷻ أن الملائكة الذين يحملون العرش يوم القيامة ثمانية، فقال: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحَاقَّة: ١٧] ويبيِّن النَّبيُّ ﷺ عظمة واحد من حملة العرش الثَّمانية، فيقول: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ ﷻ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ ما بين شحمة أذنه إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»[2]، ومسيرة سبعمائة عام لا ندري هل تقاس بمسير الرِّجل، أم بسير الخيل المضمرة، أم بمسير الطائرة الآن، أم بسرعة الصَّوت، أم بسرعة الضَّوء هذا أمر يعلمه الله ﷻ، وَرَوَاهُ ابْنُ أبي حاتم ﷺ ولفظه: «مَخْفِقُ[3] الطَّيْرِ سَبْعُمِائَةِ عَامٍ»[4]. أي: تخفق الطَّير في الوصول ما بين هذه المسافة اليسيرة التي هي عبارة عن شبر بالنِّسبة لنا.

ونسبوا للبيد بن ربيعة العامري ﷺ أحد شعراء الجاهلية والإسلام، أسلم وصحب النَّبيَّ ﷺ:

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره (ص: ١٦٥).

(٢) أبو داود، (٤٧٢٧)، وجوَّد إسناده شعيب الأرناؤوط، وقال الوادعي في الجامع الصحيح (٤٥١): «حسن على شرط البخاري».

(٣) عند ابن أبي حاتم (مخفقُ)، وهي كذلك في شرح الطحاوية (٢/ ٣٦٨) و المداوي لعلل الجامع الصغير، وتصحفت في تفسير ابن كثير في طبعة دار طيبة بتحقيق سلامة (٨/ ٢١٢) إلى (بخفق)، في حين أنها في طبعتي دار الكتب العلمية ودار الفكر (مخفق) بلا تصحيف.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٩٦٧)، وقال ابن كثير في تفسيره (٨/ ٢١٢): «وهذا إسناد جيد، رجاله ثقات».

لِلَّهِ نَافِلَةُ الأَجَلِّ الأَفْضَلِ ... وَلَهُ العُلَى وأَثِيثُ كُلِّ مُؤَثَّلِ
لا يَسْتَطِيعُ النَّاسُ مَحوَ كِتَابِهِ ... أَنَّى وَلَيسَ قَضَاؤُهُ بِمُبَدَّلِ
سَوَّى فَأَلْقَ دُونَ غُرَّةِ عَرْشِهِ ... سَبْعًا طِبَاقًا فَوْقَ فَرْعِ المَنْقَلِ
وَالأَرْضَ تَحْتَهُمُ مِهَادًا رَاسِيًا ... ثَبَتَتْ جَوانِبُهَا بِصُمِّ الجَنْدَلِ[1]

وأنشد إسماعيل التِّرمذيُّ للإمام أحمد ﷺ في حَبْسه:

تَبَارَكَ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ غَيْرُهُ ... وَمَنْ لَمْ يَزَلْ يُثْنَى عَلَيْهِ وَيُذْكَرُ
عَلَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَى فَوْقَ عَرْشِهِ ... إلى خَلْقِهِ في البَرِّ وَالْبَحْرِ يَنْظُرُ
سَمِيْعُ بَصِيْرٌ قَادِرٌ وَمُدَبِّرٌ ... وَمَنْ دُوْنَهُ عَبْدٌ ذَلِيْلٌ مُدَبَّرُ
يَدَاهُ لَنَا مَبْسُوطَتَانِ كِلاهُمَا ... تَسِحَّانِ وَالأيدِي مِنَ الْخَلْقِ تَقْتُرُ
وَإِنْ فِيْهِ فَكَّرْنَا اسْتَحَالَتْ عُقُولُنا ... وَأُبْنَا حَيَارَى واضْمَحَلَّ التَّفَكُّرُ
شَهِدنا بأنَّ اللهَ لا ربَّ غَيرُهُ ... وأحمدَ مبعوثٌ إلى الخَلق مُنذرُ
وأنَّ كتابَ الله فينا كَلامُهُ ... وإنْ شكَّ فيه المُلْحدون وأنكَروا[2]

فالعرش تحمله ملائكة كرام، وهو مَرْكَزُ تَدْبِيرِ الْعَالَمِ كُلِّهِ، وأخبر الله ﷻ عن كونه خلق العرش قبل السَّمَوات والأرض فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]، ويخبر عبدالله بن عمرو ﷺ عن ذلك فيقول: قال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السَّمَوات والأرض بخمسين ألف سنة قال : وعرشه

(١) ديوان لبيد (ص: ٨١، ٨٢)، (الأثيث): الكثرة. (المؤثَّل): ذو الأصل الراسخ، (المنقل): ظهر الجبل.

(٢) مناقب الإمام أحمد (ص: ٥٧٢)، و(تَسِحَّان) أي: تكرمان الخلق بعطاياهما.

على الماء»[١]، وعن عمران بن حصين ﷺ قال رسول الله ﷺ: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ»[٢]، وفي لفظ: «لم يكن شيء غيره»[٣]، قال ابن القيِّم رحمه الله في نونيته:

والنَّاسُ مختلفون في القلمِ الذي ... كتبَ القضاءَ به مِنَ الدَّيَّانِ

هل كان قبلَ العرشِ أو هو بعدَهُ ... قولانِ عند أبي العَلا الهَمَذاني

والحقُّ أنَّ العرشَ قبلُ؛ لأنَّه ... قبلَ الكتابةِ كانَ ذا أركانِ[٤]

ثالثًا: مقتضيات الاعتقاد باستواء الله ﷻ على العرش:

ستسأل: فما معنى أن يذكر الله ﷻ لنا أنه استوى على العرش، مع أن ذلك غير مشاهد لنا.. فما الذي تقدِّمه لنا هذه الجملة في التَّعريفِ بالله تعالى جَدُّهُ؟

الجواب: الذي تفيدنا إيَّاه هذه الكلمات في وصف الذَّات الإلهيَّة:

١) أنَّها تقدِّم لنا التَّعريف بالعظمة والسُّلطان، والملك، والحكم الكامل، والمشيئة النافذة، والإرادة التَّامَّة، وذلك يقتضي شعور المؤمنين بعظمة ذي العرش وتحسير المشركين الذين أشركوا بالله ﷻ خلقًا ذوي عروش محدودة، وهذا الذي يعبِّر عنه الهدهد معتزًّا بمعرفته بالله ﷻ حين قارن بين عرش إبليس وعرش ذي العرش، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤ أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِى

(١) مسلم (٢٦٥٣).

(٢) البخاري (٧٤١٨).

(٣) البخاري (٣١٩١).

(٤) نونية ابن القيم (ص: ٦٥).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النَّمل: ٢٣ - ٢٦]، فاستواؤه على العرش كَمَا يَلِيقُ بِهِ ﷻ يبصِّرنا بعظمة ملكه، حيث لا يستطيع أحد أن ينازعه في ملكه، فهو ذو العرش لا غيره.

٢) أعظم ما يقتضيه استواؤه على العرش: أنه بعد أن خلق السَّمَوات والأرض، لم يتركهم هملًا، بل استوى على العرش، ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهو يدبِّر أمر السَّمَوات والأرض بعد خلقها، ويَحْكُمُ قوانينها وأنظمتها، ويُحكِمُها وَفْقَ الحكمة البالغة والرَّحمة الواسعة، والقوَّة المطلقة كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [يُونُس: ٣].

ما اختلَفَ اللَّيل والنَّهار ولا ... دارت نجومُ السماءِ في الفلكِ
إلَّا لنقْلِ النَّعيمِ عن مَلِكٍ ... قد زالَ ملكُهُ إلى مَلِكِ
ومُلْكُ ذي العرش دائمٌ أبدًا ... ليس بفانٍ ولا بمشتركِ[1]

٣) لم يسأل الصَّحابة ﷺ عن حقيقة الاستواء وكيفيته.. بل تشعر منهم أنَّهم فهموا وشعروا بعظمة جلال الله من استواء الله على عرشه العظيم، فكيف بصاحبه جلَّ مجدُه؟! ويقتضي ذلك كمال الملك، وإحاطة تدبيره بأعظم المخلوقات وأدقِّها، ولذا قال أحمد بن مُشْرِف الوهيبيُّ الأحسائيُّ رحمه الله (ت١٢٨٥هـ):

إليه تَعْرجُ الملائكُ العُلا ... والرُّوحُ والأمرُ ومنه أُنزِلا
والمصطفى به إليه أُسرِي ... فجاوز السَّبع الطِّباق فادرِ

(١) أدب الغرباء (ص: ١٥).

فَطَيِّبُ القولِ إليه يَصْعدُ ... وفطرةُ الخلقِ بهذا تشهدُ
هلا سألتَ كلَّ عبدٍ يسألُ ... هل نفسه تجنح إلا للعُلُو
وأنَّه قد رفعَ ابنَ مريما ... له وسمَّى نَفْسَهُ مَنْ في السَّما
وقد أشارَ المصطفى بالأصبعِ ... نحو السَّماء مُشْهِدًا في مَجْمَعِ
فاللهُ ذو العرشِ على العرشِ استوى ... وعِلْمُهُ لكلِّ شيء قد حوى[1]

قال العلَّامة محمد رشيد رضا رحمه الله: «وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَا أَسْنَدَهُ الرَّبُّ تَعَالَى إِلَى نَفْسِهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي وَرَدَتِ اللُّغَةُ فِي اسْتِعْمَالِهَا فِي الْخَلْقِ: أَنْ يُؤْمِنُوا بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ مَعْنَى الْكَمَالِ وَالتَّصَرُّفِ مَعَ التَّنْزِيهِ عَنْ تَشْبِيهِ الرَّبِّ بِخَلْقِهِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّهُ اتَّصَفَ بِالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ، بِالْمَعْنَى الَّذِي يَلِيقُ بِهِ، لَا بِمَعْنَى الِانْفِعَالِ الْحَادِثِ الَّذِي نَجِدُهُ لِلْحُبِّ وَالرَّحْمَةِ فِي أَنْفُسِنَا، وَلَا مَا نَعْهَدُهُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ وَالتَّدْبِيرِ مِنْ مُلُوكِنَا. وَحَسْبُنَا أَنْ نَسْتَفِيدَ مِنْ وَصْفِهِ بِهَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ أَثَرَهُمَا فِي خَلْقِهِ، وَأَنْ نَطْلُبَ رَحْمَتَهُ، وَنَعْمَلَ مَا يُكْسِبُنَا مَحَبَّتَهُ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِمَا مِنْ مَثُوبَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَنَسْتَفِيدُ مِنَ الِاسْتِوَاءِ عَلَى عَرْشِهِ كَوْنَ الْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ لَهُ وَحْدَهُ فَلَا نَعْبُدُ غَيْرَهُ، وَلِذَلِكَ قَرَنَهُ فِي آخِرِ آيَةٍ يُونُسَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس: ٣]، وَفِي سُورَةِ الٓمٓ السَّجْدَةِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤][2]»، وهذا الشُّعور بعظمة العرش، فكيف بعظمة صاحب العرش العظيم الذي دفع البرعيَّ رحمه الله إلى أن يقول:

---

(١) ديوان ابن مشرف (ص: ٨).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٠٢).

يرى حركاتِ النَّملِ في ظُلَمِ الدُّجَى ولم يخفَ إعلانٌ عليهِ وإسرارُ
ويُحصِي عديدَ النَّملِ والقَطْرِ والحَصى وما اشتملتْ نجدٌ عليه وأغوار[1]

وهو -جلَّ مجدُه- وقد استوى على عرشه يدبِّر أمور عباده، فلا تخفى عليه خافية، وقد رُوي أن سلطان صقلِّية أَرِقَ ذات ليلة ومُنع النَّوم. فأرسل إلى قائد البحر وقال: أنفذ الآن مركبًا إلى أفريقية يأتوني بأخبارها. فعمر القائد المركب وأرسله لحينه. فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه لم يبرح، فقال له الملك: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم! امتثلت أمرك، وأنفذت المركب، ورجع بعد ساعة، وسيحدِّثك مقدم المركب. فجاء مقدم المركب ومعه رجل، فقال الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت في المركب فبينما أنا في جوف الليل والبحَّارون يجذفون، فإذا أنا بصوت يقول: يا الله يا الله، يا غياث المستغيثين، يكرِّرها مرارًا. فلما استقرَّ صوته في أسماعنا، ناديناه مرارًا: لبيك لبيك. وهو ينادي: يا الله يا الله، يا غياث المستغيثين. ونحن نجيبه: لبيك لبيك. وتوجَّهنا نحو الصَّوت فألفينا هذا الرَّجل غريقًا في آخر رمق من الحياة. فأخرجناه من البحر وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقية فغرقت سفينتنا منذ أيام وما زلت أسبِّح حتى وجدت الموت فلم أشعر بالغوث إلا من ناحيتكم. فسبحان من أسهر سلطانًا وأَرَّقَ جبَّارًا في قصره لغريق في البحر وظلمة الوحشة، حتى استخرجه من تلك الظُّلمات الثَّلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحشة، لا إله إلا أنت سبحانك يا أرحم الرَّاحمين[2]

(١) ديوان البرعي (ص: ٤٥).

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب (١/ ٨٣).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «فمن شهد مشهد علوِّ الله ﷻ على خلقه وفوقيَّته لعباده واستوائه على عرشه، كما أخبر به أعرفُ الخلق وأعلمُهم به الصَّادق المصدوق، وتعبَّد بمقتضى هذه الصِّفة، بحيث يصير لقلبه صَمَدٌ يعرج القلب إليه مناجيًا له، مطرقًا، واقفًا بين يديه وقوف العبد الذَّليل بين يدي الملك العزيز، فيَشْعُرُ بأن كَلِمَهُ وعملَه صاعدٌ إليه، معروض عليه مع أوفى خاصَّته وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه مِنْ كَلِمِه ما يخزيه ويفضحه هناك.

ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهيَّة إلى أقطار العوالم كلَّ وقت بأنواع التَّدبير والتَّصرُّف من الإماتة والإحياء، والتَّولية والعزل، والخفض والرفع، والعطاء والمنع، وكشف البلاء وإرساله، وتقلُّب الدُّول ومداولة الأيام بين الناس، إلى غير ذلك من التَّصرُّفات في المملكة التي لا يتصرَّف فيها سواه. فمراسمه نافذة فيها كما يشاء ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤]، فمن أعطى هذا المشهد حقَّه معرفةً وعبوديةً استغنى به»(١).

خلل وإيغال في معنى الاستواء:

وقد دخل بعض المفسِّرين وعلماء العقائد والكلام في بحث معنى الاستواء، والتَّفصيل حول الجهة والمكان، ولقد توغَّلوا في الكلام عن الجسمية ونحو ذلك، ممَّا ينقص التَّوقير والتَّعظيم اللائق بالله ﷻ الذي ليس كمثله شيء ﷻ، فلا أرى البحث في ذلك؛ إذ إن الله ﷻ خلق المكان والجهات كما خلق الزَّمان والتَّحوُّلات، فكيف يليق أن تكون قوانين الخلق لازمةً عند النظر في صفات الخالق؟!

(١) طريق الهجرتين، (ص: ٤٣).

هذا يدلُّ على خللٍ في العقل؛ كيف يليق أن نجعل القوانين التي جعلها الله ﷻ حاكمة للخلق حاكمة للخالق في الوقت نفسه، مثل قوانين الزمان والمكان، وهو الذي خلقها؟ ثم إنهم نازعوا بعضهم بعضًا، واتَّهم كلُّ منهم الآخر بالباطل مصحوبًا بظنٍّ سوء عند نظر الواحد في عبارة الآخر، مع أنهم يقرُّون بأن اسم الإسلام ما زال ينطبق عليهم، وأنهم لا يخرجون عن أن يكونوا من أهل القبلة، ولو حمل كلُّ واحدٍ منهم عبارة الآخر على الظَّنِّ الحسن لوجدوا لها محملًا، وأنا معتصم بحبل الله ﷻ في عدم التَّعطيل للصِّفات، أو التَّمثيل والتَّشبيه والتَّجسيم، أقول كما قال محمد سالم ولد عدود رحمه الله:

وَهْوَ تَعَالَىَ أَحَدٌ فَردٌ صَمَدْ ... أَلْحَدَ مَن قَالَ: بِخَلقِهِ اتَّحَدْ

لَيسَتْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَلا وَلَدْ ... أوْ وَالِدٌ لَيسَ لَهُ كُفُوًا أَحَدْ

وَلَيسَ مِثلَهُ - علا - شَيءٌ وَلا ... يُلْزِمُ ذَا نَفْيَ صِفَاتِهِ العُلَى

فَهْوَ السَّمِيعُ وَالبَصِيرُ المتَّصِفْ ... بِمَا بِهِ فِي نَوْعَيِ الْوَحْيِ وُصِفْ

يُمَرُّ مَا فِي وَصْفِهِ جَاءَ مِنَ الْـ ... ـوَحْيِ كَمَا يَفْهَمُ مَن فِيهِمْ نَزَلْ

مِن غَيرِ مَا تَكْيِيفٍ أو تَمثِيلِ ... لَهُ وَلا تَحْرِيفٍ اوْ تأوِيلِ[1]

ومن أجمل كلامهم الذي كان ينبغي أن يتوقفوا عنده: الله ﷻ واجب لذاته، وغيره مفتقر إليه، والواجِب لِذاتِهِ هو الَّذِي لا يَلْزَمُ مِن عَدَمِ غَيْرِهِ عَدَمُهُ، والمُفْتَقِر إلى الغَيْرِ هو الَّذِي يَلْزَمُ مِن عَدَمِ من افتقر إليه عَدَمُهُ[2]، يعني أنت إذا أردت أن تنفي وجود الله كأنك تنفي نفسك. هذا من أعجب ما يكون في الرَّدِّ على الإلحاد، فمن يقول: أين الله؟ أنا لا أراه، إذًا ينبغي أن

(١) التسهيل والتكميل نظم مختصر الشيخ خليل (١/ ٦، ٧).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٦٠).

نقول له: أنت تنفي وجود نفسك؛ فإما أن يكون العدم قد خلقك، وهذا ربَّما يقوله المجنون، وإمَّا أن تكون أنت الإله الخالق، وهذا لا يقوله عاقل، فإذن: لا بدَّ لك من خالق، وهو الله ﷻ الذي نعبده ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الطُّور: ٣٥].

فحسبك أن يكون مجرَّد التَّفكير أو التَّردُّد في إثبات وجود الخالق يقضي أن هذه الحياة كلَّها غير موجودة، ومن يقول ذلك؟ فإذًا وجودها يعني أن كلَّ ذرَّة منها تشير إلى الخالق البارئ المصوِّر الذي يكون وجوده لازمًا لتصديق وجود هذا الوجود، ولذلك يوصف الملحد بأنه لا يعقل.

تصوَّرْ أن النِّقاشات العقليَّة التي يثيرها بعض أهل العلم كالرَّازي رحمه الله كانت مكثفة وذات حشد هائل من الفلسفة، ولكنَّها متَّجهة نحو فَهْمِ الصِّفات، والتَّعمُّق في معرفة ذات الله ﷻ بما لم يأذن به الله ﷻ، وكان ينبغي أن تكون النِّقاشات مع من ينفون الوجود الإلهيَّ، أو يصرُّون على الإشراك بالله ﷻ ما لم ينزل به سلطانًا.

فرادة المنهج القرآني في سَوق صفات ربِّ البريَّات، وجناية الكلاميين على هذا المنهج:

المنهج القرآني أثبت لله ﷻ صفاتٍ، وجعل فهمها محكومًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ومن صفاته كلامُه الذي قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، لكنك تجد الله -تعالى مجده- يوجِّه أنظارنا وقوانا وأفكارنا وطاقاتنا للنِّقاش مع من يجهلون أو يعاندون في ألوهيته، فيقول ابتداء من أول القرآن حسب التَّرتيب المصحفيِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ويوجِّهنا للنِّقاش مع من يشركون مع الله ﷻ أندادًا، فيقول من أوَّل القرآن حسب التَّرتيب المصحفيِّ: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ثم يعود ليلفت أنظارنا إلى وعده ووعيده وصغار

مخلوقاتِه وكبارها، فهي التي تعكس أفعاله، فيقول أيضًا في أوَّل القرآن التَّرتيب المصحفيِّ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨].. وهكذا تمضي الآيات القرآنيَّة لتوجِّهنا حول الموضوعات التي ينبغي أن نوجه تفكيرنا نحوها، ولقد اتُّهِمَ بالانحراف عن هذا الفهم قومٌ ظُلِموا وما أرادوا بكلامهم –فيما يظهر لي– إلا بيان آثار ذكر الصِّفات الإلهيَّة، وبيان الأثر الذي يحدثه ذكرها لا بيان تفاصيل معانيها أو كيفياتها، وذلك مثل قول القفَّال فيما ينقله عنه الرَّازيُّ ﵀، وسأنقل كلامهما بتصرُّف:

(العرش) في كلامهم هو السَّرير الَّذي يجلس عليه الملوك، ثمَّ جعل العرش كنايةً عن نفس الملك، يقال: ثلَّ عرشه أي: انتفض ملكه وفسد. وإذا استقام له ملكه واطَّرد أمره وحكمه قالوا: استوى على عرشه، واستقرَّ على سرير ملكه، هذا ما قاله القفَّال ﵀.

وأقول: إنَّ الَّذي قاله حقٌّ وصدقٌ وصوابٌ، ونظيره قولهم للرَّجل الطَّويل: فلانٌ طويل النِّجاد، وللرَّجل الّذي يكثر الضِّيافة: كثير الرَّماد، وللرَّجل الشَّيخ: فلانٌ اشتعل رأسه شيبًا، وليس المراد في شيءٍ من هذه الألفاظ إجراؤها على ظواهرها، إنَّما المراد منها تعريف المقصود على سبيل الكناية، فكذا ههنا يذكر الاستواء على العرش، والمراد نفاذ القدرة وجريان المشيئة.

ثمَّ قال القفَّال ﵀: والله تعالى لمَّا دلَّ على ذاته وعلى صفاته وكيفيَّة تدبيره العالم على الوجه الَّذي ألفوه من ملوكهم ورؤسائهم استقرَّ في قلوبهم عظمة الله وكمال جلاله، إلَّا أنَّ كلَّ ذلك مشروطٌ بنفي التَّشبيه، فإذا قال: إنَّه عالمٌ فهموا منه أنَّه لا يخفى عليه –تعالى– شيءٌ، ثمَّ علموا بعقولهم أنَّه لم يحصل ذلك العلم بفكرةٍ ولا رويَّةٍ ولا باستعمال حاسَّةٍ، وإذا قال: قادرٌ علموا منه أنَّه متمكِّنٌ من إيجاد الكائنات، وتكوين الممكنات، ثمَّ علموا بعقولهم أنَّه غنيٌّ في ذلك الإيجاد والتَّكوين عن الآلات والأدوات، وسبق المادَّة والمدَّة والفكرة والرَّويَّة،

وهكذا القول في كلِّ صفاته، وإذا أخبر أنَّ له بيتًا يجب على عباده حجَّه فهموا منه أنَّه نصب لهم موضعًا يقصدونه لمسألة ربِّهم، وطلب حوائجهم، كما يقصدون بيوت الملوك والرُّؤساء لهذا المطلوب، ثمَّ علموا بعقولهم نفي التَّشبيه، وأنّه لم يجعل ذلك البيت مسكنًا لنفسه، ولم ينتفع به في دفع الحرِّ والبرد بعينه عن نفسه...

إذا عرفت هذه المقدِّمة فنقول: إنَّه تعالى أخبر أنَّه خلق السَّموات والأرض كما أراد وشاء من غير منازعٍ، ولا مدافعٍ، ثمَّ أخبر بعده أنَّه استوى على العرش، أي: حصل له تدبير المخلوقات على ما شاء وأراد، فكان قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أي بعد أن خلقها استوى على عرش الملك والجلال. ثمّ قال القفَّال: والدَّليل على أنَّ هذا هو المراد قولُه في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ [يُونُس: ٣]، فقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ جرى مجرى التّفسير لقوله: ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، وقال في هذه الآية الَّتي نحن في تفسيرها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وهذا يدلّ على أنَّ قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ إشارةٌ إلى ما ذكرناه(١).

يحاول القفَّال رحمه الله تقرير آثار صفة الاستواء على العرش، ولكن ذلك لا يعني عدم الإيمان بهذه الصِّفة التي نعرف معانيها في عالم البشر، ونجهل كيفيتها بالنِّسبة لخالق البشر، وصنيع الرَّازيِّ رحمه الله يوهم أنه لا عرش بل هو كناية عن الملك، وهذا غير صحيح، فكيف ننفي صفة ذكرها الله ﷻ في ستَّة مواضع، ولكن إثباتنا لها لا يعني عدم شعورنا بآثارها ممَّا يحاول القفَّال الشُّعور به بعد خلق السَّموات والأرض، والخلل في الفهم يكمن في ظنِّ السَّامع أن القفال

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٩٥).

رحمه الله يريد أن يفسِّر الكلمات حرفيًّا، وفرق بين تفسير الكلمات أو تأويلها وبين الشُّعور بآثارها في الواقع الكونيِّ والبشريِّ المشاهد.

بصيرة: معرفة صفات الحقِّ –سبحانه– تربِّي المهابة من جلاله في القلوب، وتُشيع الأنس بجنابه في الأرواح، وهذه أهمُّ ثمرات آيات الكتاب المتضمِّنة لصفات ربِّ الأرباب.

فإن قلت: تعرَّفنا على المَعْلَم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ ﴿٥٤﴾﴾، فما المَعْلم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ في قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴿٥٤﴾﴾؟

الجواب: هنا يأتي المَعْلم الخامس:

المَعْلم التَّعريفيُّ الخامس: خلق الله ﷻ الزَّمان، وتحكَّم به ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، **كما خلق المكان ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فاللَّيل والنَّهار مادتا الزَّمان:**

الله جلَّ ثناؤُه خلق اللَّيل والنَّهار، فهو خالق الزَّمان، ثم هو المتحكِّم بهذا الزَّمان.

وقد تتساءل: لم يقل ﷻ: خلق الله اللَّيل والنَّهار، بل ذكر أنه يُغشي الليلَ النهارَ فلماذا؟

الجواب: ذكر الله ﷻ أنه خلقهما في آيات أخرى مثل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنبياء: ٣٣].

أمَّا هنا فذكر أنه: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، واللَّيل والنَّهار مادتا الزَّمان، فبصَّرنا ذلك أن الله ﷻ هو الذي يتحكَّم باللَّيل والنَّهار، وبالتَّغيُّرات الحادثة فيهما، فلا يمكن لأحد اختراق هذا التَّحكُّم، ولذلك فما أصاب من مصيبة في أيِّ لحظة فبيد الله ﷻ تغييرها، وإزالتها، فارجع إليه، وليكن شعارك:

ما مَسَّنِي نَصَبٌ بِكُرْهٍ أَوْ رِضا ... إِلَّا اهْتَدَيْتُ بِهِ إِلَيكَ طَرِيقا
أَمْضِ القَضاءَ على الرِّضا مِنِّي بِهِ ... إِنِّي وَجَدتُّك في القَضاءِ رَفِيقا[1]

فإن قلت: ما القراءات الواردة في كلمة ﴿يُغْشِى﴾؟ وهل هناك فرق بينهما في المعنى؟

الجواب: كلمة: ﴿يُغْشِى﴾ فيها قراءتان متواترتان:

القراءة الأولى: قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، ونافِع، وأَبُو عَمْرٍو، وابْنُ عامِرٍ، وعاصِمٌ في رِوايَةِ حَفْصٍ، وأبو جعفر ﴿يُغْشِى﴾ بضم الياء وسكون الغين وتخفيف الشَّين[2] من أغشى، يُقَالُ: غَشِيَ (كَرَضِيَ) فُلَانٌ أَصْحَابَهُ إِذَا أَتَاهُمْ، وَغَشِيَ الشَّيْءُ الشَّيْءَ: لَحِقَهُ وَغَطَّاهُ، فالإغْشاءُ والتَّغْشِيَةُ إلْباسُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، أي: أتاهم ولحقهم وغطَّاهم من ماء اليمِّ، ومن الإغشاء قَوْلُهُ: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]، أي: ألحقنا بأعينهم شيئًا يمنع الرُّؤية فَهُمْ لا يبصرون، فالهمزة للتَّعدية، ومنه قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ [النور: ٤٠]، فمعنى غَشِيَ: أدرك، وتبع، ولَحِقَ حتى يغْلِب عَلَيْهِ أَوْ يُغَطِّيَهُ وَيَسْتُرَهُ، ومنه قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤]، وَالضَّمِيرُ لِلشَّمْسِ، أَيْ: يَتْبَعُ اللَّيل ضَوْءَ الشمس، وَيَغْلِبُ عَلَى الضَّوء الذي يغطِّي الْمَكَانَ الَّذِي كَانَ فِيهِ[3].

فالله ﷻ هو الذي يغشي اللَّيل النَّهار، أي: يجعل أحدهما يلحق الآخر فيغطِّيه، كأنه يلبسه تدريجيًّا حتى تتكامل تغطيته له بِأَمْرِهِ ومشيئته وتصريفه.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٣)، وهي فيه بلفظ (في البلاء)، وفي مصادر أخرى (في القضاء)، وأنا أميل للثانية لاتساق المعنى.

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٤٠٣).

القراءة الثانية: قَرَأ حَمْزَةُ، والكِسائِيُّ، ويعقوب، وشعبة عن عاصِم: ﴿يُغَشِّي﴾ بضم الياء وفتح الغين وتشديد الشِّين، من التَّغشية، ومنه قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النَّجم: ٥٤]، وهي بالمعنى الأول، إلَّا أن في هذه القراءة مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ وَالْكَثْرَةِ؛ لكثرة تكرار هذه العملية: اللَّيل يلحق النَّهار، فيغطِّيه، والنَّهار يلحق اللَّيل، فيغطِّيه.

والتَّعبير بالفعل المضارع (يغشي) على القراءتين يدلُّ على الاستمرار والتَّكرار، وتصوير حركة التَّغشية المتبادلة المتعاقبة بين اللَّيل والنَّهار، بما ينبيك عن عظيم قدرة الله ﷻ المطلقة المتصرِّفة المدبِّرة للكون ومن فيه وما فيه.

فإن قلت: ما الحكمة في التعبير القرآني هنا بهذا اللفظ البديع ﴿يُغْشِى﴾؟

الجواب: إنما قال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ولم يقل: (يلبس) ولا (يخلط الليل بالنهار)؛ لأن لفظة التَّغشية، أبلغ فى الإحاطة والشُّمول من لفظة الإلباس والاختلاط، مع ما فيها من الرِّقة واللطافة، والخفَّة والسَّلاسة، وهى مؤذنة أيضًا بشِدَّة الاتصال والالتحام بين الغشاوة، والمغشى [(١)].

وهنا يثير تساؤلنا هذا التَّعبيرُ العظيمُ الرائع: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] ما الذي يغشى الآخر؟ فالله ﷻ هو الفاعل، والمفعول الأول اللَّيل، والمفعول الثاني النَّهار، ويحتمل العكس، فما الذي يسبق منهما، فيغشاه الآخر؟

الجواب: يحتمل هذا، ويحتمل هذا، وهذا من بديع الإيجاز ورشاقة التركيب: جعل اللَّيل والنَّهار مفعولين لفعل فاعل الإغشاء، فهما مفعولان كلاهما صالح لأن يكون فاعل الغشي، ولهذا استغنى بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] عن ذكر عكسه ولم يقل: والنهار

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٧٨).

الليل[1]، فالليل يسبق فيَرِدُ عليه النَّهار، فيلحقه، ويتجلَّله، وَيَغْلِبُ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ فِيهِ، حتى يغطِّي اللَّيل أي: يُذهِب ظلمته، ويشرق في الأركان التي كان اللَّيل قد سيطر عليها، ويحتمل أن النَّهار يسبق فيَرِدُ عليه اللَّيل ويتجلَّله، فيتغشَّاه، فيُذهِب نورَه، ويسيطر بظلامه على كلِّ الزَّوايا التي كان النَّهار مشرقًا فيها، فيحلَّ على الأمكنة التي حلَّ فيها رويدًا رويدًا حتى يغطِّيَها جميعًا، فيورد اللَّيل على النَّهار فيلبسه إيَّاه، حتى تذهب نضرته ونوره.

وترى الجمال الأخَّاذ في التَّعبير بكلمة: ﴿يُغۡشِي﴾ عندما تتصوَّر الرَّجل يتغشَّى المرأة ممَّا ترى صورته مدهشة حنونة رائعة دون أن تتجاوز الأدب الرَّاقي والكلام العالي في قول ربِّك جلَّ ذِكرُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، أي: فلما أدركها، فغطَّاها بجسده، ويدلُّك على أن النَّهار يَرِدُ على اللَّيل قراءة حُمَيد بن قيس رحمه الله في الشواذ: (يغشى اللَّيلَ النهارُ)، بفتح الياء، ونصب اللَّيل، ورفع النَّهار، أي: يدرك النَّهارُ اللَّيلَ، ويطلبه حثيثًا.

واسمع للمفسِّر المخبت رحمه الله يلفت نظرنا إلى الغرض من جمال ودقَّة هذا التَّصوير القرآنيِّ وأثره في إيقاظ الحسِّ، واستثارة الشُّعور فيقول: «إن هذا كلَّه مستوى من جمال التَّصوير والتَّعبير لا يرقى إليه فنٌّ بشريٌّ على الإطلاق! إن الألفة التي تقتل الكون ومشاهده في الحسِّ وتطبع النَّظرة إليه بطابع البلادة والغفلة.. إن هذه الألفة لتتوارى، ليحلَّ محلَّها وقعُ المشهد الجديد الرَّائع الذي يطالع الفطرة كأنَّما لأول وهلة!».

---

(١) التحرير والتنوير، (٨/ ١٦٧).

فانظر لهذا التَّصوير البديع الذي يبديه الله ﷻ لك في قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].. سترى فيه النَّهار يطلب اللَّيل مجتهدًا لا يفتر، وترى فيه اللَّيل يطلب بصورة حثيثة النَّهار، وترى فيه التَّقلُّبات بينهما تغشى هذا الفَلَك الدَّوَّار.. إنهما يعملان ما هيَّأ الله ﷻ لهما العمل فيه، فهل عمل الإنسان ما يجب أن يقوم به فيهما؟ واللَّيل والنَّهار بهذا الاجتهاد في الحركة يشعرانك بمدى الحيويَّة التي تدبُّ فيهما، إذ يشاركانك كما يشاركان بقيَّة المخلوقات إيقاع الحركة.

بصيرة: يوقظ القرآن موات القلوب، ويهزُّ المشاعر من ألفتها المتبلِّدة بالإلماح إلى عظيم صنع الله ﷻ وتدبيره للعوالم العلويَّة والسُّفليَّة، وهذا من أهمِّ مقاصد عرض الآيات الكونيَّة، والحقائق الوجوديَّة.

فإن قلت: ما معنى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾؟ وعلى ماذا يعود الضَّمير؟ ما الطالب؟ وما المطلوب؟

الجواب: هذه الكلمة: ﴿حَثِيثًا﴾ تبين بدقَّة العلاقة بين اللَّيل والنَّهار، إذ معناها: سَرِيعًا جِدًّا، مِنْ قَوْلِهِمْ: فَرَسٌ حَثِيثُ السَّيْرِ، وَمَضَى حَثِيثًا أَيْ: مُسْرِعًا، ويُقالُ: حَثَثْتُ فُلانًا فاحْتَثَّ، فَهو حَثِيثٌ ومَحْثُوثٌ، أي: مُجِدٌّ سَرِيعٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الليل يَعْقُبُ النهار سَرِيعًا جدًّا كَالطَّالِبِ لَهُ لَا يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا شَيْءٌ، ولا يتركه أبدًا حتى يأتي أمر الله.

وهذا التعبير مدهشٌ تبعًا لسابقه، فالضمير في ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الليل أي: اللَّيْلُ يَجُرُّ ويَطْلُبُ النَّهارَ دائِمًا طَلَبًا سريعًا، وأجازَ ابْنُ جِنِّيٍّ ﷺ أنْ يَكُونَ ﴿يَطْلُبُهُۥ﴾ حالًا مِنَ النَّهارِ أيْ: حالَ كَوْنِ النَّهارِ يَطْلُبُ اللَّيْلَ حَثِيثًا لِيُغَطِّيَهُ، وأنْ يَكُونَ حالًا مِنهُما مَعًا لِأنَّ كُلًّا

مِنهُما طالِبٌ لِلْآخَرِ، وكل مِنهُما يَكُونُ غاشِيًا لِلْآخَرِ، قالَ ابْنُ جِنِّيٍّ رحمه الله في سياق الجمع بين قراءة حُميد الشَّاذَّة (يغشى اللَّيلَ النهارُ) وبين قراءة الجماعة المتواترة: ووَجْهُ صِحَّةِ القِراءَتَيْنِ والتِقاءِ مَعْنَيَيْهِما أنَّ اللَّيل والنَّهار يَتعاقَبانِ -أشبه بدور تسليم واستلام- وكُلُّ واحِدٍ مِنهُما وإنْ أزالَ صاحِبَهُ فَإنَّ صاحِبَهُ أيْضًا مُزِيلٌ لَهُ -في تداول سلميٍّ للمكان الذي يكون فيه أحدهما، فيأتي الآخر ليستلمه- وكُلُّ واحِدٍ مِنهُما -عَلى هَذا- فاعِلٌ وإنْ كانَ مَفْعُولًا، ومَفْعُولٌ وإنْ كانَ فاعِلًا[1].

ولا تتحقَّق هذا التَّغشية بصورة دائمة إلا إذا كان كلُّ واحدٍ منهما يغشى الآخر، وهنا تعلم فائدة من فوائد التَّعقيب على هذا الوصف للحركة الزَّمانيَّة بين اللَّيل والنَّهار بقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ فترى اللَّيل يطلب النَّهار، وترى النَّهار يطلب اللَّيل بصورة "حثيثًا" يعني: عجلًا سريعًا بإلحاحٍ لا ينقطع، ومتى سينقطع؟

إذا أشرقت الشمس من المغرب وبدأت تحوُّلات أو نظام الزَّمان بالتَّغيُّر.

«إن دورة التَّصور والشُّعور مع دورة اللَّيل والنَّهار في هذا الفَلَك الدَّوَّار، واللَّيل يطلب النَّهار حثيثًا، ويريده مجتهدًا! لهي دورة لا يملك الوجدان ألَّا يتابعها وألَّا يدور معها! وألَّا يرقب هذا السِّياق الجبَّار بين اللَّيل والنَّهار، بقلب مرتعش ونفس لاهث! وكلُّه حركة وتوفز، وكلُّه تطلع وانتظار! إن جمال الحركة وحيويتها و«تشخيص» اللَّيل والنَّهار في سمت الشَّخص الواعي ذي الإرادة والقصد، إن هذا كلَّه مستوى من جمال التَّصوير والتَّعبير، لا يرقى إليه فنٌّ بشريٌّ على الإطلاق».

---

(١) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها (١/ ٢٥٤).

وإن الآية لتنبئك عن الكشف للقرآني للحركات الكونية بدقَّةٍ مدهشة، وتخبرك بالإعجاز الإنبائي عن الواقع الكوني، حيث وصَفَ الله حَرَكَةَ المتابعة بين اللَّيل والنَّهار بِالسُّرْعَةِ والشِّدَّةِ؛ قال الرَّازيُّ رحمه الله سابقًا علماءَ الكون مقرِّرًا أن جميع هذه المخلوقات تجري لأجل مسمَّى: «لِأَنَّ تَعاقُبَ اللَّيل والنَّهار إنَّما يَحْصُلُ بِحَرَكَةِ الفَلَكِ الأعْظَمِ، وتِلْكَ الحَرَكَةُ أشَدُّ الحَرَكاتِ سُرْعَةً، وأكْمَلُها شِدَّةً -وهذا شيء عجيب من الرَّازيِّ لعله استنبطه من قوله ﴿حَثِيثًا﴾ - حَتّى إنَّ الباحِثِينَ عَنْ أحْوالِ المَوْجُوداتِ قالُوا: الإنْسانُ إذا كانَ في العَدْوِ الشَّدِيدِ الكامِلِ، فَإلى أنْ يَرْفَعَ رِجْلَهُ ويَضَعَها يَتَحَرَّكُ الفَلَكُ الأعْظَمُ ثَلاثَةَ آلافِ مِيلٍ، وإذا كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ كانَتْ تِلْكَ الحَرَكَةُ في غايَةِ الشِّدَّةِ والسُّرْعَةِ، فَلِهَذا السَّبَبِ قالَ تَعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾»[1].

وقد ذكر الله ﷻ تفصيلًا أوسع لهذا في آيات أخرى مثل قوله ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٢٧-٤٠]، فَشَبَّهَ ذَلِكَ السَّيْرَ وتِلْكَ الحَرَكَةَ بِالسِّباحَةِ في الماءِ، والمَقْصُودُ: التَّنْبِيهُ عَلى سُرْعَتِها، وسُهُولَتِها، وكَمالِ إيصالِها.

ولا يمكن أن يغشى اللَّيل النَّهار، ولا النَّهار اللَّيل إلا إذا كان الجميع يتحرَّك، وهذا الذي قرَّره الله ﷻ، إذ قال: ﴿وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾

ورةولا يمكن أن يتحقَّق هذا إلا إذا كان المكان الذي يغشاه اللَّيل والنَّهار -أي: الأرض- تتحرَّك معهم.

---

(١) تفسير الرازي، (١٤/ ٩٦).

وقد تتساءل متدبِّرًا: ما الحكمة من ذكر الوصف ﴿حَثِيثًا﴾ الذي جاء هنا في سورة الأعراف، ولم يذكر في بقية آيات تغشية اللَّيل النَّهار، أو التغشية بغير تحديد؟

يُجاب عن ذلك بإيجاز: أن آية سورة الاعراف مرتبطة بالمراحل الأولى من خلق السَّمَوات والأرض، في حين بقية الآيات تصف الظَّاهرة بصفة عامَّة.

إذ إن حركه تتابع الليل والنهار (أي: حركه دوران الأرض حول محورها أمام الشَّمس) كانت في بدء الخلق سريعة متعاقبة بمعدلات أعلى من سرعتها الحالية، وهذه السُّرعة تجعل عدد أيام السَّنَة يتعدَّى (٢٢٠٠) يوم في السَّنَة، بطولٍ لليل والنهار معًا يقدَّر بأقلَّ من أربع ساعات، وبدأت الأرض تتباطأ بالتَّدريج حتى وصلت إلى إتمام دورتها حول نفسها في أربع وعشرين ساعة، وهو طول اليوم واللَّيلة في زماننا الرَّاهن[1].

ولكن قد تسأل: ما المناسبة بين هذه الصِّفة الإلهيَّة: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ وبين قوله جلَّ ذِكرُه قبلها: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾؟

الجواب: العلاقة واضحة: فبعد أن بيَّن أنه خلق المكان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وبيَّن هنا أنه خلق الزَّمان، وتحكَّم فيه ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾، وقرَّبهما في الذِّكر لما بين الزَّمكان من علاقة وتآخٍ، كما أكدته النَّظريَّة النِّسبية اليوم، وأشار إليه بعضهم -قبل أنشتاين- بقوله «الزمانُ مكانٌ سائلٌ، والمكانُ زمانٌ متجمد».

وبين ذِكْر خلق السَّموات والأرض وذِكْر تغشِّي الليل النهار ذَكَرَ أنه استوى على العرش؛ ليبيِّن لنا أمرين عظيمين:

الأول: أن قوانين المكان والزَّمان لا تنطبق عليه ﷻ.

---

(١) ينظر: من آيات الإعجاز العلمي في القرآن (ص: ٤٦، ٤٧).

الثاني: أنَّه على عرشه ﷻ يدبِّر أمر المكان والزَّمان بما ينفع من فيهما، ويقوم على مصلحته.

وقد أشار القَفّالُ ﷺ إلى شيءٍ من هذا، فذكر أنَّه سبحانه لمَّا أخبر عباده باستوائه على العرش عن استمرار أصعب المخلوقات على وَفْق مشيئته، وأصعب مخلوقاته هو العرش؛ لأنَّه الأعظم، والسَّموات والأرض كلُّها ما هي إلا كحَلْقة أي: كخاتم في فلاةٍ، بالنِّسبة للكرسيِّ الذي ذكره الله ﷻ في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، فالكرسيُّ شيءٌ عظيم موجودٌ ضمن العرش، وليس كما يتخيَّله بنو الإنسان، والكرسيُّ ما هو إلَّا كحلْقة أي: خاتم صغير في صحراء، بالنِّسبة للعرش الذي استوى الله ﷻ عليه، فلمَّا أخبرهم الله ﷻ بأنه استوى على عرشه أراهم ذَلِكَ عِيانًا فِيما يُشاهِدُونَهُ، وهما اللَّيل والنَّهار مِنها؛ ليضمَّ العِيان إلى الخبر، وتزول الشُّبه عن كلِّ الجهات، فَقالَ: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ لأنَّه تعالى أخبر في هذا الكتاب الكريم بما في تعاقب اللَّيل والنَّهار من المنافع العظيمة، والفوائد الجليلة، فإنَّ بتعاقبهما يتمُّ أمر الحياة، وتكمل المنفعة والمصلحة[1].

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤] **ما المَعْلم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ، ويبصِّرنا به هذا القبس القرآني العظيم؟**

الجواب: هنا يأتي المَعْلم السادس:

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٧١).

المَعْلم التَّعريفيُّ السَّادس: خلق الله ﷻ ما بين السَّماء والأرض:

فذكر الله ﷻ لنا الأجسام الكبرى التي تحيط بالأرض وتتحرَّك في السَّماء، فيديرها بأمره: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

سنسأل: الشَّمْس وَالْقَمَر مِنَ النُّجُومِ فَذَكَرَهُمَا الله ﷻ ثُمَّ عطف على ذكرهما ذِكْرَ النُّجُومِ فما الحكمة من ذلك؟

الجواب: هذا من عطف العامِّ على الخاصِّ، فأفرد الله ﷻ الشَّمس والقمر؛ لأنَّه تعالى جعلهما سببًا لعمارة هذا العالم، ولهما تعلُّق شديدٌ بحياة الإنسان، ثم بعد ذلك عطف عليهما النُّجوم، فالشَّمس سلطان النَّهار، والقمر سلطان اللَّيل، والشَّمس تأثيرها في التَّسخين والقمر تأثيره في التَّرطيب، وتَوَلُّدُ المواليدِ الثَّلاثة أعني: المعادن والنَّبات والحيوان لا يتمُّ ولا يكمل إلَّا بتأثير هذين الجِرْمين اللَّذين خلقهما الله ﷻ، حيث تتولَّدُ بسببهما الحرارة في الرّطوبة.

ثمَّ إنَّه تعالى خصَّ كلَّ كوكبٍ بخاصَّةٍ عجيبةٍ وتدبيرٍ غريبٍ [1]، حتى أن بعض الناس ظنَّ أن هذا التأثير من عند هذه الكواكب فعبدوها وتركوا مُكَوْكِبَها وهو الله جلَّ في علاه. وقد جعل الله ﷻ لها تأثيرًا هائلًا جدًّا على الأرض حتى أن عملية (الكلوروفيل) التي هي البناء الضَّوئيُّ في النَّباتات تتعلَّق بنموِّ النَّباتات وازدهارها، ولا يمكن أن تتحقَّق إلَّا بوجود الشَّمس، وكذلك الإنسان وبقيَّة المخلوقات في الأرض لا يمكن لهم الاستمرار إلا بوجود الشَّمس. فالعطف للنُّجوم على الشَّمس والقمر من عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لأهمِّيَّة الخاصِّ. ويرى المفسِّر العراقيُّ محمود شكري الآلوسي رحمه الله أن «إفراد الشمس والقمر بالذِّكر مع دخولهما في النجوم؛ لإظهار شرفهما عليها؛ لما فيها من مزيد الإشراق والنور، وبسيرهما في المنازل

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٥).

تُعرَف الأوقات، وقدَّم الشمس على القمر؛ رعاية للمطابقة مع ما تقدَّم، وهي من البديع؛ ولأنها أسنى من القمر، وأسمى مكانة ومكانًا»[1]، فذلك الانتزاع الخاص لعظم هذين الجِرمين ومركزيتهما بين النجوم، وما يؤديانه من دور فاعل في حركة الحياة وتقلبات الحركة الزمنية على كوكب الأرض.

«إنَّ اللَّيل والنَّهار في هذا التَّعبير ليسا مجرَّد ظاهرتين طبيعيتين مكرورتين. وإنما هما كائنان حيَّان ذوا حسٍّ وروح وقصد واتجاه. يعاطفان البشر ويشاركانهم حركة الحياة وحركة الصِّراع والمنافسة والسِّباق التي تطبع الحياة! كذلك هذه الشَّمس والقمر والنُّجوم .. إنَّها كائنات حيَّة ذات روح! إنها تتلقَّى أمر الله ﷻ وتنفذه، وتخضع له وتسير وَفْقَهُ. إنَّها مسخَّرة، تتلقَّى وتستجيب، وتمضي حيث أمرت، كما يمضي الأحياء في طاعة الله! ومن هنا يهتزُّ الضَّمير البشريُّ وينساق للاستجابة في موكب الأحياء المستجيبة. ومن هنا هذا السُّلطان للقرآن الذي ليس لكلام البشر .. إنه يخاطب فطرة الإنسان بهذا السُّلطان المستمدِّ من قائله – سبحانه – الخبير بمداخل القلوب وأسرار الفِطَر».

فإن قلت: نعرف معنى: الشَّمس والقمر والنُّجوم، فما معنى كلمة ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾؟

الجواب: كلمة ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ من (سَخِرَ) وهي كلمة تدلُّ عَلَى أن الـمُسَخِّرَ يقوم باستعمال الـمُسَخَّر فيما يريده، ويقيِّده لعمله دون اختيار، بذا يتَّضح لنا أنَّ هناك مسخِّرًا وهو الله ﷻ، وأنَّ هناك مسخَّرًا وهو الشَّمس والقمر والنُّجوم، فالله ﷻ سخَّرها، والمسخَّر يطيع وينقاد دون تردُّد، فالتَّسْخِيرُ تَذْلِيلُ القوى بِقَهْرٍ وتَخْوِيفٍ، أوْ بِتَعْلِيمٍ وسِياسَةٍ بِدُونِ عِوَضٍ، أو بعوض قهريٍّ، فَمِنهُ تَسْخِيرُ الأفْراسِ والرَّواحِلِ، ومِنهُ تَسْخِيرُ البَقَرِ لِلْحَلْبِ، والغَنَمِ لِلْجَزِّ، وكُلٌّ قائم

(١) تفسير الآلوسي (٤/ ٣٧٧).

على عوض الرعاية والحماية لهذه المخلوقات، ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُنَا سَخَّرَ اللهُ ﷻ الشَّيْءَ، وَذَلِكَ إِذَا ذَلَّلَهُ لِأَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ فانقاد. قَالَ اللهُ جلَّ ثناؤُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]، وعرَّف الرَّاغب ﷺ التَّسْخِير بأنه: «سياقة إلى الغرض المختصِّ قهرًا»، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، فالشَّمس والقمر والنُّجوم خاضِعَة منقادة لِلنِّظامِ الَّذِي خَلَقَها اللهُ ﷻ عَلَيْهِ بِدُونِ تَغْيِيرٍ، مَعَ أَنَّ شَأْنَ عِظَمِها أَنْ لا يَسْتَطِيعَ غَيْرُهُ تَعالى وضْعَها عَلى نِظامٍ مَحْدُودٍ مُنْضَبِطٍ(١).

ومن ذلك أن الله ﷻ سخَّر الأرضَ وما فيها والشَّمس والقمر للآدميين إجراؤها على ما يوافق مصالحهم، فيمكنهم بسهولة أن ينتفعوا بها وَفْقَ مختلف وجوه الانتفاع مذلَّلة لهم على ألطف الوجوه، كما سخَّر الماء للسَّفينة تمخر فيه كيف شاءت، وَلذا يُقَالُ: سُفُنٌ سَوَاخِرُ مَوَاخِرُ. فَالسَّوَاخِرُ: الْمُطِيعَةُ الطَّيِّبَةُ الرِّيحِ. وَالْمَوَاخِرُ: الَّتِي تَمْخَرُ الْمَاءَ تَشُقُّهُ(٢)، فالتَّسخير انقيادٌ بيسر مع عدم مقاومة، ويلزم ذلك الخفَّة كما تجري السَّفينة وتتحرَّك بيسر.

وهذه صورة صغيرة محدودة من التَّسخير لمخلوق هو الجَمَل سخَّره الله ﷻ لمخلوق آخر هو الإنسان، فيكف يكون تسخير هذه المخلوقات بأمر خالقها الرَّحمن؟

وهذا التَّسخير الذي تراه يبيِّن لك نَفَاذ إِرَادَة الله ﷻ، وكمال تدبيره وقدرته، إذ خلقها وأنفذ أمره فيها، وألزمها السَّير على النِّظام الذي وضعه لها، كما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النَّحل: ٤٠].

---

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب (ص: ٤٠٢)، التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٦٨).

(٢) مقاييس اللغة (٣/ ١٤٤).

وحتى تشعر بقوَّة كلمة: ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾ فتذكَّرِ الصُّورة المحسوسة التي تراها عندما تركب سيارتك أو طائرتك المسخَّرة لك، وانظر إلى الجَمَل كيف يقوده الطَّفل الصَّغير مسخَّرًا له، ويقول عند ركوبه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الزُّخرُف: ١٣].

ولعلنا نسأل: فما أهمُّ العلامات التي تدلُّك على تسخير هذه المخلوقات العظيمة، وتبيِّن لك كيف يلفت القرآن أنظارنا إلى آيات الله ﷻ المبصرة في الكون؟

الجواب: أبرز العلامات الدَّالَّة على تسخير هذه المخلوقات ما يأتي:

أولًا: أن الشَّمس والقمر والنُّجوم أجسام متماثلة أو متقاربة في الجملة، لكنَّنا رأينا أن كلًّا منها اختصَّ بنورٍ محدَّد، فمثلًا جِسْمُ الشَّمْسِ اختصَّ بِذَلِكَ النُّورِ الْمَخْصُوصِ، وَالضَّوْءِ الْبَاهِرِ، وَالتَّسْخِيرِ الشَّدِيدِ، وَالتَّأْثِيرِ الْقَاهِرِ، وَالتَّدْبِيرَاتِ الْعَجِيبَةِ فِي الْعَالَمِ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ، فجسم الشَّمس له تأثير في كثير من الظَّواهر الأرضيَّة ابتداء بالنَّباتات، وله حتى تأثير في نمو جسم الإنسان، ولذلك غفل بعض الناس عن أنَّ الشَّمس لها خالق فعبدوها دون خالقها، وغفلوا عن الذي خصصَّ هذا الدَّور للشَّمس، كما منح للقمر دوره الخاصَّ به.

لا بدَّ أن يكون هذا المخصِّص فاعلًا قادرًا حكيمًا عليمًا خبيرًا، جعل جِسْم كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ وَالنَّيِّرَاتِ مُسَخَّرًا قابلًا لِتِلْكَ الْقُوَى وَالْخَوَاصِّ، وجعل لكلٍّ منها ميزانه المخصوص، حيث يسير الكون في اتِّساق مدهش، ونظام عجيب، لا ترى له من فطور، ولا اختلال، ولا تضارب، ولا فساد.

إنه الذي يدبِّر كلَّ شيء وهو الله رب العالمين.

ثانيًا: لكلّ واحدٍ من أجرام الشَّمس والقمر والكواكب مسير خاصٌّ به يختلف عن الآخر في سرعته ومداره، ويشير الرَّازيُّ رحمه الله إلى أنَّ لفظ الآية مشعرٌ بذلك؛ لأنَّه لمَّا ذكر العرش بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] رتَّب عليه حكمين:

أحدهما: قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾؛ تنبيهًا على أنّ حدوث اللَّيل والنَّهار بحركتها ضمن الكون.

والثَّاني: قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الفلك الأعظم الَّذي يحرِّك الأفلاك والكواكب على خلاف طبعها من المشرق إلى المغرب، وهو يرى أن الجميع مرتبط بحركة الفلك الأعظم، وهو عنده العرش، وأنَّه تعالى أودع في جرم العرش قوَّةً قاهرةً تسيطر على قهر جميع الأفلاك والكواكب وتحريكها على خلاف مقتضى طبائعها، ثم قال رحمه الله محترزًا: «فهذه أبحاثٌ معقولةٌ، ولفظ القرآن مشعرٌ بها، والعلم عند الله»(١).

ومثل تخصيصها بالنُّور ترى تخصيص كلٍّ منها بالحركة ضمن توازن محدَّد لا يطيش ولا يفسد ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠]، ولا يكون ذلك إلا بتخصيص فاعل حكيم مدبِّر قادر عليم عزيز قاهر هو الله جل جلاله.

وربَّما تسأل: هل يجوز أن نُفيد من علم الهيئة والنُّجوم أي: من علم الفَلَك في معرفة التَّفاصيل الدَّقيقة للكلمات القرآنيَّة؟

الجواب: هذا جزء ممَّا اصطلح عليه بعضهم، وسمَّاه: الإعجاز العلميَّ، وبعضهم سمَّاه التَّفسير العلميَّ للقرآن الكريم.. ومع التَّحفُّظ على المصطلح إلا أن الفكرة بضوابطها الدَّقيقة صحيحة.

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٣).

الرَّازيُّ ينتصر للإعجاز العلميِّ للقرآن الكريم:

ممَّن أشار إلى تفاصيل علم الفَلَك المعجزة الرَّازيُّ رحمه الله في تفسيره[1]، ثم أورد ما يورده المعترضون على العلماء المحقِّقين، فقال: وربَّما جاء بعض الجهَّال والحمقى وقال إنَّك أكثرت في تفسير كتاب الله من علم الهيئة والنُّجوم، وذلك على خلاف المعتاد! فيقال لهذا المسكين: إنَّك لو تأمَّلت في كتاب الله حقَّ التَّأمُّل لعرفت فساد ما ذكرته، وتقريره من وجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السَّموات والأرض، وتعاقب اللَّيل والنَّهار، وكيفيَّة أحوال الضِّياء والظَّلام، وأحوال الشَّمس والقمر والنُّجوم، وذكر هذه الأمور في أكثر السُّوَر وكرَّرها وأعادها مرَّةً بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها، والتَّأمُّل في أحوالها جائزًا لما ملأ الله عزَّ وجلَّ كتابه منها.

أي: فمن الطَّبيعيِّ أن يتكلَّم المفسِّر عن السَّموات والأرض وما فيهما، فإذا وصل المفسِّر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ [المَائِدَة: ٦]، قرَّر أنَّ هذه آية وضوء، ثم يشرح ما يتعلَّق بالوضوء، أمَّا إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غَافِر: ٦٤] أفلا يفصِّل هذه المعاني؟!

بل يفسِّرها إذا كان عنده منها علم، فإن لم يكن عنده منها علم فلا يتطاول على من عنده علم يتعلَّق بها، ممن يبيِّن كيفيَّة التَّسخير، كما بيَّن بعض المفسِّرين كيفية التَّطهير.

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٤).

والثَّاني: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وليس المقصود بالنَّظر الالتفات، وإنما المقصود النَّظر المعتدل المتفكِّر المتدبِّر الذي يحاول أن يستنبط الأسرار ويصل منها إلى قوَّة القادر القدير العليم الغفَّار ﷻ، فَهُوَ تَعَالَى حَثَّ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي أَنَّهُ كَيْفَ بَنَاهَا، وَلَا مَعْنَى لِعِلْمِ الْهَيْئَةِ إِلَّا التَّأَمُّلُ فِي أَنَّهُ كَيْفَ بَنَاهَا، وَكَيْفَ خَلَقَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا.

وَالثَّالِثُ: أَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غَافِر: ٥٧] فَبَيَّنَ أَنَّ عَجَائِبَ الخلقة وبدائعَ الفطرة في أجرام السَّموات أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ وَأَكْمَلُ مِمَّا فِي أَبْدَانِ النَّاسِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى رَغَّبَ فِي التَّأَمُّلِ فِي أَبْدَانِ النَّاسِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذَّارِيَات: ٢١] فَمَا كَانَ أَعْلَى شَأْنًا وَأَعْظَمَ بُرْهَانًا مِنْهَا أَوْلَى بِأَنْ يَجِبَ التَّأَمُّلُ فِي أَحْوَالِهَا وَمَعْرِفَةُ لطيف صنعتها وتدبيرها، أي: ما دام ضمن إدراك الإنسان، حتى لا يقال: فالله ﷻ أكبر أفلا يُتفكر في ذاته؟ فالله أكبر من أن نتكلَّم في ذاته، بل نقول عنه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورَى: ١١].

يكتشف العلماء من أسرار الكون أعاجيب تزيد المؤمنين إيمانًا، ويحاول المحرِّفون أن يستخدموا هذه الآيات للإلحاد مع أن التَّعمُّق فيها ينمي الإيمان ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الجَاثِيَة: ٣].

والرَّابع: أَنَّه تعالى مدح المتفكِّرين في خلق السَّموات والأرض فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولو كان ذلك ممنوعًا منه لما فعل.

والخامس: أَنَّ من صنَّف كتابًا شريفًا مشتملًا على دقائق العلوم العقليَّة والنَّقليَّة بحيث لا يساويه كتابٌ في تلك الدَّقائق، فالمعتقدون في شرفه وفضيلته فريقان: منهم من يعتقد كونه

كذلك على سبيل الجملة من غير أن يقف على ما فيه من الدَّقائق واللَّطائف على سبيل التَّفصيل والتَّعيين، ومنهم من وقف على تلك الدَّقائق على سبيل التَّفصيل والتَّعيين، واعتقاد الطَّائفة الأولى وإن بلغ إلى أقصى الدَّرجات في القوَّة والكمال إلَّا أنَّ اعتقاد الطَّائفة الثَّانية يكون أكمل وأقوى وأوفى، وأيضًا فكلُّ من كان وقوفُه على دقائقِ ذلك الكتاب ولطائفِهِ أكثرَ كان اعتقاده في عظمة ذلك المُصَنَّف وجلالته أكملَ.

وقد سمعت الدكتور فاضل السامرائي -جزاه الله خيرًا- يقصُّ أنَّه مرَّ بمرحلة مؤلمة جدًّا من الإلحاد والشَّكِّ في كلِّ شيء، والشَّكِّ في أنَّ لهذا الكون خالقًا، ثم أنقذه الله ﷻ من هذه المرحلة من الشَّكِّ، فسأله المذيع: وكيف أنقذك الله؟ فذكر أنه فكر تفكيرًا أعمق في المخلوقات، فيقول: هذه الزَّهرة لا بدَّ لها ممن أزهرها، لا يعقل أن يكون الجهاز الصَّغير الذي يخترعه لا بدَّ له من مخترع وصانع، وهذا الكون كلُّه ليس له صانع، وبزيادة التَّأمُّل ازداد اليقين. ولذلك قال الله ﷻ: ﴿لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

فإن قلت: ما الفوائد التي نجتنيها عندما نعلم أنها مسخَّرة؟

الجواب: من فوائد ذلك:

أولًا: الامتنان: ببيان النِّعمة الإلهيَّة على البشريَّة، وإظهار الرحمة الإلهيَّة بها، المقتضي لشكره وحمده، ويذكِّر الله ﷻ عباده بهذا في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لُقمَان: ٢٠]، ولذا يعجب الله ﷻ العقلاء من قوم

يجادلون في ربِّهم ﷻ، وهو الذي حباهم بهذه النِّعم، فيقول مباشرة في هذه الآية من سورة لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لُقمَان: ٢٠]

ثانيًا: النِّظامية: ببيان أنَّ الله ﷻ سخَّر هذه المخلوقات العِظام بأمره، فلا تخرج عن نظامها الذي شرعه لها، ولَمَّا شَرَحَ الله كَيْفِيَّةَ تَخْلِيقِ السَّمَوَات قالَ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فُصِّلَتْ: ١٢] بيَّن أنه وضع في كلِّ سماء نظامها الخاصَّ بها.

ثالثًا: الاعتبار: إذ يعاتب الله ﷻ عباده، فقد أطاعت هذه المخلوقاتُ أمرَ مدبِّرها، فلم تخرج عن تدبير الله ﷻ ونظامه، وانحرف كثيرٌ من العباد باختيارهم، فأعرضوا عن الله ﷻ.

رابعًا: التَّوقيت الزمنيُّ: إذ كان هذان الجِرمان الكبيران (الشمس والقمر) مسؤولَين عن حركة الزَّمان وتقلب الليل والنهار: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام:٩٦]، فبات للشمس والقمر مهمة إدارة الوقت الزمني على كوكب الأرض: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن:٥]، وقد ربطت كثير من الآيات بين الشمس والقمر والليل والنهار نظرا لما بينهما من العلاقة المنسجمة المتداخلة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٣].

لقد خلق الله هذه الأجرام والعوالم مسخَّرات، أي: جاريات على النِّظام الذي أمرهن أن يلزمنه، والحكم الذي عَلِمْنَه من ربِّهن ﷻ يسمعنه منه جلَّ ثناؤُه، فهن لا يستطعن له حَوْلًا ولا تغييرًا، بينما نرى بني الإنسان يحاولون التَّمرُّد على ربِّهم، الذي خلقهم ومنحهم هذه الطَّاقة العظيمة وهذه الأجساد الكبيرة، كأنَّ الحجارة المسخَّرة تقول مستنكرة عابديها وقد نظرت للنَّبيِّ ﷺ وهو في غار حراء وغار ثور:

كَمْ حَسَدْنَا حِرَاءَ حِينَ تَرى ... الرُّوحَ أمينًا يغْذُوكَ بالأنْوارِ

فَحِراءُ وثَوْرُ صَارَا سَوَاءً ... بهما اشْفع لدولةِ الأحجارِ

عَـبـدُونـا ونَـحْـن أَعْـبَـدُ الله مِـنَ الـقـائـمـيـن بـالأَسْـحَـارِ

تقول كيف يعبدنا هؤلاء الناس بينما نحن أطوع لله ﷻ منهم حتى من القائمين بالأسحار في عباداتنا.

تَـخِـذُوا صَـمْـتَـنَـا عـلـيـنـا دلـيـلًا فـغـدَوْنـا لـهـم وَقُـودَ الـنَّـارِ

فتكون العاقبة أن الله ﷻ يسخِّر لهم حجارة تكون وقودًا في النَّار، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

قـد تـجـنَّـوا جَـهْـلًا كـمـا قـد تـجـنَّـوْه عـلَـى ابْـن مـريـمٍ والـحَـوارِي

أي: تجنَّوا علينا جهلًا فاتخذونا من دون الله.

لـلـمُـغَـالِـى جـزاؤه والـمُـغَـالَـى فـيـه تُـنـجـيـهِ رحـمـةُ الـغَـفَّـارِ[1]

المُغَالى فيه مثل المسيح عليه السلام، فالمسيح لا ذنب له كما قال عليه السلام: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧]، وكذلك الحجارة.

وقد تسأل: ما القراءات الواردة في هذه الجملة القرآنية المباركة؟ كيف تسهم تعدد القراءات في هذه الآية بكشف أسرارها، وبيان مزيد من معارفها؟

الجواب: في هذه الجملة المباركة قراءتان:

الأولى: قَرَأ ابْنُ عامرٍ رحمه الله: ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ برفْعِ الكلمات الأربع[2] عَلى مَعْنى الِابْتِداءِ بكلمة: ﴿وَٱلشَّمْسُ﴾، ثم عطف عليه: ﴿وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾، ثم

(١) لا يعرف قائل هذا الأبيات. ينظر: تفسير الشعراوي (٦/ ٣٥٦٧).

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩).

أتى بالخبر وهو قوله: ﴿مُسَخَّرَٰتٌ﴾، فلمَّا أخبر عن خلق السَّمَوات والأرض، أخبر أن الشَّمس والقمر والنُّجوم كلَّهنَّ مسخَّرات بأمره؛ لتنتظم حركة الكون، وتنتفع البشريَّة من تسخير هذه المخلوقات في تنظيم الحياة.

فالمعنى على هذه القراءة يركِّز على تسخير الشَّمس والقمر والنجوم دون خلقها.

الثانية: قرأ الباقُونَ بِالنَّصْبِ عطفًا عَلى خلق السَّمَوات والأرض، كأنه قال: خلق السَّمَوات والأرض، وخلق الشَّمْسَ والقَمَرَ والنجوم حال كونهن مسخَّرات بأمره، كما قال تَعالى: ﴿وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٧].

فالمعنى هنا يركِّز على خلق الشَّمس والقمر والنُّجوم، وعلى تسخيرها في الوقت نفسه، فدخل فيه المعنى الذي اكتسبناه من القراءة الأولى، فهذه القراءة أعمُّ.

وظَاهِر هذه القِرَاءَةِ أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ غَيْرُ السَّمَوَات وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّ الْعَطْفَ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَةَ والأمر كذلك، فإن السَّمَوات شيء، والأرض شيء، وما بينهما من الشَّمس والقمر والنُّجوم أشياء أخرى، وكلُّ هذه المخلوقات مخلوقات عظمى بالنسبة لخلق الإنسان، حتى أن بعض بني الإنسان ضلُّوا فعبدوها من دون الله ﷻ.

قَرَأ ابْنُ عامِرٍ رحمه الله ﴿وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾ بِرفْعِ الكلمات الأربع، والتركيز في هذه القراءة على تسخير الشَّمس والقمر والنجوم دون خلقها.

وقرأ الباقُونَ بِالنَّصْبِ عطفًا عَلى خلق السَّمَوات والأرض، والتركيز في هذه القراءة على خلق الشَّمس والقمر والنُّجوم، وعلى تسخيرها في الوقت نفسه، فدخل فيه المعنى الذي اكتسبناه من القراءة الأولى، فهذه القراءة أعمُّ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فما المَعْلم الذي يعرِّفنا بالله ﷻ الذي تقدِّمه هذه الكلمات ضمن الآيات البيِّنات؟

الجواب: هنا يأتي المَعْلم السابع:

المَعْلم التَّعريفيُّ السَّابع: يتفرَّد الله ﷻ بخلق الكون وإدارته بتدبيره دون أن ينازعه أحد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

قد تسأل: ما الحكمة من ابتداء هذه الجملة القرآنية بأداة الاستفتاح (ألا)؟

الجواب: «لمَّا ذكر الله ﷻ هذه المخلوقات العظيمة، وعدد من المكونات الباهرة، عقَّبها بحرف التَّنبيه؛ إيقاظًا وحثًّا على النَّظر، وإعلامًا بأنها ملك له، يتصرَّف فيها كيف شاء، مِنَ الحلِّ والعقد، والزِّيادة والنُّقصان، وغير ذلك من سائر التَّصرُّفات والتَّغيُّرات»[1].

> **بصيرة: ﴿أَلَا﴾: كلمة تنبِّه السَّامع، وتزيل غفلته، وتوقظ حواسَّه، وتُهيِّئه لما بعدها، فالله ﷻ يحدِّثنا عن هذا الكون، مبيِّنًا أنه يتكوَّن من: الخلق وهو الكون المخلوق، والأمر وهو النِّظام الذي يسير عليه الكون المخلوق.**

فخلق الله ﷻ المخلوقات الثَّمان الكبرى السَّابقة التي حدَّثنا عنها (السَّمَوات والأرض، والعرش، واللَّيل والنَّهار، والشَّمس والقمر والنُّجوم)، وكلُّ هذه المخلوقات ذكرها في هذه الآية، ووضع أنظمتها وقوانينها التي تدار بها السَّمَوات، ويبصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز (١/ ٨٠).

ولذا قال إبراهيم عليه السلام للنَّمرود: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٨].

تأمَّل في الآية لترى أنَّ الله جلَّ في علاه ذكر نفسه في هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ثم ذكر ثماني مخلوقاته العِظام: السَّمَوات، والأرض، والعرش، واللَّيل، والنَّهار، والشَّمس، والقمر، والنجوم، وذكر تنظيمه لهنَّ وتسخيرهنَّ بأمره، وبذلك يكون كُلُّ ما سِوى اللهِ تَعالى إمَّا أن ينتمي إلى عالَمِ الخَلْقِ، أوْ إلى عالَمِ الأمْرِ:

فالله ﷻ خلق الخلق، ووضع بأمره التَّشريعات والقوانين المنظِّمة للمخلوقات لتدبِّر عالم الخلق. وأمر ﷻ بأن تسير هذه المخلوقات وَفْقَ ما أراده ووضعه.

وَأَمْرُهُ ﷻ إمَّا أن يكون بمجرَّد الأمر للشَّيء ليكون كما يريده أن يكون: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وإمَّا أن يأمر ملائكة كرامًا بتنفيذ أمره، وتدبير خلقه، كما قال تعالى جَدُّهُ: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ [النازعات: ٥] أي: الملائكة التي تدبِّر النِّظام بين السَّماء والأرض بأمر الله ﷻ، ومن التَّدبير ما تنزل به الملائكة من الوحي الذي يوصلونه إلى أهل الأرض، ويفصِّل الله ﷻ سريان نظامه في العالم، فيقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

والْآيَةُ والواقع يدلَّان على أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ؛ فأمَّا الآية فقَالَ الله ﷻ فيها: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَهَذَا يُفِيدُ الْحَصْرَ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا اللهُ ﷻ، ولا آمر إلا هو، وأمَّا الواقع فإننا نتيقَّن أن الخلق منذ وجدوا إلى اليوم لم يستطيعوا أن يخلقوا ذبابًا فضلًا عن غيره.

ستقول: إذا كان الأمر كذلك وجب أن نقول أيضًا: لا آمِر إلا الله ﷻ، مع أننا نرى كثيرًا من الخلق لهم الأمر، وقد يأمرون بما لم يأمر الله ﷻ به.. فكيف نفهم الآية؟

الجواب: نفهمها عندما ننظر بعين الاهتمام لتقديم الخلق على الأمر، إذ يقول الله ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالجمع بين الكلمتين مع تقديم الخلق أفادنا فهمًا مستقيمًا للآية، فمن المعاني التي أفدناها:

المعنى الأول: أنَّ القدرة على خلقٍ حقيقيٍّ فيه روح لا تكون إلا لله ﷻ، فيجب أن يكون صاحب الأمر في المخلوق هو الخالق، كما أن صاحب الأمر في المصنوع هو الصَّانع، فالمعنى: لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِيجَادُ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى، ثُمَّ بَعْدَ الْإِيجَادِ وَالتَّكْوِينِ فَلَهُ الْأَمْرُ وَالتَّكْلِيفُ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ، وبما أن لله ﷻ الخلقَ والأمرَ وجب أن يوحِّده المخلوق عبادة بين يديه، وتأليهًا له، وأن ينبذوا ما سواه من الآلهة الكاذبة الخاطئة.

المعنى الثاني: أوامر الله ﷻ التي جعلها نظامًا كونيًّا يسير الكون عليه لا يمكن لأحدٍ أن يغيرها أو يتعدَّى عليها؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يغيِّر حركة الشَّمس وجريانها، ولا يمكن لأحد أن يغيِّر حركة القمر، ولن يغيِّر أحدٌ أوامر الله ﷻ التي جعلها أسبابًا مرتبطة ببعضها كنزول المطر مثلًا، أو ظهور الحَمْل عند الأم، أو عند الزوجة. فلربِّنا ﷻ الأمر كما أن له الخلق.

ربَّما تسأل: ما الذي يمكن أن يغيره المخلوق من أوامر الله؟

الجواب: الذي يمكن للمخلوق تغييره هو الذي خُيِّر فيه فقط، فالله ﷻ يأمر المخلوق بالعدل، وهو يصرُّ على الظُّلم، وعندما يغيِّر الإنسان أمر الله ﷻ في خلقه أو في الحياة إنما يكون تابعًا ذليلًا للشَّيطان، فقد صرَّح إبليس بأنه السبب في محاولة الناس تغيير خَلْق الله الذي صنعه، أو أَمْر الله الذي شرعه، فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النِّسَاء: 119]، وقد منح الله ﷻ بعض مخلوقاته كالجنِّ والإنس الاختيار في تنفيذ أمره الشَّرعيِّ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر. قال تعالى ﴿* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن

كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣].

المعنى الثالث: مع إمكانيَّة أن يختار المختارون بين تنفيذ أوامر الله ﷻ إلا أنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئًا لولا إقدار الله ﷻ لهم أن يفعلوا.

وكونه له الخلق يدلُّ على أنَّ الله ﷻ يقدر على خلق عوالم لا تحصى مثل هذه العوالم التي حدَّثنا عنها في أَقَلَّ من لحظةٍ ولمحةٍ لأنَّ هذه الماهيَّات ممكنةٌ، والحقُّ قادرٌ على كلِّ الممكنات، ولهذا قال المعرِّيُّ في قصيدةٍ طويلةٍ له:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَمْ لِلَّهِ مِنْ فَلَكٍ ... تَجْرِي النُّجُومُ بِهِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

ثُمَّ قَالَ في أثناء هذه القصيدة:

هيِّنٌ عَلَى اللهِ مَاضِينَا وَغَابِرُنَا ... فَمَا لَنَا فِي نَوَاحِي غَيْرِهِ خَطَرُ[1]

وقد ذكروا أن ورقة بن نوفل كان يمرُّ على بلال ﷺ وهو يقول أحد أحد فيقول له: أحد أحد، والله يا بلال! والله لئن قتلتموه لأتخذنَّه حنانًا، كأنه يقول: لأتمسحنَّ به[2].

وقال ورقة بن نوفل في ذلك:

---

(١) ذكر هذه القصة ابن إسحاق في السير والمغازي (ص: ١٩٠)، وقال الذهبي: في تاريخ الإسلام (٣/ ٢٥٢):«هذا مرسل؛ ورقة لو أدرك هذا، لعُدَّ من الصحابة، وإنما مات الرجل في فترة الوحي بعد النبوة وقبل الرسالة، كما في الصحيح»، في حين ذكر ابن حجر في الإصابة (٦/ ٤٧٦): أنه مرسل جيد، يدلُّ على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال ﷺ. والجمع بين هذا وبين حديث عائشة ﷺ أن يحمل قوله: «ولم ينشب ورقة أن توفي، أي قبل أن يشتهر الإسلام، ويؤمر النبي ﷺ».

(٢) نسب هذه الأبيات لأبي العلاء المعرِّيِّ الإمام الرازيُّ في تفسيره (١/ ٢٤). ونسبه الأصفهاني في الأغاني لورقة بن نوفل (٣/ ٨٥).

لقد نَصَحتُ لأقوامٍ فقلتُ لهم ... إني النذيرُ فلا يَغرُرْكُمُ أحَدُ
لا تَعبُدُنّ إلهًا غيرَ خالقكم ... فإن دَعَوْكم فقولوا بيننا حَدَدُ
سبحان ذي العرش لا شيء يعادله ... رب البرية فردٌ واحدٌ صمدُ
سُبحانَ ذي العرشِ سبحانًا نعوذ به ... وقبلنا سبّح الجُوديّ والجُمُدُ
مُسَخَّرٌ كلُّ ما تحت السماءِ له ... لا ينبغي أن يُناوِي مُلكَهُ أحَدُ
لم تُغْنِ عن هُرْمُزٍ يومًا خزائنُه ... والخُلْدَ قد حاولتْ عادٌ فما خَلَدُوا
ولا سُلَيمانَ إذ دان الشُّعُوبُ له ... والجنُّ والإنسُ تَجْرِي بينها البُرُدُ
لا شيءَ مما ترى تبقَى بَشَاشَتُهُ ... يبقَى الإلهُ ويُودِي المالُ والوَلَدُ

فإن قلت: ما دور الملائكة وما علاقتها بالأمر الذي يأمر الله ﷻ به المخلوق؟

الجواب: خصَّص الله ﷻ ملائكة يسمعون أمره، وينقلونه إلى محالِّه في خلقه؛ فعن عَبْد اللهِ بْن عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُمْ بَيْنَمَا هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ رُمِيَ بِنَجْمٍ فَاسْتَنَارَ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَاذَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْلِ هَذَا». قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، وَمَاتَ رَجُلٌ عَظِيمٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:«فَإِنَّهَا لا يُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنْ رَبُّنَا - تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ- إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ -قَالَ- فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَوات بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغَ

الْخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَتَخْطَفُ الْجِنُّ السَّمْعَ فَيَقْذِفُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ وَيُرْمَوْنَ بِهِ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ»(١).

وروى الطَّبريُّ رحمه الله عن قتادة مرسلًا حديثًا عجيبًا يبين إحاطة الله بالخلق ينفذ فيهم أمره، فقال: قال: بينا النَّبيُّ ﷺ جالس مرة مع أصحابه رضي الله عنهم؛ إِذْ مَرَّتْ سَحَابَةٌ، فقال النبي ﷺ «أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟» فَقَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا الْعَنَانُ، هَذِهِ رَوَايَا الْأَرْضِ يَسُوقُهَا اللهُ إِلَى قَوْمٍ لا يَشْكرُونه ولا يَدْعُونه»؛ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ السَّمَاءُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذِهِ السَّمَاءُ مَوْجٌ مَكْفُوفٌ، وَسَقْفٌ مَحْفُوظٌ». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَوْقِ ذَلِكَ سَمَاءٌ أُخْرَى، حَتَّى عَدَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ» وَهُوَ يَقُولُ: «أَتَدْرُونَ مَا بَيْنَهُمَا خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ» ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا فَوْقَ ذَلِكَ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَوْقَ ذَلِكَ الْعَرْشُ». قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا بَيْنَهُمَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ». ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ الْأَرْضُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «تَحْتَ ذَلِكَ أَرْضٌ»، قَالَ: «أَتَدْرُونَ كَمْ بَيْنَهُمَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ» حَتَّى عَدَّ سَبْعَ أَرَضِينَ، ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ دُلِّيَ رَجُلٌ بِحَبْلٍ حَتَّى يَبْلُغَ أَسْفَلَ الْأَرَضِينَ السَّابِعَةِ لَهَبَطَ عَلَى اللهِ»(٢) بمعنى أن الله عز وجل محيط بالكون كلِّه، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ

(١) مسلم (٢٢٢٩).

(٢) قال الترمذي: «فَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ هَذَا الحَدِيثَ، فَقَالُوا: إِنَّمَا هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ. عِلْمُ اللهِ وَقُدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَهُوَ عَلَى العَرْشِ كَمَا وَصَفَ فِي كِتَابِه». سنن الترمذي، (٥/ ٢٥٧).

وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الحديد: ٣][1]، والمقصود بهذا أنَّ الله ﷻ محيط بهذا الكون كلِّه.

إذن فنحن عندما نسمع قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، نرى أنَّ نظام الكون يتناسق مع طبيعته، ونلاحظ تصميمه العظيم يعكس الأمر الإلهيَّ الذي لا يستطيع أحد أن ينازعه، ونرى الجلال العظيم في الكون يعكس هذه التَّشريعات الإلهيَّة الكبيرة.

فابعثْ رسولَ الطَّرفِ منك رائدًا ... يجوب أجوازَ البحارِ والفَلَا
واسْرِ به للأفقِ في مراصدٍ ... معراجُها يدني إليكَ ما نأى
وسرِّحِ الفكرَ ربيئًا ثانيًا ... لمسرح الأرواحِ يسعى والنُّهى
حتى إذا جاسا خلال الدَّار من ... حسٍّ إلى نفسٍ وروحٍ وحِجَا
سائلهما هل ثَمَّ من تفاوتٍ ... أو خللٍ في البدء كان أو عَرَا
إني وتلك مظهرٌ للحقِّ في ... صفاته وما تسمَّى مَنْ سُمَا
(فليس في الإمكان) أن يجري بها ... (أبدعَ ممَّا كان) قبل وجرى
(ثم ارجعِ) الطَّرفَ إليها (ينقلب ... إليك) خاسئًا حسيرًا قد عشا

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٨٧٠)، طبعة دار الحديث، وقال إسلام منصور: «ضعيف؛ قتادة عن النبي ﷺ، مرسل، والسند إليه صحيح»، والمرسل ضعيف من حيث الإرسال في الجملة، ولكنه صحيح إلى قتادة، وقتادة مشهور بالتفسير، والحديث مروي مرفوعًا عن أبي هريرة ﷺ عند أحمد (٨٨٢٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٤): «فيه الحكم بن عبد الملك، وهو متروك الحديث»، وقال عبد الرحمن الوكيل في تحقيقه لكتاب مصرع التصوف: حديث منقطع؛ لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة ﷺ، والحسن لم ير أبا هريرة ﷺ، وبالتالي لم يسمع منه. وقد رواه الترمذي، وقال عنه: إنه غريب.

يتل عليك الآي (صنع الله) مَنْ (أتقن كلَّ ما رأيت وترى
ثُمَّت يتلُ (قد خلت من قبلكم) من سُنَن الحكيم في هذا الورى
وأنَّهنَّ سُنَنٌ ثابتةٌ مثل نظام الشَّمس فاتل (والضَّحى)
قام بهنَّ أمر كلِّ عالمٍ في أرضنا وفي السَّمَوَات العلى
ما ثمَّ تبديلٌ ولا تحويلٌ عن شيء ولا قومٍ فَهُمْ فيها سَوَى[1]

ثم ننتقل إلى قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فما المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الذي تقدِّمه لنا هذه الآية المباركة، وهي تخبرنا عن الله ﷻ؟ وما معنى كلمة تبارك؟

الجواب: هنا يأتي المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الثامن.

(١) الأبيات للعلامة محمد رشيد رضا، تفسير المنار (١٢/ ٢١).

المَعْلم التَّعريفيُّ الثامن: ثبتت الخيرات التي تصدر عن الله ﷻ، ودامت، وتنوعت، وتكاثرت ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهو ليس ربًّا لجهة أو طائفة، بل هو رب العالمين:

وقد تسأل: ما الحكمة من ختم هذه الآية بهذه الجملة المباركة؟ وما المناسبة والاتصال؟

الجواب: هذه الجملة المباركة تذييل معترضة بين جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وجملة: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]؛ إذ قد تهيأ المقام للتَّذكير بفضل الله ﷻ على الناس، وبنافع تصرفاته، عَقِبَ ما أجرى من إخبار عن عظيم قدرته، وسعة علمه، وإتقان صنعه(١).

فإن قلت: ما معنى كلمة: ﴿تَبَارَكَ﴾؟ وما وجه قوَّة التعبير عنها في هذا الموضع؟

الجواب:

﴿تَبَارَكَ﴾(٢): من (بَرَكَ) وهي كلمة تدلُّ على ثَبَات الشَّيءِ، فيقال: بَرَكَ البَعِيرُ يَبْرُكُ بُرُوكًا، عندما يقع على الماء من حرِّ الشَّمس أو الشِّبَع، كما قالوا:

بَـرْكٌ هُـجُـودٌ بِـفَـلَاةٍ قَـفْـرِ أَحْمَى عَلَيْهَا الشَّـمْسَ أَبْتُ الْحَرِّ(٣)

ولذا يقول العرب: «هَذَا أَمْرٌ لَا يَبْرُكُ عليه إبلي»، أَي: لَا أَقربُهُ ولا أَقْبَلُهُ.

وسمِّي محبس الماء بِرْكَة، فإذا حبس الماء ملأت الحياة ما حواليه، فكأن ثبات الماء، وخيراته الذَّاتيَّة تَهَبُ الحياة لمن حواليه في الناس والأرض والزَّرع والأحياء، فالماء ثابت في

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٠).

(٢) ينظر: مقاييس اللغة (١/ ٢٢٧-٢٣١)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١١٩، ١٢٠)، تاج العروس (٢٧/ ٥٧-٧٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٠٩-١١٠).

(٣) الرجز بلا نسبة في: مقاييس اللغة (١/ ٢٢٨)، الْأَبْتُ: شِدَّةُ الْحَرِّ بِلَا رِيحٍ.

البِرْكة، لكن خيراته تفيض على الحياة، وابْتَرَكَتِ السحابةُ: اشتدَّ انْهلالُها وأَلَحَّتْ بالمطر، وابْتَرَكَتِ السَّماء وأَبْرَكتْ: دام مطرها.. فلم يلاحظوا في اللفظ معنى الدَّوام فقط، وإنما شِدَّة الخيرات وكثرتها وتنوعها بناء على هذا الانهلال.

ولاحظ الدكتور محمد حسن جبل رحمه الله أمرًا آخر غير الثبات والدَّوام والنُّمُوِّ للغير، وهو اللُّطف المصاحب لثبات الخيرات، فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠] أي: جعلها ثابتة دائمة، تقوم عليها الحياة؛ ماءً وهواءً، وخيراتٍ وكنوزًا، لا ينقطع مَدَدُها عن الإنسان مع إلحاحه في استخراجها كالنَّباتات وثمارها، والمعادن، وسائر الخيرات الأرضية.

ومن هنا قالوا: البَرَكَةُ: ثبوت الخير الإلهيِّ في الشَّيء، ثم نظروا إلى إفاضة الحياة حولها، فقالوا: هي الزِّيَادَةُ وَالنَّماءُ، وَالتَّبْرِيكُ: أَنْ تَدْعُوَ بِالْبَرَكَةِ. وبذا جمعت الْبَرَكَةُ ثلاثة أمور:

١) الْبَقَاءُ.

٢) وَالثَّبَاتُ.

٣) وكَثْرَةُ الْآثَارِ الْفَاضِلَةِ وَالنَّتَائِجِ الشَّرِيفَةِ وسريان الخيرات من الأصل إلى الغير، واللُّطف في ظهور هذه الآثار.

وبذا يكون قول الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] تَمْجِيدًا وَتَجْلِيلًا، ويكون معناها:

اللهُ تَعَالَى هو الثابت الدَّائم الباقي قاضي الحاجات، إليه الملتجأ، وهو الذي يبثُّ الحياة والخيرات، ويثبتها، ويزيدها، وينميها، وهو ربُّ العالمين جميعًا، فعنه صدرت كلُّ هذه المخلوقات والحياة، فالمخلوقات التي ذكرها أمثلة بارزة فقط، فقد خلق عوالم لا يمكن إحصاؤها، ولا يقوى الخلق على الإحاطة بها.

وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ، فثبَتَ أمره ثُبُوتًا، ولا ثُبُوتَ في الحَقِيقَةِ لشيء سواه، مَعَ اليُمْنِ والبَرَكَةِ، وكَثْرَةِ الآثارِ الفاضِلَةِ والنَّتائِجِ الشَّرِيفَةِ، وثبتت الخيرات التي تصدر عن الله ﷻ، ودامت، وتنوعت، وانبثقت عنها الحياة، فهذا التَّعبير تمجيد لله ﷻ يُنَوِّه بعطائه الدَّائم خَلْقًا ورِزْقًا، وربوبية وهدايةً.

وَتفسيره على معنى: (تَعَالَى اللهُ) خطأ، فبين المعنيين فرق.

وهنا نسأل: ما الحكمة من إعادة اسم الجلالة، حيث قال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يقل مباشرة: تبارك رب العالمين؟

الجواب: هذا الذي يسمِّيه البلاغيُّون: الإظهار في موضع الإضمار، فأعاد ﷻ ذكر اسمه المعظَّم ﴿ٱللَّهُ﴾؛ تمجيدًا لاسمه العظيم، فهو الذي أفاض نِعَم الإيجاد، والإعداد، والإمداد، والهداية، والإرشاد. فجمع بين ألوهيته وربوبيته في موضع الخلق والأمر والخالق لهذه الأجرام العملاقة الآمر لما فيها من شؤون لابد أن يكون هو الإله الرب دون غيره. فبدأ في أول الآية بإثبات ألوهيته وربوبيه على الكون وختم بتأكيد إثباتها بعد أن دل العالم المشهود على الإله الرب المعبود.

فالله ﷻ هو الذي تنبثق عنه الحياة، والْآثَار الْفَاضِلَة، فكُلُّ الْخَيْرَاتِ مِنْهُ، وَكُلُّ الْكَمَالَاتِ فَائِضَةٌ مِنْ وُجُودِهِ وَإِحْسَانِهِ، فَلَا خَيْرَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا إِحْسَانَ إِلَّا مِنْ فَيْضِهِ، وَلَا رَحْمَةَ إِلَّا وَهِيَ حَاصِلَةٌ مِنْهُ، فَلَمَّا كَانَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لَيْسَ إِلَّا مِنْهُ، لَا جَرَمَ كَانَ الثَّنَاءُ الْمَذْكُورُ بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] لَا يَلِيقُ إِلَّا بِكِبْرِيَائِهِ، وَكَمَالِ فَضْلِهِ، وَنِهَايَةِ جُودِهِ وَرَحْمَتِهِ[1].

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٢).

جمال السَّبك وقوَّة الحبك والاتِّصال بين جمل الآية الثَّمان:

في قول ربِّنا ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤] **توجد ثمان جمل فما العلاقة بينها؟ وكيف تظهر قوَّة الآية وجمال بيانها؟**

الجواب:

الأولى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ الأول بالله ﷻ، وهو أن الذي يستحقُّ أن يكون ربًّا لنا اسمه الله ﷻ.

الثانية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ الثاني، وهو أنه خلق المكان، فإذا أردت الدَّليل على إلهيَّة الله ﷻ، فيكفي أن تنظر إلى خلق السَّموات والأرض، وهنا يبيِّن الله ﷻ لنا الدَّليل القاطع على ألوهيته، فلا يمكن لمن يعبد الله بحقٍّ إلا أن يستسلم له.

الثالثة: ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ الثالث، وهو المدَّة التي خلق الله فيها المكان.

الرابعة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ الرابع، وهو أنه ﷻ فوق المكان، فقد استوى على العرش العظيم، استواء يليق بعظمته وجلاله، والعرش خارج المكان (السَّموات والأرض)، فمعنى ذلك: لا يتقيَّد الله ﷻ بقوانين المكان ﷻ.

الخامسة: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ الخامس، وهو أنه ﷻ يدير الزمان، ولا يديره إلا أن يكون هو خالقه ﷻ.

السادسة: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾:

تبيِّنُ لنا المَعْلم التَّعريفيَّ السادس، وهو أنه ﷻ يدير كلَّ المخلوقات الكبرى في نظامٍ تجري عليه بأمره، فما بالك بالمخلوقات الصغرى؟

السابعة: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾:

توضِّح لنا المَعْلم التَّعريفيَّ السابع: وهو أن الخلق الحقيقي مِلكٌ له، فلا يمكن لأحد غيره أن يخلق خلقًا حقيقيًا، وأن الأمر التَّكوينيَّ والتَّشريعيَّ العامَّ لهذه المخلوقات مِلكٌ له، فلا يمكن لأحد غيره أن يأمر.

الثامنة: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

توضِّح لنا المَعْلم التَّعريفيَّ، وهو أنه تبارك، أي هو الواحد الباقي الدَّائم الذي تتكاثر أفعاله ومخلوقاته دون أن تفنى أو تقلَّ قوَّته وعطاياه، وأنه ربُّ العالمين، فالمخلوقات التي ذكرها أمثلة فقط.

ولذا كان لهذه الآية فضلها العظيم، فعَن عبد الله بن بُسْرٍ ﷺ قَالَ: خرجت من حمص فآواني اللَّيْل إِلَى البُقَيعة[1]، فحضرني من أهل الأَرْض، فَقَرَأت هَذِه الْآيَة من سُورَة الأعراف ﴿إِنَّ

(١) قال الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ٢٨٨): «الأصل: (البيعة)، وفي نقل الناجي (البقعة) وقال: في أكثر نسخ الترمذي (البيعة) بكسر الموحدة وإسكان الياء الأخيرة، بعدها عين ثم هاء التأنيث، وهو وهم وتصحيف بلا شك، وإنما الصواب ولفظ الطبراني وغيره (البقيعة) بضم الوحدة وفتح القاف وإسكان الياء بعدها عين ثم هاء التأنيث، تصغير (بقعة)، وهي اسم علم لبقعة هناك معروفة ذات ماء وسواقٍ، حولها بقاع متجاورات بينها وبين حمص أقل من يومين».

رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ... ﴿٥٤﴾ إِلَى آخر الْآيَة، فَقَالَ بَعضهم لبَعض: احرسوه الْآن حَتَّى يصبح، فَلَمَّا أَن أَصبَحت ركبت دَابَّتي[1].

ثم قال الله ﷻ: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] فما المَعْلم التَّعريفيُّ الذي تقدِّمه لنا هذه الآية؟

الجواب: هنا يأتي الـمَعْلَمُ التَّعريفيُّ التاسع.

(١) الآحاد والمثاني لابن أبي عاصـم (١٣٥٢)، وفي الترغيب والترهيب للمنذري (٤/ ٤٣) قال: «رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ، وَرُوَاته رُوَاة الصَّحِيح إِلَّا الْمسيب بن وَاضح»، وزاد الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠١٥): «وهو ضعيف، وقد وُثِّق».

المَعْلَم التَّعريفيُّ التاسع: دعاؤه ﷻ يعرِّفنا به؛ ونحن ندعوه لأنَّ مَنْ له الخلق والأمر، وهو الذي تبارك وتعالى سيكون أمره نافذًا في الخلق قادرًا على تغيير الواقع بما يطلبه الدَّاعي ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٤]:

المناسبة والاتصال:

ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبق؟

الجواب: ذكر الله ﷻ لنا ثمانية معالم تعرِّفنا به في الآية السَّابقة، وبيَّن هنا مَعْلمًا جديدًا من معالم التَّعريف به، وهو مَعْلم اقتضته المعارف التي ظفرنا بها في الآية السَّابقة، فلما أخبرنا عن عظمته تبارك ربُّ العالمين.. أخبرنا عن مجده وجلاله وكماله وقوَّته.. وبعد تلك الصُّورة الهائلة التي صورتها الآية السَّابقة في خلق المكان والزَّمان، وتسخير الكون بأمر الله ﷻ.. يهتزُّ وجدانك لصور الأكوان التي رسمتها لك الآية السَّابقة، وهي خاضعة خاشعة تخضع لربِّها ﷻ وتجري بأمره، وببركة الله ﷻ تتبارك خيراتها، وتستمرُّ حركتها.. هنا يحدوك الشَّوقُ والافتقار والحاجة للجوء إلى الله ﷻ الذي خلق الزَّمان والمكان وأدارهما، والتَّضرع بين يديه، فيقرِّبك الله ﷻ منه، ويقرِّب منه كلَّ الإنسانيَّة، فيقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾.

وهنا سنسأل: في قول الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ اختار الله ﷻ لفظ (الدُّعاء) في التَّوجُّه إليه والتَّضرُّع بين يديه دون أن يختار لفظة أخرى، فما الحكمة من هذا التخصيص لهذه اللَّفظة؟

الجواب: لا توجد كلمة تحلُّ محلَّ كلمة: ﴿ٱدْعُواْ﴾، فهي كلمة مشتقة من (دَعَا) ومعناها: أَنْ تُمِيلَ غيرك إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وَكَلَامٍ يَكُونُ مِنْكَ، فتجذبه نحوك، والعرب تقول: دَعَوْتُ أَدْعُو دُعَاءً، وَدَاعِيَةُ اللَّبَنِ: مَا يُتْرَكُ فِي الضَّرْعِ لِيَدْعُوَ مَا بَعْدَهُ، وَتَدَاعَتِ الْحِيطَانُ، وَذَلِكَ إِذَا سَقَطَ

وَاحِدٌ، وَآخَرُ بَعْدَهُ، فَكَأَنَّ الْأَوَّلَ دَعَا الثَّانِيَ، ومنه: تداعى القوم: دعا بعضهم بعضًا حتى يجتمعوا(١).

الدُّعاء استدعاء للخيرات والحاجات، وتحقيقٌ للمطلوبات بإظهار الافتقار الأعظم إلى الرَّحيم الملك الغفَّار، الذي بيده خزائن كلِّ شيء، ولعظمته ذلَّ كلُّ شيء، وبيده يصرف أسباب كلِّ شيء.

والدُّعاء استدعاء لقضاء المآرب، وتحقيق الهدف، وفيه ترى أنَّ الدَّاعي يجذب المدعوَّ ليحقِّق غرضه، وقد يصحبه استغاثة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠-٤١]، تنبيهًا أنَّكم إذا أصابتكم شدَّة لم تفزعوا إلَّا إليه. وقد اختزل النَّبيُّ ﷺ العبادة في الدُّعاء، فقال: «الدُّعاء هو العِبادَةُ»(٢)؛ لما تحمله هذه المناجاة من جوامع العبادة حضورًا وخشوعًا وقنوتًا وذلَّة.

فأمر الله ﷻ عباده أن يتعرَّفوا إليه بأن يدعوه، أي: أن يقصدوه بالسُّؤال ليقضي حاجاتهم، ويحقِّق رغباتهم، ويوجد مطلوباتهم، ويبيِّن النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا أحد سبل التَّعرُّف إلى الله ﷻ، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا غُلامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ؟» فَقُلْتُ: بَلَى. فَقَالَ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ،

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٢/ ٢٨٠)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣١٥)، تاج العروس (٣٨/ ٤٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٦٥٥).

(٢) أحمد (١٨٣٨٦)، وقال الأرناؤوط: «إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير يُسَيع الكندي ... فقد روى له البخاري في "الأدب المفرد" وأصحاب السنن، وهو ثقة»، وصحَّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٢٦٥).

تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»[1].

وستسأل: لماذا أظهر الله ﷻ وصفه بالرُّبوبيَّة مع وجود معادٍ قريب له، فقال: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾، مع أنه قال قبله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وكان يمكن أن يقول: ﴿ادعوه﴾؟

الجواب: هذا الإظهار في موضع الإضمار لأنَّه أعظم تمجيدًا، وأجلُّ تأثيرًا في القلوب، وأوقع في إضاءة السُّبُل والدُّروب، فأظهر الله ﷻ كلمة ﴿رَبَّكُمْ﴾؛ لما يحويه لفظ الرَّبِّ من إشعار العالم بتربية الله ﷻ لهم، وإصلاحه لأحوالهم، وعنايته بأوضاعهم، ولتشريفهم بإضافتهم إلى وصف الرُّبوبيَّة، كما أن الإظهار مشعرٌ بالقرب، فمن تدعونه قريب منكم ظاهر بآثاره وإجابته لكم، فأنتم لا تدعون غائبًا بعيدًا، وإنما قريبٌ أقرب إليكم من حبل الوريد.

فإن قلت: لمن يتوجَّه الخطاب في قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾؟

الجواب: ذهب ابن عاشور رحمه الله إلى أنَّ الخِطاب بِـ﴿ٱدْعُواْ﴾ خاصٌّ بِالمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّهُ تَعْلِيمٌ لِأَدَبِ دُعاءِ اللهِ تَعالى وعِبادَتِهِ، ولَيْسَ المُشْرِكُونَ بِمُتَهَيِّئِينَ لِمِثْلِ هَذا الخِطابِ، وهو تَقْرِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وإدْناءٌ لَهم وتَنْبِيهٌ عَلى رِضَى اللهِ عَنْهم ومَحَبَّتِهِ، وشاهِدُهُ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى المُسْلِمِينَ بِقَرِينَةِ السِّياقِ.

والذي يظهر لي أن الخطاب للمسلمين في المقام الأول، ولكنه يشمل غيرهم؛ إذ الدُّعاء عبادة عامَّة، وقد ذكر الله ﷻ أن المشركين يدعونه في النَّوازل والنائبات مخلصين له الدِّين،

---

(١) أحمد (٢٨٠٣)، وصححه الإمام عبد الحق في الأحكام الوسطى (٤/ ٢٨٥)، وقال الأرناؤوط: «حديث صحيح، وهذا الحديث رواه أحمد عن شيخه أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد المقرئ بثلاثة أسانيد الأخير منها متصل، والأول والثاني فيهما انقطاع، ولم يميز لفظ بعضها من بعض».

ويستجيب لهم، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: المشركين ويشمل المسلمين ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فقوله: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الأعراف: ٥٤] خطابٌ للمشركين كما هو خطابٌ للمسلمين، وأما قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فهذا نوعٌ من التَّدرُّج في تربيتهم، فإذا دعا المشركون الله ﷻ فإنهم يئنون بين يديه، ويجأرون إليه، ويعرفون أنه لا يقضى حاجاتهم إلَّا هو، ولا ينقذهم من نكباتهم إلا هو جلَّ في علاه. عند ذلك نثير عندهم هذا، فنقول لهم: الدُّعاء يعرِّفكم بإلهكم الحقِّ، فينبغي أن تبحثوا ما الدِّين الذي يرتضيه، فإن كانوا صادقين قرَّبهم هذا المعنى إلى الإسلام، فأسلموا.

هنا يطرح بعض المشكِّكين، وطالبي العلم السؤال الذي طرحه الرَّازيُّ رحمه الله: إذا كان ما تريده أن يتحقَّق بالدُّعاء قد كَتَب الله ﷻ أنه سيتحقَّق، فلماذا تدعو؟ وإذا كان لن يتحقق فلماذا تدعو أيضًا؟

الجواب:

نعم! هذا سؤال يتكرَّر، بل يأتي الذين تكاثرت عليهم الشُّبَه بطريقة أخرى ليزيدوا الإثارة، ويناصروا الشَّيطان، ويصرفوا الناس عن الدُّعاء، فيقولون: الْمَطْلُوب بِالدُّعاء إِنِ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ إِعْطَاءَهُ، فَهُوَ تَعَالَى يُعْطِيهِ مِنْ غَيْرِ هَذَا الدُّعاء؛ لِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يَكُونَ بَخِيلًا؛ وَإِنِ اقْتَضَتِ الْحِكْمَةُ مَنْعَهُ، فَهُوَ لَا يُعْطِيهِ سَوَاءٌ أَقدَمَ الْعَبْدُ عَلَى الدُّعاء أَوْ لَمْ يُقْدِمْ عَلَيْهِ، وينقل الرَّازيُّ رحمه الله عن تشكيكاتهم أنهم يقولون: الدُّعاء يُشْبِهُ مَا إِذَا أَقْدَمَ الْعَبْدُ عَلَى إِرْشَادِ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ إِلَى فِعْلِ الْأَصْلَحِ وَالْأَصْوَبِ، وَذَلِكَ سُوءُ أَدَبٍ، أَوْ أَنَّهُ يُنَبِّهُ الْإِلَهَ عَلَى شَيْءٍ مَا كَانَ مُنْتَبِهًا لَهُ، وَذَلِكَ كُفْرٌ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَصَّرَ فِي الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، فَأَنْتَ بِهَذَا تَحْمِلُهُ عَلَى الْإِقْدَامِ عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْفَضْلِ، وَذَلِكَ جَهْلٌ.

وذكر الرَّازيُّ رحمه الله شُبَهًا أخرى نحو هذه ممَّا سببه الجهل وضعف المعرفة، أو حبُّ المجادلة[1].

والجواب عن هذه الأسئلة بيانه بإيجاز على النحو الآتي:

أولًا: (الدُّعاء هو العبادة)، وفيه لذَّة المناجاة، وكمال القرب، وإظهار الافتقار، والانكسار بين يدي الجليل القادر، بل إن الدُّعاء يعدُّ أجلَّ أنواع العبادة، فكما تصلي وتزكِّي وتصوم وتحجُّ كذلك يجب أن تدعو بغضِّ النَّظر هل يُستجاب لك أم لا؟ يكفيك شرف التوفيق، بجريان الدُّعاء على قلبك ولسانك، وهو توفيقٌ عزيزٌ قلَّ من يفطنُ له.

الدُّعاء عبادة في ذاتها تُكسِب المرء شعورًا لذيذًا بذِلَّةِ العُبُودِيَّةِ، وإحساسًا براقًا بعِزَّةِ الرُّبوبيَّة، هناك تشرق الأنوار، وتَظْهَر على القلوب ما تعطيه الأسرار، حيث يقف العبد مناجيًا ربَّه عز وجل، طالبًا وصله، مخاطبًا له في أعلى درجات القرب.

يا مَنْ عليه اعتمادِي ... في الأمرِ جُزءًا وكُلَّا
بكَ اهْتديتُ ومَنْ لَمْ ... يَرجُ الهُدى منكَ ضَلَّا
بكَ اعْتززتُ ومَنْ لَمْ ... يعتزَّ بالله ذَلَّا
بكَ اغْتنيتُ ومَنْ لا ... تُغْنِيهِ صَار قُلَّا
مَنْ يَخْتَرِ اللهَ يَخْتَرْ ... عيشَ المليكِ الأَجَلَّا
ومَنْ تولَّى سواه ... يَوَلِّه ما تَوَلَّى
قد فارقَ الشَّهدَ صَفوًا ... مُستَبدِلًا منهُ خِلَّا

(١) ينظر: تفسير الرازي (١٤/ ٢٧٩).

وَسُئِلَ أحمد بن سهل بن عطاء رحمه الله: مَا الْعُبُودِيَّةُ؟ قَالَ: تَرْكُ الِاخْتِيَارِ، وَمُلَازَمَةُ الِافْتِقَارِ[١]، فقَوْلُهُ تَعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ يدفعك إلى أن تُظهِر أعظم الفقر أمام مَنْ له الغنى الكامل لتجد أشرف الغنى، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «ليس شيءٌ أكْرَمَ عَلى اللهِ مِنَ الدُّعاء»[٢]، وقال ﷺ: «الدُّعاء هو العِبادَةُ»، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠][٣].

ثانيًا: الدُّعاء مثله مثل بقيَّة العبادات: وهذا جواب جامع فاصل أجاب به الرَّازيُّ رحمه الله فقال: «الدُّعاء نَوْعٌ مِن أنْواعِ العِبادَةِ، والأسْئِلَةُ المَذْكُورَةُ وارِدَةٌ في جَمِيعِ أنْواعِ العِباداتِ، فَإنَّهُ يُقالُ إنْ كانَ هَذا الإنْسانُ سَعِيدًا في عِلْمِ اللهِ فَلا حاجَةَ إلى الطَّاعاتِ والعِباداتِ، هكذا يقول الشياطين وإنْ كانَ شَقِيًّا في عِلْمِهِ فَلا فائِدَةَ في تِلْكَ العِباداتِ، فلماذا تحتاج أن تصلي والله تعالى غنيٌّ عن عبادتنا!، ولماذا نصوم والله غنيٌّ عن أن يجيعنا!»[٤].

ثالثًا: الدُّعاء يغيِّر القَدَر الذي كُتِب، فيما عدا ما كُتِب في أمِّ الكتاب، فصار الدُّعاء من القَدَر، فعندما حثَّنا الله ﷻ على الدُّعاء فإن إجابتنا لذلك قَدَرٌ، وعدم إجابتنا قَدَرٌ؛ لأننا لم نطَّلع على ما هو مكتوب في اللَّوح المحفوظ أو في المكان الذي كتبت فيه الأقدار، فقد يكون كُتب: فلان دعا فأجاب الله ﷻ دعاءه، وغيَّر حالَه، وفلان دعا فأجاب الله ﷻ دعاءه، ولم يغيِّر حالَه في الدنيا، بل أعطاه الله ﷻ مقابل دعائه في الآخرة، وفلان دعا فأجاب الله ﷻ دعاءه ولم يغيِّر

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١٠/ ٣٠٤).

(٢) أحمد (٨٧٤٨)، وقال الأرناؤوط: «إسناده قابل للتحسين من أجل عمران -وهو ابن داور القطان-، وباقي رجاله ثقات رجال الصحيح»، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد (ص: ٢٦٥).

(٣) سبق تخريج الحديث.

(٤) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٠).

قدَرَه في الدُّنيا لكنه صرف عنه مكروهًا يكافئ الدُّعاء الذي دعا به، فلا يحتجَّ إنسان بهذه الحجَّة الواردة في السُّؤال، فإنَّ الدُّعاء جزء من القَدَر، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ»[1].

هكذا يقذف الشَّياطين عبث الكلام، ولنضرب مثالًا نزيل به هذا الرُّكام الباطل من الأقوال، فالإنْسانُ لماذا يُقْدِمُ عَلى أكْلِ الخُبْزِ وشُرْبِ الماءِ؟

فإنْ كانَ هَذا الإنْسانُ شَبْعانَ في عِلْمِ اللهِ تَعالى فَلا حاجَةَ إلى أكْلِ الخُبْزِ، وإنْ كانَ جائِعًا فَلا فائِدَةَ في أكْلِ الخُبْزِ!، وكَما أنَّ هَذا الكَلامَ باطِلٌ هَهُنا، فَكَذا فِيما ذَكَرُوهُ.

وكذلك الرِّزق والبحث عن المال: فإن كنت ستكسب المال في علم الله ﷻ، فلا داعي للحركة، وإن كنت لن تكسب فما الدَّاعي للحركة!، وهذه أوهام، بل يجب أن تتحرَّك لتكسب، وكذلك يجب أن تستغفر ليغفر الله ﷻ لك، وكذلك يجب أن تدعو الله ﷻ ليتحقَّق لك ما يترتَّب على الدُّعاء.

تَـقُـولُ مَـعَ الـعِصْـيـانِ رَبـي غَـافِـرٌ ... صَـدَقْـتَ وَلَكِنْ غَـافِرٌ بِـالمَشِـيْئَـةِ
وَرَبُّـكَ رَزَّاقٌ كَـمـا هـو غَـافِـرٌ ... فَلِمْ لَمْ تُصَـدِّقْ فِيْهِمَا بِـالسَّـوِيَّـةِ
فـإنـك ترجـو الـعفـوَ مـن غـيـرِ تـوبـةٍ ... وَلَسْـتَ تُـرجِّـي الـرِّزْقَ إلاَّ بِـحِـيْـلَـةِ
عـلـى أَنَّـه بـالـرِّزْقِ كـفَّـلَ نَـفْسَـهُ ... لـكـلٍّ، ولـم يـكـفـل لـكـلٍّ بـجـنَّـةِ
فلم ترضَ إلا السَّـعيَ فيما كُفِيتَهُ ... وإهـمـالَ مَـا كُـلِّـفـتَـهُ مِـن وَظِـيْـفَـةِ[2]

(١) البخاري (٢٢١٩).

(٢) ديوان ابن أبي بكر المقري اليمني (ص: ٦٣).

رابعًا: الدُّعاء تدريبٌ للعبد على طلب الكمال، ودفع له ليطلب تغيير ما في حياته من الأحوال، فهو لصالح العبد المحدود العلم والقدرة، وأمَّا الملك العظيم ﷻ، فهو يعلم أحوال العبد إن دعا أو لم يدع، فلا يورد العبد الأسئلة على ربِّه ﷻ فيما يتعلَّق بأفعال ربِّه ﷻ، بل ينظر العبد إلى نفسه فيما يتعلَّق بأحوال نفسه، ولا يعتذر الإنسان بكثرة أشغاله، فعن مُجَاهِدٍ رحمه الله، قَالَ: «يُؤْتَى بِثَلَاثَةِ نَفَرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: بِالْغَنِيِّ، وَبِالْمَرِيضِ، وَالْعَبْدِ، فَيَقُولُ لِلْغَنِيِّ: مَا مَنَعَكَ عَنْ عِبَادَتِي؟ فَيَقُولُ: أَكْثَرْتَ لِي مِنَ الْمَالِ فَطَغَيْتُ، فَيُؤْتَى بِسُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ عليه السلام فِي مُلْكِهِ، فَيُقَالُ لَهُ: أَنْتَ كُنْتَ أَشَدَّ شُغْلًا أَمْ هَذَا؟ قَالَ: بَلْ هَذَا، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْهُ شُغْلُهُ عَنْ عِبَادَتِي، قَالَ: فَيُؤْتَى بِالْمَرِيضِ، فَيَقُولُ: مَا مَنَعَكَ عَنْ عِبَادَتِي؟ قَالَ: يَا رَبُّ أُشْغِلْتُ عَلَى جَسَدِي، قَالَ: فَيُؤْتَى بِأَيُّوبَ عليه السلام فِي ضُرِّهِ فَيَقُولُ لَهُ: أَنْتَ كُنْتَ أَشَدَّ ضُرًّا أَمْ هَذَا؟ قَالَ: فَيَقُولُ: لَا، بَلْ هَذَا، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْهُ ذَلِكَ أَنْ عَبَدَنِي، قَالَ: ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَمْلُوكِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَا مَنَعَكَ مِنْ عِبَادَتِي؟ فَيَقُولُ: جَعَلْتَ عَلَيَّ أَرْبَابًا يَمْلِكُونِي، قَالَ: فَيُؤْتَى بِيُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السلام فِي عُبُودِيَّتِهِ فَيُقَالُ: أَنْتَ أَشَدُّ عُبُودِيَّةً أَمْ هَذَا؟ قَالَ: لَا، بَلْ هَذَا، قَالَ: فَإِنَّ هَذَا لَمْ يَشْغَلْهُ شَيْءٌ عَنْ عِبَادَتِي»[1].

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢٨٨).

آداب الدُّعاء التي تحبونا بها هاتان الآيتان:

آداب الدُّعاء التي تحبونا بها آيتا {الأعراف: ٥٤، ٥٥}

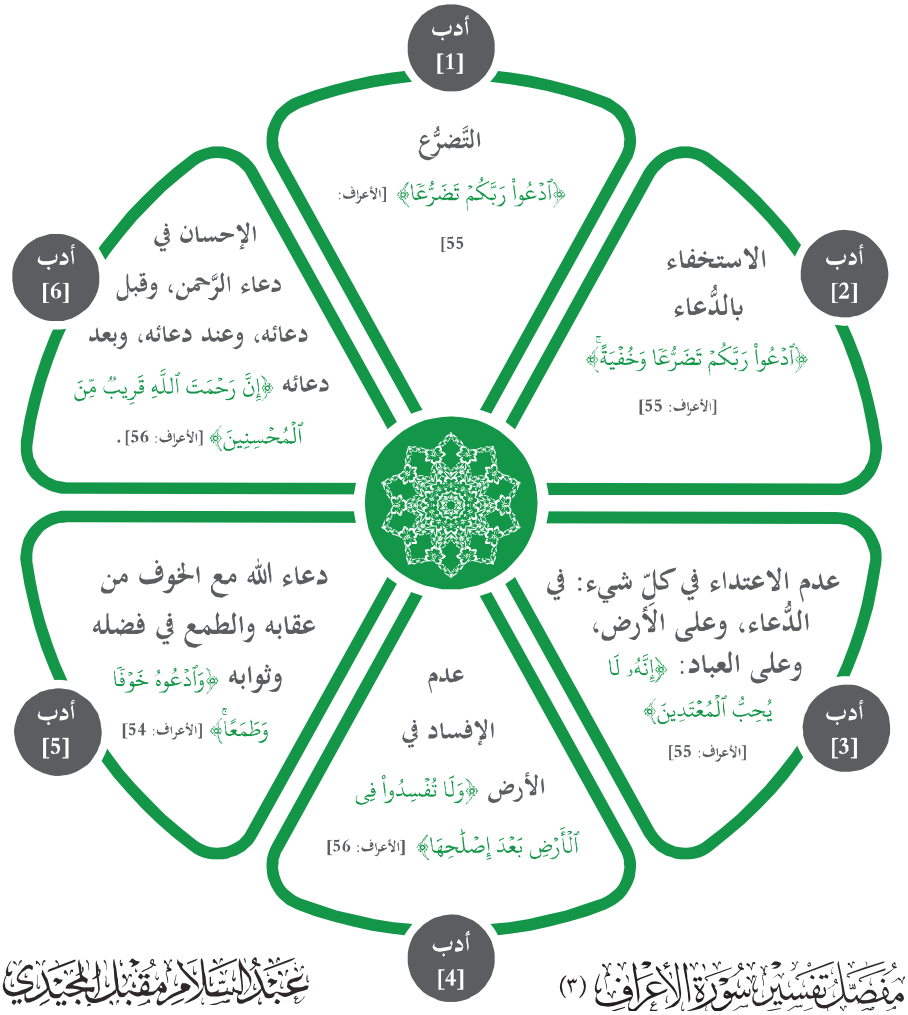

نعود إلى قول الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، والآية التي بعدها: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، حيث ذكر الله ﷻ في كلماتٍ قليلةٍ تكوَّنت منها هاتان الآيتان أهمَّ آداب الدُّعاء لتتحقَّق الإجابة في كلام وجيزٍ لا يحتاج معه إلى غيره إلَّا من باب التَّفصيل، فما هذه الآداب؟

الجواب: تضمَّنت هاتان الآيتان ستَّة آداب، تفصيلها كما يأتي:

الأدب الأول: التَّضرُّع ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا﴾ [الأعراف: ٥٥]:

﴿تَضَرُّعًا﴾: حال، أي: حال كونكم متضرِّعين، وانظر لجمال هذه الكلمة وقوَّتها في وصف جمال حال الصَّالح الذي يدعو ربَّه ﷻ، فكلمة: (تضرُّع)[1]: تفعُّلٌ من الضَّراعة، وهي كلمة تدُلُّ عَلَى لِينٍ ورخاوة مع تقارب ودنوٍّ، فهِيَ مَصْدَرُ ضَرَعَ كَخَشَعَ، إِذَا ضَعُفَ وَذَلَّ، وَتَلَوَّى وَتَمَلْمَلَ، ليس من الملل، وإنما من الشُّعور بالضَّعف والحاجة، فيقال: ضَرَعَ الوَلَد والبَكْر: نَحُفَ وضَوِيَ جسمه (كما نقول: خَسَّ) فهو ضَارِعٌ. والضَرَع -محركة: الصَّغيرُ السِنُّ الضَّعيف، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي ابْنَيْ جَعْفَرٍ: «مَا لِي أَرَاهُمَا ضَارِعَيْنِ؟»[2] أي: ضعيفين، ومِنْ ذَلِكَ: ضَرَعَ فُلانٌ لِفُلانٍ، إذا أظْهَرَ الذُّلَّ لَهُ فِي مَعْرِضِ السُّؤالِ.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٩٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٠٦)، تاج العروس (٢١/ ٤٠٥)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٣/ ١٢٨٥٢).

(٢) موطأ مالك رواية مصعب الزهري (٢/ ١٧)، قال الزرقاني في شرح الموطأ (٤/ ٥١٠): «معضل، وَرَوَاهُ ابْنُ وَهْبٍ فِي جَامِعِهِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ خَالِدٍ بِهِ مُرْسَلًا، وَجَاءَ مَوْصُولًا مِنْ وُجُوهٍ صِحَاحٍ عِنْدَ أَحْمَدَ، وَالتِّرْمِذِيِّ، وَابْنِ مَاجَهْ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ».

بصيرة: التَّضرُّع تفعُّل يقتضي أن يتكلَّف الدَّاعي الضَّراعة، ويبالغ فيها، ويظهرها لإظهار مقدار حاجته أمام من بيده مقاليد كلِّ شيء، ورغبته فيمن بيده خزائن كلِّ شيء، ومسغبته أمام من يُطعِم ولا يُطعَم، وذلَّته أمام العزيز، وفقره أمام الغنيِّ، وضعفه أمام القويِّ.

فمعنى: ﴿تَضَرُّعًا﴾: أي تذلُّلا وتخشُّعًا واستكانة لطاعته، وإظهارًا عظيمًا لشِدَّة الضَّعف والحاجة.

والتَّضرُّع: كلمة تدلُّ على المقدار الهائل الذي ينبغي أن يظهره العبد من الافتقار إلى الله ﷻ والاحتياج إليه، كاحتياج الطِّفل إلى ضرع أمِّه، وعندما ترى الصَّغِير مِنَ الْحَيَوَانِ وَالْإِنْسَانِ وهو يُقْبِلُ على ضرع أمِّه محتاجًا أشدَّ الاحتياج، متذلِّلًا أشدَّ التَّذلُّل، صارخًا أقصى درجات الصُّراخ متألِّمًا أشدَّ الألم إن تأخَّر عنه الرَّضاع، حينها تدرك قوَّة ما تفيده لفظة: ﴿تَضَرُّعًا﴾ هنا؛ وَلِذَلِكَ خَصَّ الله ﷻ اسْتِعْمَال التَّضَرُّعِ فِي التَّنْزِيلِ بِمَوَاطِنِ الشِّدَّةِ، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

فالعبد المتضرِّع هو الذي يُظهر الضَّعف، والذُّل، والخشوع، والخضوع، والدُّنوَّ من ربِّه ﷻ وعظمة الحاجة إليه.

بالتَّضرُّع يُظهر العبد فقرَ نفسِه، ويظهر ضعفه أمام ربِّه ﷻ، ويشاهد كمال مولاه العظيم.. كماله في علمه، وقدرته، ورحمته، وعطائه، وهِبَاته، وجوده، وكرمه، ولا بدَّ أن يصحب التَّضرُّعَ الإخلاصُ، فكيف يكون متضرِّعًا من لم يكن مخلصًا؟!

وقد تسأل متدبِّرًا: ما الحكمة من ذكر التَّضرُّع في مقابلة الخفية؟ وهل يُفهم من هذا أنَّ التَّضرُّع يختصُّ بالدُّعاء جهرًا؟

الجواب: الظَّاهر أن التَّضرُّع يظهر بصورةٍ أقوى عندما يكون التَّذلُّل جهرًا، وذكر ذلك بعض المفسِّرين في هذه الآية، وفي قوله تعالى في سُورَةِ الأنْعامِ: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] فقالوا: التَّضرُّع: الجَهْر بِالدُّعاء؛ ولذا قابله بالخُفْية، كما قابل بين الخوف والطمع في قَوْلِهِ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وتَكُونُ الواوُ لِلتَّقْسِيمِ بِمَنزِلَةِ ﴿أوْ﴾، وقَدْ قالُوا: إنَّها فِيهِ أجْوَدُ مِن أوْ، وَمِنَ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ أبْقَى التَّضَرُّعَ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَهُوَ التَّذَلُّلُ، فَيَكُونُ مَصْدَرًا بِمَعْنَى الْحَالِ، أيْ: مُتَذَلِّلِينَ(١).

ستقول: أدركنا أن التَّضرُّع من آداب الدُّعاء، فلماذا ذكر الله ﷻ هذا الأدب مجدَّدًا في آخر هذه السُّورَة المباركة، حيث قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؟

الجواب: هذا سؤال جميل به تستبين عظمة القرآن ويفهم المرء أنَّ ما يظهر لنا بادي الرَّأي أنه تَكْرَار ليس بتكْرَار، فقد ذكر الله ﷻ التَّضرُّع سبع مرَّات في القرآن الحكيم: ثلاث منها في سورة الأنعام، ومثلها في سورة الأعراف، ومرة في سورة المؤمنون، وفي آخر سورة الأعراف قَالَ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، ليجمع لنا بين الهدى والرَّحمة في التَّربية القرآنيَّة، وليبيِّن لنا التَّعانق الدَّائري في علم الاتِّصال القرآنيِّ.. كيف ذلك؟

الهدى يدلُّنا على أعظم المفاهيم التي تربِّي الإنسانيَّة، والرَّحمة تقتضي تَكْرَار هذه المفاهيم حتى ترسخ في النَّفس البشريَّة الحرونة، **وهنا ذكر الله ﷻ التَّضرُّع في الدُّعاء، لكنه في آخر**

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧١).

السُّورَة ذكر التَّضرُّع في الذِّكر، والذِّكر أعمُّ من الدُّعاء؛ لأن الدُّعاء جزء من الذِّكر، فالذِّكر ثلاثة أنواع:

١) ذِكْر ثناء: مثل الآيات الأربع الأولى من سورة الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١-٤].

٢) ذِكْر دعاء: مثل الآية السَّادسة من سورة الفاتحة ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

٣) ذِكْر حاجة واستسقاء، أي: بيان للافتقار بين يدي العزيز الغفار ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤].

فذكر الله ﷻ التَّضرُّع في سياق الدُّعاء هنا، وذكره في سياق الذِّكْر عمومًا في آخر السُّورَة، فقال الله ﷻ: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف:٢٠٥]، فالتضرع لا بد أن يكون موجودًا في الدعاء؛ لأنه طلب الحاجة بينما يعلمنا الله في آخر السورة أن نصطحب التضرع حتى في الذكر المعتاد كأن نردِّد الباقيات الصَّالحات، فنقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله، فينبغي أن يظهر معها التَّضرُّع، ولا نكتفي بترديدها دون تضرع، وهذا أدب نغفل عنه كثيرًا.. اللهم وفقنا لذكرك على أحسن الوجوه.

ثم قال الله ﷻ: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ ما الحكمة من ذكر الله ﷻ الخفية بعد التَّضرُّع؟

الجواب: هذا هو:

الأدب الثاني: الاستخفاء بالدُّعاء ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]:

﴿تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾: نصب على الحال، أي: ادعوا ربكم حال كونكم ذوي تضرُّع وذوي خفاء عندما تدعونه، والخفية إما بضم الخاء أو بكسرها بمعنى واحد، وهما قراءتان صحيحتان(١).

(١) في الأنعام والأعراف، روى شعبة عن عاصم بكسر الخاء، وقرأ الباقون بضمها. ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٥٩).

وقد تسأل: ما الحكمة من ذكر الخفية بعد التَّضرُّع في هذه الآية الكريمة؟

الجواب: ناسب ذكر الخفية بعد التَّضرُّع مناسبة تامَّة؛ لأن التَّضرُّع يدلُّ على كمال الافتقار أمام الملك الرَّحيم الغفَّار، ولكن كمال الافتقار لا بدَّ أن يصحبه الإخلاص، ومن أعظم ما يعين على الإخلاص الاستخفاء، ولذلك قال النَّبيُّ ﷺ عندما ذكر السَّبعة الذين يظلُّهم الله ﷻ في ظلِّه: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[(١)]، أي في حالة خلوته، وكلمة رجل لا مفهوم لها، بل جاءت على سبيل التَّغليب والاكتفاء، والمراد: رجل أو امرأة، فذَكَر هنا الخفية حتى نربط الدُّعاء بالإخلاص، فيصون الإنسان نفسه عَنِ الرِّياءِ المُبْطِلِ لِحَقِيقَةِ الإخْلاصِ، فالخفية هنا الاستخفاء الذي هو السِّرُّ وليس العلن، ولا يعني هذا أنه إذا تضرَّع أو دعا علنًا فهو ملام، فهاهم الأنبياء عليهم السلام يدعون ويتضرَّعون أمام الخلائق، وقد دعا النَّبيُّ ﷺ في بدر، ورآه الناس يستغيث حتى سقط رداؤه، بل المقصود أنَّه لا بدَّ أن يكون للإنسان حظُّه من الدُّعاء خفية، فالشريعة مقرِّرة أنَّ السِّرَّ فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجرًا من الجهر[(٢)].

وكما قال ابن المُنَيِّر رحمه الله: «وإنَّ دعاءً لا تضرُّع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه»[(٣)].

فكلمة: ﴿خُفْيَةً﴾: تعني: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، كما يفعل أهل النفاق والخداع لله ولرسوله ﷺ، وقد وجدنا أن الله ﷻ أثنى على بعض أنبيائه عليهم السلام بأنهم يدعونه خفية، فقد أثْنى

---

(١) البخاري (٦٦٠)، مسلم (١٠٣١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، (٢/ ٤١٠) البحر المحيط، (٥/ ٦٨).

(٣) ينظر: حاشية رقم (١) الكشاف (٢/ ١١٠).

عَلى زَكَرِيَّا عليه السلام فَقالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٣] أيْ: أخْفاهُ عَنِ العِبادِ، وأخْلَصَهُ لِلَّهِ، وانْقَطَعَ بِهِ إلَيْهِ.

وهنا تجد الجلال والجمال حيث جمع الله ﷻ لك وهو يربِّيك على الدُّعاء بين:

١) أدب الظَّاهر الذي قال فيه: ﴿تَضَرُّعًا﴾، حيث يخضع الجسد، ويظهر الحاجة لله ﷻ.

٢) وأدب الباطن الذي قال فيه: ﴿وَخُفْيَةً﴾، وخُضُوع الباطِنِ، حيث تنزل الدَّمعة ولا يشعر من حولك بذلك، وبهذا يكتمل الإخلاص والإحسان في العبادة، فبالدُّعاء تضرُّعًا وخفية أظهرت عِزَّ الرُّبوبيَّة، وأبنت ذُلّ العُبُودِيَّةِ.

فنُّ الدُّعاء في مدرسة التَّضرُّع الأولى:

يبين أبو موسى الأشعري رضي الله عنه لنا كيف يربِّي النبي ﷺ على إخفاء التَّضرُّع واللُّجوء إلى الله ﷻ عندما لا يوجد مبرِّر تربويٌّ للجهر، فيقول: كان النَّبيُّ ﷺ في غَزَاة، فأشرفوا على وادٍ يكبِّرون ويهلِّلون ويرفعون أصواتهم، وفي لفظ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ)، (ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا بِالتَّكْبِيرِ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، إِنَّكُمْ لَيْسَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، وَهُوَ مَعَكُمْ»[(١)]، وقوله: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»، أي: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم، وفي لفظ: «إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ، وَتعالى جَدُّهُ»[(٢)].

---

(١) البخاري (٤٢٠٥)، مسلم (٢٧٠٤)، واللفظ له.

(٢) البخاري (٢٩٩٢).

ولا يعني هنا أن يخفوا التَّكبير، بل ألا يتعبوا أنفسهم بالجهر به، فيجهرون جهرًا مناسبًا، ولذلك فإن التَّكبير والتَّلبية متَّفق على الجهر بهما إلى أقصى حدٍّ في الحجِّ، فالنَّبيُّ ﷺ: «أفضل الحج العجُّ والثَّجُّ»(١)، فالعجُّ: رفع الصَّوت بالتلبية والتَّكبير ، والثَّجُّ: النَّحْر.

إن التَّربية على التَّضرُّع والخفية تتناسق مع التَّربية على الشُّعور بعظمة الله ﷻ وقُرْبه من العبد، ففي ظلِّ مشهد التَّضرُّع في الدُّعاء، وهيئة الخشوع والانكسار فيه لله ﷻ يشعر المرء بإحاطة الله ﷻ، وقربه، فهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، ومعيَّته لعبده، فهو الوليُّ الحميد، ونصرته لمن يستغيث به، فهو ذو العرش المجيد.

صور مشرقة في التَّربية على التَّضرُّع والخفية:

وضرب السَّلف الصالح أمثلة رائعة في الاستقامة على هذه الآية، فعَنِ الْحَسَنِ رحمه الله قَالَ: «إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَقَدْ فقُه الْفِقْهَ الْكَثِيرَ، وَمَا يَشْعُرُ بِهِ النَّاسُ. وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُصَلِّي الصَّلَاةَ الطَّوِيلَةَ فِي بَيْتِهِ وَعِنْدَهُ الزَّوْر -جمع زائر- وَمَا يَشْعُرُونَ بِهِ. وَلَقَدْ أَدْرَكْنَا أَقْوَامًا مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ عَمَلٍ يَقْدِرُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي السِّرِّ، فَيَكُونُ عَلَانِيَةً أَبَدًا. وَلَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ يَجْتَهِدُونَ فِي الدُّعاء، وَمَا يُسمع لَهُمْ صَوْتٌ، إِنْ كَانَ إِلَّا هَمْسًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَذَلِكَ أَنَّ اللهَ ﷻ ذَكَرَ عَبْدًا صَالِحًا رَضِيَ فِعْلَهُ، فَقَالَ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مَرْيَم: ٣]»(٢).

وقد تسأل: هل معنى ذلك أن الجهر بالدُّعاء منهيٌّ عنه؟

---

(١) الترمذي (٨٢٧)، ابن ماجه (٢٩٢٤)، وحسَّنه الأرناؤوط لغيره، وكذا الألباني في الصحيحة (١٥٠٠).

(٢) الزهد لابن المبارك (١/ ٤٥).

الجواب: لا يعني ذلك أن الجهر بالدُّعاء منهي عنه، فقد سبق لنا أن من معاني التَّضرُّع: التَّذلُّل الجهريَّ، فدلَّ ذلك على تنوُّع الدُّعاء بين الجهر والإخفاء حسب ما يقتضيه الحال والمقام، ويشير ابن عاشور رحمه الله إلى أن قومًا توهَّموا أنَّ الإعْلانَ بِالدُّعاء مَنهِيٌّ عَنْهُ أوْ غَيْرُ مَثُوبٍ عَلَيْهِ، وهَذا خَطَأٌ: فَإنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعا عَلَنًا غَيْرَ مَرَّةٍ، وعَلى المِنبَرِ بِمَسْمَعٍ مِنَ النّاسِ، وقالَ: «اللَّهُمَّ اسْقِنا»، وقالَ: «اللَّهُمَّ حَوالَيْنا ولا عَلَيْنا»، وقالَ: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ»، وما رُوِيَتْ أدْعِيَتُهُ إلَّا لِأنَّهُ جَهَرَ بِها يَسْمَعُها مَن رَواها، فالصَّوابُ أنَّ قَوْلَهُ ﴿تَضَرُّعًا﴾ إذْنٌ بِالدُّعاء بِالجَهْرِ والإخْفاءِ، وأمّا ما ورَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الجَهْرِ فَإنَّما هو عَنِ الجَهْرِ الشَّدِيدِ الخارِجِ عَنْ حَدِّ الخُشُوعِ(١).

وربما تسأل: فما فائدة ذكر الدُّعاء هنا؟ وما حكمة ذلك؟

الجواب: غُرِسَ الأمرُ بطلب الدُّعاء بين قضايا الكون المشهود؛ تعميقًا للصِّلة بالإله الرَّبِّ المعبود، كأنه يطلب هذا الاتصال، ويؤكِّد على أهمِّيَّة الإقبال، وينادي البشريَّة ذات الحاجة والسؤال، بأن تصمد هنا لمن له الخلق والأمر والكمال، وتطمع منه في العطاء والنَّوال.

ويذكر الله عز وجل الدُّعاء في هذا الموضع من السُّورَة لحكم بالغة، ومنها أثر الدُّعاء في الخروج من الشِدَّة والبلاء، والمقاومة به أمام تصلُّب المفسدين وذوي الكبرياء وعنادهم، وهاهو محمد بن نافع رحمه الله يحكي لنا عظمة تأثير الدُّعاء، فيقول: كان أبو نواس رحمه الله لي صديقًا، فوقعت بيني وبينه هجرة في آخر عمره، ثم بلغني وفاته، فتضاعف عليَّ الحزن، فبينا أنا بين النائم واليقظان إذا أنا به، فقلت: أبا نواس! فقال: لات حين كنية، قلت: الحسن بن هانئ! قال: نعم. قلت: ما فعل الله عز وجل بك؟ قال: غفر لي بأبياتٍ قلتها هي تحت الوسادة، فأتيت

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٢).

أهله، فلما أحسُّوا بي أجهشوا بالبكاء، فقلت لهم: هل قال أخي شعرًا قبل موته. قالوا: لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاسٍ فكتب شيئًا لا ندري ما هو. قلت: ائذنوا لي أدخل. قال: فدخلت إلى مرقده، فإذا ثيابه لم تحرَّك بعد، فرفعت وسادة لم أر شيئًا، ثم رفعت أخرى فإذا برقعة فيها مكتوب:

يـا رَبِّ إِن عَـظُـمَـت ذُنـوبـي كَـثـرَةً ... فَـلَـقَـد عَـلِـمـتُ بِـأَنَّ عَـفـوَكَ أَعـظَـمُ

إِن كـانَ لا يَـرجـوكَ إِلّا مُـحسِـنٌ ... فَبِـمَـن يَـلـوذُ وَيَسـتَـجيرُ الـمُجرِمُ

أَدعـوكَ رَبِّ كَـمـا أَمَـرتَ تَضَـرُّعًـا ... فَـإِذا رَدَدتَ يَـدي فَـمَـن ذا يَـرحَـمُ

مـا لـي إِلَـيـكَ وَسـيـلَـةٌ إِلا الـرَّجـا ... وَجَميـلُ عَفوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْـلِمُ [1]

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، فما الأدب في الدُّعاء الذي تبصِّرنا به هذه الآية؟

الجواب:

الأدب الثالث: عدم الاعتداء في كلِّ شيء: في الدُّعاء، وعلى الأرض، وعلى العباد: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]:

السِّياق يدلُّ على الدُّعاء، ولكن الله ﷻ لم يقل: إنه لا يحبُّ المعتدين في الدُّعاء أو قبله أو بعده أو أثناءه، بل جاء اللفظ عامًّا، فهاتان دلالتان: دلالة الألفاظ على العموم، دلالة السِّياق في الدُّعاء، فينبغي أن نُعمِلهما ما استطعنا لذلك سبيلًا لنفهم القرآن كما يريد الرَّحمن:

فعندما نُعمِل قاعدة عموم اللَّفظ نقول: الاعتداء المنهي عنه هو كلُّ اعتداء سواء أكان على الإيمان، أو على الأوطان، أو على العباد، أو على الأرض، أو على حدود الله ﷻ في أي وقت

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر (١٣/ ٤٦٦)، والأبيات في ديوان أبي نواس (ص: ٦١٨).

وبأي هيئة.. فكلُّ اعتداء ابتداء ممنوع. وهذا الذي أشار إليه أستاذ النَّظْم القرآنيِّ ومنفذه العلامة الزَّمخشريُّ رحمه الله؛ إذ قال: «أي: المجاوزين ما أمروا به في كلِّ شيء من الدُّعاء وغيره»(١).

هذه الكلمات النُّورانيَّة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ترشدنا إلى قانون عام ضمن قوانين الكون؛ وتنبئنا أن القرآن الكريم يحرس الكون بما فيه من البيئات والمخلوقات من أن يطرأ عليه أيُّ فساد أو أن يناله أدنى إيذاء.

وعندما نُعمِل قاعدةَ السِّياق نقول: الاعتداء المنهيُّ عنه هنا هو الاعتداء في الدُّعاء أو قبله أو بعده أو أثناءه، فلا تعتدِ قبل الدُّعاء أو أثناءه أو بعده، فكيف تسأل الله ﷻ شيئًا وأنت تعتدي على أرضه أو على عباده، ولذا قال الشَّافعيُّ رحمه الله: «بئس الزَّاد إلى المعاد العدوان على العباد»(٢).

وقد تسأل: ما الحكمة من مجيء الجملة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في هذا الموقع من الآيات، مع أن ما قبلها وما بعدها يحدِّثنا عن الدُّعاء؟

الجواب: موقعها في السياق مدهش؛ إذ أنبأنا الله ﷻ عن جملةٍ من المعاني:

المعنى الأول: جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] واقِعَةٌ مَوْقِعَ التَّعْلِيلِ لِلْأَمْرِ بِالدُّعاء، إشارَةً إلى أَنَّهُ أَمْرُ تَكْرِيمٍ لِلْمُسْلِمِينَ يَتَضَمَّنُ رِضا اللهِ ﷻ عَنْهم، ولَكِنْ سَلَكَ في التَّعْلِيلِ طَرِيقَ إثْباتِ الشَّيْءِ بِإبْطالِ ضِدِّهِ، تَنْبِيهًا عَلى قَصْدِ الأمْرَيْنِ وإيجازًا في الكَلامِ، ومِن

(١) الكشاف (٢/ ١١١).

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٥١/ ٤١١)، ونسبه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٦/ ٥١) إلى الفضيل بن عياض، في حين رفعه الماوردي في أدب الدنيا والدين (ص: ١٣٩) إلى النبي ﷺ بصيغة التمريض.

شَأْنِ ﴿إِنَّ﴾ إذا جاءَتْ عَلى هَذا الوَجْهِ أنْ تُفِيدَ التَّعْلِيلَ والرَّبْطَ، وتَقُومَ مَقامَ الفاءِ، كَما نَبَّهَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ عَبْدُ القاهِرِ رحمه الله ، والمَعْنى: ادْعُوا رَبَّكم لِأنَّهُ يُحِبُّكم ولا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ[1].

أي: إن الله ﷻ يحب الغافرين والمسامحين والمسالمين، والعافين عن الناس، والذين يصفحون عن غيرهم، فإذا أردت أن يجيب الله ﷻ دعاءك فلا تكن من المعتدين، وكن من الصِّنف المقابل لهم.

المعنى الثاني: التَّحذير من الاعتداء في كلِّ الأشياء، ومن ذلك الدُّعاء، فَالِاعْتِدَاءُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَكُونُ بِحَسبِهِ، وَذَلِكَ أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا مَنْ تَجَاوَزَهُ كَانَ مُعْتَدِيًا ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وإذا كان الاعتداء في عبادة توحيدية خالصة منهيٌّ عنه، فما دونكم بغيرها من الأمور والقضايا الأخرى المتعلقة بحقوقِ الآخر، فهي أشدُّ نهيًا، وصاحبها عرضة للتَّعرض لسخطِ الإله، ومقته.

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٢).

أنواع الاعتداء في الدُّعاء

الأول
1. الاعتداء بترك الدعاء، وهذا اعتداء على النفس بترك عبادة الله عز وجل.

الثاني
2. الاعتداء في الدُّعاء بأن يُجْعَلَ الدُّعاء مثبِّطًا عن العمل بالأسباب.

الثالث
3. الاعتداء في كيفية الدعاء: مثل رفع الصَّوت أثناء الدُّعاء، وتكلُّف السَّجع، وعدم الابتداء بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على نبيِّه محمد ﷺ.

الرابع
4. الاعتداء بطلب ما لم يشرعه الله عز وجل، كطلب تحقُّق ما فيه معصية.

الخامس
5. أن يطلب في الدُّعاء تفاصيل لم تَرِدْ أو لا تُعلم.

السادس
6. أن يطلب الْمُستحيل الشَّرْعِيَّ أَوِ الْعَقْلِيَّ كَطَلَبِ إِبْطَالِ سُنَنِ اللهِ فِي الْخَلْقِ وَتَبْدِيلِهَا أَوْ تَحْوِيلِهَا.

السابع
7. التَّوَجُّهُ في الدعاء إِلَى غَيْرِ الله عز وجل.

أنواع الاعتداء في الدُّعاء:

وهنا نسأل: فما أبرز الأنواع التي تدخل في الاعتداء في الدُّعاء؟

الجواب: يدخل في الاعتداء في الدُّعاء الأنواع السبعة الآتية[1]:

الأول: الاعتداء بترك الدُّعاء: هنا اعتداء على نفسك بترك عبادة ربِّك ﷻ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: يمتنعون من أن يدعوا ربَّهم ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غَافِر: ٦٠]، أي: خاضعين، فلم يخضعوا لربِّهم ﷻ في زمن الاختيار والاختبار في الدُّنيا، فأخضعهم الله ﷻ في زمن الجزاء في الآخرة، فتركُ الدُّعاء اعتداء ظاهر، وكبر عظيم، ونسيان لقَدْر نفس الإنسان حيث تكبر عن أن تدعو خالقها الرحمن ﷻ.

الثاني: الاعتداء في الدُّعاء بأن يُـجْعَلَ الدُّعاء مثبِّطًا عن العمل بالأسباب، فمثلًا: يقال: لماذا لا تذاكر؟ فيقول: دعوت الله أن ينجحني، ويقال: لماذا لا تخرج في طلب الرزق؟ فيقول: أنا دعوت الله ويكفي، فقد بذلت جهدي، أو يقوم الإنسان بعمل يسير، ويقول: دعوت الله، وبذلت الجهد في الدُّعاء، وربما لا يكون بذل الجهد كاملًا لا في الدُّعاء ولا في بذل الأسباب، فهذا من الاعتداء، وانظر إلى فعل نبيِّنا محمَّد ﷺ عندما بذل الجهد في تهيئة الجيش، وتقسيمه تقسيمًا عسكريًّا دقيقًا في بدر، ثم بعد ذلك جعل الدُّعاء استغاثة كاملة؛ وصفها الله ﷻ بقوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأَنفَال: ٩]، فلجأ إلى الدُّعاء الذي اجتهد فيه اجتهادًا عظيمًا حتى سقط رداؤه ﷺ من على ظهره، وأشفق عليه أبو بكر الصديق ﷺ، وأعاد رداءه

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٠٩).

إلى ظهره وقال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربَّك -طلبًا لأن يرفق بنفسه- فإن الله سينجز لك ما وعدك[١]، أي قد رأى منك التضرع.

ومن القصص الجميلة في هذا الباب: أرسل محمد بن واسع الطوسيُّ رحمه الله إلى أحد الأمراء يشفع عنده لآخر، ثم قال: يا فلان إن الله عز وجل جعل حاجتنا عندك، فإن أنت قضيتها حمدنا الله وشكرناك، وإن أنت لم تقضها حمدنا الله وعذرناك[٢]، أي: ليس الأمر بيدك، بل بيد الله عز وجل الذي له مقاليد كلِّ شيء، لكننا أيضًا اتجهنا إليك بذلًا للسَّبب.

الثالث: **الاعتداء في كيفية الدُّعاء**: مثل أن ترفع الصَّوت والنِّداء والصِّياح أثناء الدُّعاء، أو أن ترفع صوتك حتى تؤذي غيرك، بل يجب على الدَّاعي أن يلزم التَّضرُّع والاستكانة، ومن أنواع الاعتداء في كيفية الدُّعاء أن يلتزم السَّجْع والعبارات المنمَّقة طلبًا لها في ذاتها؛ أو إبكاء لغيره من الناس لا أن تصدر عن صدق عنده، فقد قال ابن جريج رحمه الله في ذلك: «إن من الدُّعاء اعتداءً، يُكره رفعُ الصَّوتِ والنِّداءُ والصِّياحُ بالدُّعاء، ويُؤمر بالتضرُّع والاستكانة»[٣]، أما لو صدر السَّجع دون تكلُّف مع الصِّدق في الطَّلب فإن ذلك مطلوب.

وقد قلت مرَّة لشيخ من شيوخي في زمن الصِّبا وأنا أسمعه ينطق بأجمل الدُّعاء وأعذبه: يا شيخ تحسن في عبارات الدُّعاء ما لا نهتدي إليه؟

فقال لي: دعك من هذا، وعليك بفصاحة الجَنان "القلب"، ولا تحرص على فصاحة اللِّسان، فإن لفصاحة القلب نورًا يستنزل الإجابة من السَّماء.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم (١٧٦٣).

(٢) عيون الأخبار (٣/ ١٤٢).

(٣) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٧).

ومن الاعتداء في كيفية الدُّعاء ألا يبدأ الإنسان دعاءه بالثَّناء على الله ﷻ والصَّلاة على رسول الله ﷺ، فعن فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ ﷺ قال: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ، وَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ ﷻ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ: «إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ، ثُمَّ لِيَدْعُ بَعْدُ بِمَا شَاءَ»(١).

الرابع: **الاعتداء بطلب ما لم يشرعه الله** ﷻ، كطلب تحقُّق ما فيه معصية مثل أن يكون رجلًا ويطلب أن يكون امرأة، وهي امرأة تطلب أن تكون رجلًا، فهذا تعدِّي في الدُّعاء، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النِّسَاء: ٣٢].

ومثل ذلك المثال الذي ذكره أبو مِجْلَز، فقال: «لا يسأل منازلَ الأنبياء ﷺ»(٢)، أي: فيطلب أن يكون نبيًّا، فهذه منازل قسمها الله ﷻ، فالنُّبوة لا تطلب وإنما توهب.

ومن الاعتداء أن يطلب المرء الرحمة لمن لا يستحقُّها بعد تأكُّده أنه لا يستحقُّها مثل قول الله ﷻ لعبده نوح ﷺ: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. والذي طلبه نوح ﷺ هنا ليس معصية؛ لأنه ما كان يعلم أن قوله: ﴿وأهلك﴾ لا يدخل فيه ابنه؛ فالله ﷻ وعده بأن ينجي أهله، فأخذ نوح ﷺ بعموم العبارة، فأراد الله ﷻ أن يبيِّن له أنَّ **الكفر فرَّق ذوي الأنساب عند حلول العقاب**، فتاب نوح ﷺ بعد ذلك وقال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[هود: ٤٧].

---

(١) أحمد (٢٣٩٣٧)، الترمذي (٣٤٧٧)، وقال: حسن صحيح، وصححه محققو المسند.

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٦)، والأثر في الجزء الثاني من حديث يحيى بن معين (الفوائد)، رقم (١٤٨)، وقال المحقق (خالد السبيت): إسناده حسن.

الخامس: أن يطلب في الدُّعاء تفاصيل لم تَرِدْ أو لا تُعلم، فعن ابنِ لسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي فَكَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ نَعِيمِهَا وَبَهْجَتِهَا، وَمِنْ كَذَا وَمِنْ كَذَا، وَمِنْ كَذَا وَمِنْ كَذَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَسَلاسِلِهَا وَأَغْلالِهَا، وَمِنْ كَذَا وَمِنْ كَذَا». قَالَ: فَسَكَتَ عَنْهُ سَعْدٌ ﷺ، فَلَمَّا صَلَّى -أي: قضى صلاته-، قَالَ لَهُ سَعْدٌ ﷺ: تَعَوَّذْتَ مِنْ شَرٍّ عَظِيمٍ يعني النار، وَسَأَلْتَ نَعِيمًا عَظِيمًا يعني الجنة -أَوْ قَالَ: طَوِيلًا شكَّ شعبة-. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعاء». وَقَرَأَ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، قَالَ شُعْبَةُ: لا أَدْرِي قَوْلُهُ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ هَذَا مِنْ قَوْلِ سَعْدٍ ﷺ، أَوْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ لَهُ سَعْدٌ ﷺ: قُلْ: «اللَّهُمَّ أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ، وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ»(١).

ومثل هذا التوجيه ورد عن عبد الله بن مغفَّل ﷺ سمع ابنه يقول: اللهم! إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها! فقال: أي بُنَيَّ! سَلِ الله الجنَّة، وتعوَّذ به من النَّار؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطُّهور والدُّعاء»(٢).

ويظهر أن التَّفاصيل التي طلبها هذا الابن الصالح أمرٌ يظهر أنه لا داعي له؛ فإن الإنسان إن دخل الجنة وجد ما تشتهيه نفسه، وتلذُّ عينه، فنهيُ الصَّحابيِّ المبارك ﷺ له عن ذلك لا يعني عدم ذكر التفاصيل التي يُحتاج إلى ذكرها، فقد يذكر الدَّاعي بعض التفاصيل؛ ليظهر أمام ربِّه ﷻ نُبْلَ غاياتِه، وليزداد من تَذَوُّقِ لذيذ مناجاته، كما قال الله ﷻ عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا

(١) أحمد (١٥٨٤)، وقال الأرناؤوط: «حسن لغيره، وهذا إسناد ضعيف».

(٢) أبو داود (٩٦) بإسناد صححه النووي في المجموع (٢/ ١٩٠)، وحسَّن ابن كثير إسنادَه في تفسيره (٣/ ٤٥٢٩).

﴿٥﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٣-٦].

السادس: أن يطلب الْمُستحيل الشَّرْعِيَّ أَوِ الْعَقْلِيَّ كَطَلَبِ إِبْطَالِ سُنَنِ اللهِ ﷻ فِي الْخَلْقِ وَتَبْدِيلِهَا أَوْ تَحْوِيلِهَا، وَمِنْهُ طَلَبُ النَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وهو لم يبذل وسائل النَّصر، وهذا كثير عند المسلمين مَعَ تَرْكِ وَسَائِلِهِ كَأَنْوَاعِ السِّلَاحِ وَالنِّظَامِ، وَالْغِنَى بِدُونِ كَسْبٍ، وَالْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى الذَّنْبِ. وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

السابع: شرُّ أنواع الِاعْتِدَاء فِي الدُّعاء –كما يقول رشيد رضا رحمه الله[1]– التَّوَجُّهُ فِيهِ إِلَى غَيْرِ اللهِ ﷻ، وَلَوْ لِيَشْفَعَ لَهُ عِنْدَهُ؛ يدعو ولكن بدلًا من أن يدعو الله ﷻ يدعو البقرة، أو هبل، أو الملك الفلاني، أو الأمير الفلاني، أو الحاكم، أو الولي، أو العالم، أو الصَّنم، أو الحجر، أو الشَّجر، أو الشَّمس، أو القمر، وهذا هو عين الاستغاثة والشَّرك بالله ﷻ في العبادة، وإنما الواجب أن يدعو الله ﷻ، ويخلص في ذلك: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الحديد: ١٨] أَيْ: لَا مَلِكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا.

فمن دعا غير الله ﷻ فكأنه جعله معبودًا؛ لأن «الدُّعاء هُوَ الْعِبَادَةُ»، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ[2]، ولقد حذَّر الله ﷻ في هذه السُّورَة من دعاء غيره، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٤، ١٩٥].

---

(١) الحديث إسناده صحيح، وقد سبق تخريجه.

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٠٧).

وقصَّ الله ﷻ علينا في هذه السُّورَة كيف اتخذ بنو إسرائيل عجلًا جسدًا له خوار إلهًا يعبدونه من دون الله ﷻ.. فكلُّ هذا من الاعتداء القبيح المحرَّم المجرم، وقد قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧]، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ هَذَا نَزَلَ فِيمَنْ عَبَدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْمَسِيحَ وَأُمَّهُ وَعُزَيْرًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ(١)، أَيْ كُلُّهُمْ عَاجِزٌ عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ أَوْ تَحْوِيلِهِ عَنْكُمْ.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، يحثُّك على الإسراع في البحث عن محابِّ الله تعالى ذكره وطلب مراضيه، فانظر كيف يرغِّبك الله ﷻ في البحث عمَّا يحبُّ وترك ما لا يحبُّ.

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فما الأدب من آداب الدُّعاء الذي يبصِّرنا الله ﷻ به هنا؟

الجواب:

الأدب الرابع: عدم الإفساد في الأرض ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]:

فأول سؤال يطرأ في الآية عن الواو في قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ فما موقعها؟ وكيف يمكن أن نفهم أن عدم الإفساد في الأرض من آداب الدُّعاء، مع أن الكلام هنا عن الإفساد في الأرض؟

الجواب: الواو تنبئك أنَّ هناك ربطًا محكمًا قويًّا بين هذه الآية وما قبلها، فالله ﷻ يكمل لنا آداب الدُّعاء.

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (١٧/ ٤٧٣).

فهذا الأمر جاء في سياق الدُّعاء، فما قبله يتعلَّق بالدُّعاء ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، بل وما بعده يتعلَّق بالدُّعاء ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالسِّياق يقتضي أن عدم الإفساد في الأرض من آداب الدُّعاء.

فمن أدلَّة ربوبية الله جلَّ ذِكرُه بديع صنع الله ﷻ في الأرض، وإحكام خلقها وقد خلق الله ﷻ الإنسان، وجعله ممكَّنًا فيها، ونبَّه الإنسانيَّة على هذا في أوَّل السُّورَة ﴿وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وأمره بأن يرعى بالقوانين التي تضمن بقاءها عامرة مسخَّرة له، بدلًا من أن يدمِّرها، فالإفساد يأتي ممَّن يضادُّ أنظمة ربِّ العباد الذي خلق الأرض.

بصيرة: يبصِّرنا قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا [الأعراف: ٥٦] أنه إذا أردتم أن تدعوا ربَّكم فلا ينبغي أن تفسدوا في الأرض؛ لأنكم لو أفسدتم لَمَا أجيب دعاؤكم، فالدُّعاء يعني أنَّ الدَّاعي يطلب أن يصلح الله ﷻ حاله، فإذا كنتم تفسدون الموجود فكيف تطلبون أن يستجيب الله ﷻ لكم فيما هو مفقود؟!

فمن أعظم آداب الدُّعاء ترك الإفساد في الأرض، فكيف يدعو أحدٌ ربَّه ﷻ متذلِّلًا ثم يفسد في الأرض؟! فعُطِفَ النَّهْيُ عَنِ الفَسادِ في الأرْضِ عَلى جُمْلَةِ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾، فإن كان من آداب الدُّعاء ترك الاعتداء، فكذلك من آداب الدُّعاء ترك الإفساد في الأرض، والمناسبة رائعة تدلُّ على التَّماسك العظيم في الكلام، فربَّما طرأ في نفس المرء عندما يسمع الأدب الثالث للدُّعاء وهو ترك الاعتداء أن الاعتداء محرَّم لأنه فيه إيذاء للآخرين من البشر،

فحداه ذلك إلى التَّساهل في التَّعامل مع البيئة الأرضيَّة حوله، فلم يبال أن يُفسد فيها، فجاءت هذه الآية لتكمل الآداب، ولتخبره أنه كما يحرم الاعتداء على الآخرين فكذلك يحرم الفساد في الأرض، وهذا الذي قررته أظهر عندي من اعتبار الجملتين اعتراضيتين كما قرَّره شيخ مفسري المتأخرين ابن عاشور رحمه الله، بينما تراني جعلت الجملتين أساسيتين وليستا معترضتين، فهما جزء من آداب الدُّعاء، وممَّا يدلُّنا على ذلك الحديث المشهور في «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[1].

إذا هذا أفسد في الأرض حتى أخذ ما يحرم عليه، فكيف يستجاب له؟ كذلك لا يفسد في الأرض ثم بعد ذلك يدعو ويظن أنه يستجاب لدعائه.

ويناسب هذا أن نذكر أن عبد الرحمن الناصر رحمه الله أحد كبار ملوك الأندلس طلب من المنذر بن سعيد البَلُّوطيِّ قاضي قضاة الأندلس رحمه الله (ت ٣٦٦هـ) أن يخرج للاستسقاء، فقال لرسوله: كيف تركته؟ قال: تركته وهو ساجد على الأرض يقول: يا رب لا تعذِّب خلقك بسببي، فقال المنذر بن سعيد البَلُّوطيُّ: الآن يا غلام أخرج الممطرة، أي: المظلة، فإنه إذا خشع جبَّار الأرض رحم جبَّار السَّماء، أي الآن سيستجاب الدُّعاء[2].

ويمكننا أن نخيط ترابط النَّظْم القرآنيِّ وانسجامه وعدم تنافره هنا، بأنه لما ذكر الله عز وجل المعالم الثَّمانية لألوهيته وربوبيته، دعا خلقه إلى التَّوجُّه لمن له ذلك الخلق العظيم والأمر الحكيم في موجوداته، ونهاهم عن التَّعدِّي والفساد بعد صلاح أمر الخليقة وانتظام أمرها،

---

(١) مسلم (١٠١٦).

(٢) ينظر: البداية والنهاية (١١/ ٣٢٧).

فيكون النَّظْم منسجمًا متماسكًا منضبطًا، وقد لمح القاضي أبو السعود رحمه الله ذلك الخيط النَّاظم فقال:«﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ﴾الذي قد عرفتم شئونه الجليلة»[1].

سنسأل: فلماذا نصَّ الله ﷻ على النَّهي عن الإفساد ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؟

الجواب: ذكر المحلَّ الذي نهاهم عن الإفساد فيه -وهو الأرض- لتفظيع جرم هذا الإفساد، كما أفادنا ذلك أن الإفساد محرَّم في الأرض أي: في أي جزء منها؛ لأن الإفساد في جزء منها توعير أو إعدام للحياة في ذلك الجزء، والذي يظهر أن قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليس بقيد للإفساد، وإنما هو وصف كاشف جيء به لزيادة استحضار صورة الإفساد؛ إذ المقام مقام إطناب بهدف التَّنفير عن المنهيِّ عنه بكلِّ صوره، كقول امرئ القيس:

كجلمودِ صَخرٍ حطَّهُ السيلُ منْ عَلِ[2].

إذ قد علم السَّامع أن السَّيل لا يحطُّ جلمود صخر إلا من أعلى ولكنه أراد التَّصوير، وكقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ٧١]، وقال تعالى: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهكذا هنا لما أراد التَّشنيع على الإفساد وأهله، قصد إلى تصوير حالهم وهم يسعون بالإفساد في الأرض التي تقلُّهم على ظهرها، ويقتاتون من خيراتها. تصوَّر ذلك: عندما تُسَمَّم الأرض بالنُّفايات النَّوويَّة مثلًا في جزء من الأرض سواء كان بريًّا أو بحريًّا، هذا يعني إعدامًا للحياة في ذلك الجزء أو تدميرًا لها، وقد يسري ذلك إلى غير ذلك الجزء من الأمكنة. ينبغي أن يمنع الإنسان نفسه من الإفساد ولو كان إفسادًا مع الجبل، ولو كان إفسادًا مع الصَّحراء، أو مع البحر، أو

---

(١) أبو السعود، إرشاد العقل السليم (٣/ ٢٣٣).

(٢) عجز بيت لامرئ القيس من معلقته المشهورة، وصدره: (مكر مفر مقبل مدبر معًا). ينظر ديوانه (ص: ٥٤).

مع الماء. وما أكثر الإفساد الذي تتعرَّض له الأرض هذه الأيام بسبب الأنانيَّة التي تمتلئ بها كثير من النُّفوس البشريَّة.

والإفساد لا يُتصوَّر إذا لم يكن في الأرض؛ إذ ليس للإنسان تمدُّدٌ وانتشار ليمارس فساده في غيرها مهما بلغ، فحصر النهي عن الإفساد في الأرض بخاصَّة فيه لفتة، وهي: أن الإنسان مهما أفسد فلن يعدوَ إفساده هذه الكُرَة الصَّغيرة في الكون الفسيح، وإن علا كفرعون فلن يعدوَ مركزيَّة علوِّه هذه الكوكب الصغير، الذي هو في قبضة الله ﷻ.

والإفساد حقيقته استعمال الشَّهوة الغضبيَّة والجسديَّة والعقليَّة في تدمير البيئة الصَّالحة، وإجراء الكون على غير طبيعته التي خلقه الله ﷻ عليها، فمنع الله ﷻ بذلك من كلِّ إفساد، وذَلِكَ يَقْتَضِي المَنعَ مِن جَمِيعِ أنْواعِ الفساد التي تطرق الكُلِّيّاتِ الخَمْسَ الَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْها المِلَلُ، وهي الأدْيانُ، والأبْدانُ، والعُقُولُ، والأنْسابُ، والأمْوالُ، ومثل ذلك إفساد الحاجيات والتَّحسينيات، ومن الإفساد الدُّعاء بما يؤدِّي إلى الإفساد، أو الدُّعاء حال تلبس الدَّاعي بالفساد أو الإفساد، ويدلُّ على النَّهي عن جميع صور الإفساد حذف المفعول به للفعل (**تُفْسِدُوا**).

فيكون المعنى: لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِعَمَلٍ ضَائِرٍ، وَلَا بِحُكْمٍ جَائِرٍ؛ ممَّا قد يدمِّر البشريَّة في أديانهم، وأبدانهم، وأخلاقهم، وعقولهم، ونسلهم:

كإفْسادِ الأدْيانِ بِالكُفْرِ، والفسق، والتغيير، والتبديل.

وإفْسادِ النُّفُوسِ بِالقَتْلِ، وبِقَطْعِ الأعْضاءِ، وإفْسادِ الأمْوالِ بِالغَصْبِ، والسَّرِقَةِ، ووُجُوهِ الحِيَلِ.

وإفْسادِ بثِّ الحياة البشريَّة بتدمير نسلها، وأنسابها، وتشجيع الإقْدامِ عَلى الزِّنا، والفاحشة، والقَذْفِ أو عن طريق ابتداع حياة زوجيَّة غير الحياة الزَّوجيَّة الفطرية

وإفْسادِ العُقُولِ بِسَبَبِ شُرْبِ المُسْكِراتِ، وإضعافها، وإتلافها، بشتى طرق الإفساد.

وَمن أعظم وجوه الإفساد التي تجمع الاعتداء الشامل: المنع مِنْ إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ فِيهَا، محاربة الرُّسل والرِّسالات، ومنع البشريَّة من أن تتذوَّق الرَّحْمَة الْعَامَّة التي أرسلها الله ﷻ لِلْعَالَمِينَ والحياة الكريمة(١).

فإن قلت: قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] يضع قانونًا عظيمًا، فكيف يظهر لنا هذا القانون في جلب السَّعادة للبشر؟

الجواب: هذه الآية العظيمة تضع قانونًا يكمل القانون العظيم الذي في قول الله جلَّ ذِكرُه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] فهَذِهِ الآيَةَ تَدُلُّ عَلى أنَّ الأصْلَ في المَنافِعِ واللَّذّاتِ الإباحَةُ والحِلُّ، وهذه الآية تَدُلُّ عَلى أنَّ الأصْلَ في المَضارِّ الحُرْمَةُ والمَنعُ عَلى الإطْلاقِ(٢).

فالأنبياء ﷺ بعثوا بإقامة العلاقة بين الله ﷻ والخلق، والجمع بين الجسد والروح، والمادة والعقل، والأفراد والجماعات، والشّورى والنّظام، ومن أشدّ الفساد مقاومة ذلك بالكبر والعتوّ الدّاعيين إلى الظّلم والعلوّ، قال رشيد رضا ﷺ: «ألم تر إلى هؤلاء الإفرنج كيف أصلحوا كلَّ ما في الأرض من معدنٍ ونباتٍ وحيوانٍ، وعجزوا عن إصلاح نفس الإنسان، بمعاداتهم أكمل الأديان، فحوَّلت دولُهم كلَّ ما اهتدى إليه علماؤهم من وسائل العمران، إلى إفساد نوع الإنسان، وتعادى شُعُوبُهُ بالتَّنازع على الملك والسُّلطان، وإباحة الكفر

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٠٩).

(٢) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٣).

والفسوق والعصيان، وبذل ثروة العاملين من شعوبهم، في سبيل التَّنكيل بالمخالفين لهم، والجناية على أعدائهم، ولو بالجناية على أنفسهم»[١].

ولذلك روى أبو الشَّيخ عن أبي بكر بن عيَّاشٍ رحمه الله أنَّه سئل عن قوله:﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فقال: «إنَّ الله عز وجل بعث محمَّدًا ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فسادٍ فأصلحهم الله عز وجل بمحمَّدٍ ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمَّدٌ ﷺ فهو من المفسدين في الأرض»[٢]، وذلك لأنَّ المصالح المعتبرة في الدُّنيا هي هذه الخمسة: النُّفوس والأموال والأنساب والأديان والعقول، فقوله:﴿وَلَا تُفْسِدُواْ﴾ منعٌ عن إدخال ماهيَّة الإفساد في الوجود، والمنع من إدخال الماهيَّة في الوجود يقتضي المنع من جميع أنواعه وأصنافه، فيتناول المنعَ من الإفساد في هذه الأقسام الخمسة[٣].

ويضرب الطَّبريُّ رحمه الله مثلًا لهذا الفساد، فيقول: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]: لا تشركوا بالله عز وجل في الأرض ولا تعصوه فيها، وذلك هو الفساد فيها»[٤]، فهذا تفسير بضرب مثال من أبرز الأمثلة، لكن الفساد لا يقتصر على الشِّرك فحسب. قال أبو حيَّان رحمه الله: «وما روي عن المفسِّرين من تعيين نوع الإفساد والإصلاح ينبغي أن يحمل ذلك على التَّمثيل؛ إذ ادعاء تخصيص شيء من ذلك لا دليل عليه»[٥].

وستقول: ما الحكمة من تقييد النهي عن الإفساد في الأرض بقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؟

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٠٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤٠٩-٤١٠)، وينظر قول ابن عياش في تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٥٠١).

(٣) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٣).

(٤) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٧)

(٥) البحر المحيط (٥/ ٧٠).

الجواب: لبيان أن الإفساد بعد الإصلاح أسوأ من الإفساد ابتداء، وهذا التعبير ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ يدلُّ على نوعين من الإصلاح:

النوع الأول: الإصلاح الأصلي للأرض أي: القوانين الطَّبيعيَّة التي خلق الله ﷻ الأرض عليها، مثل: قوانين انقسام الجنس البشري إلى ذكر وأنثى، وقوانين الزَّوجيَّة في البشر والحياة والمادة، وقوانين التَّوازن في الخلق، وقوانين البيئة الطَّبيعيَّة التي خلقها الله ﷻ على طبيعتها، فيحذِّر الله ﷻ من يحاول الإفساد بعد هذا النوع من الإصلاح. **أي: لا تفسدوا في الأرض بَعْدَ أنْ أصْلَحَ الله ﷻ خِلْقَتَها عَلى الوَجْهِ المُطابِقِ لِمَنافِعِ الخَلْقِ والمُوافِقِ لِمَصالِحِ المُكَلَّفِينَ**، فقد جعلها مهيَّأة مسخَّرة لنفع المخلوقات، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣]، فالبعديَّة في قوله: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾بعديَّة حقيقيَّة.

النوع الثاني: الإصلاح للإفساد الطَّارئ: والإفساد الطارئ يكون بوضع التَّشريعات المفسدة، فيبعث الله ﷻ الأنبياء والمصلحين لإعادة الأمور إلى نصابها، ويحذِّر الله ﷻ من يحاول الإفساد بعد هذا الإصلاح أيضًا، **أي: لا تفسدوا في الأرض بَعْدَ أن أصلحها الله ﷻ بِسَبَبِ إرْسالِ الأنْبِياءِ وإنْزالِ الكُتُبِ، كَأنَّهُ تَعالى قالَ: لَمَّا أصْلَحْتُ مَصالِحَ الأرْضِ بِسَبَبِ إرْسالِ الأنْبِياءِ وإنْزالِ الكُتُبِ وتَفْصِيلِ الشَّرائِعِ فَكُونُوا مُنْقادِينَ لَها، ولا تُقْدِمُوا عَلى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وإنْكارِ الكُتُبِ والتَّمَرُّدِ عَنْ قَبُولِ الشَّرائِعِ، فَإنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي وُقُوعَ الهَرَجِ والمَرَجِ في الأرْضِ، فَيَحْصُلُ الإفْسادُ بَعْدَ الإصْلاحِ، وذَلِكَ مُسْتَكْرَهٌ في بَداهَةِ العُقُولِ**[1].

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٣).

وباستقراء عبارة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في القرآن الكريم نلحظ ورودها، بل شيوعها في مواضع كثيرة، واللَّافت أن كثيرًا من هذه المَواطِن يقترن بالإفساد في الأرض والمعاني المقاربة له، وقد وردت في هذه السُّورَة (الأعراف) مقترنة بالنَّهي عن الإفساد في موضع ثان، وهو قوله ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

ثم قال الله ﷻ: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فما الأدب من آداب الدُّعاء الذي تبصِّرنا به هذه الكلمات البينات؟

الجواب:

الأدب الخامس: دعاء الله ﷻ مع الخوف من عقابه والطمع في فضله وثوابه، ويبصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٤]:

فالواو عاطفة لتكملة آداب الدُّعاء، ونصب ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لتصوير الدَّاعين في موقفين: موقف الحال، وموقف الاستقبال.

فأما موقف الحال ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: ادعوه حال كونكم خائفين من عدله ونقمته وغضبه وعقوبته؛ إذ إنكم لم تقوموا بما أمركم به حقَّ القيام، ووقعتم في مخالفات قلبيَّة أو عمليَّة أفسدت حياتكم، وادعوه طامعين في رحمته وفضله وكرمه وإحسانه.

وأما موقف الاستقبال: فيظهر بإعراب: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ عَلى الـمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ، أيْ أنَّ الدُّعاء يَكُونُ لِأجْلِ خَوْفٍ مِنهُ وطَمَعٍ فِيهِ، فَحُذِفَ مُتَعَلِّقُ الخَوْفِ والطَّمَعِ لِدَلالَةِ الضَّمِيرِ المَنصُوبِ في ادْعُوهُ[1].

والواوُ في قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ لِلتَّقْسِيمِ والجمع بين الأمرين في وقتٍ واحد أو وقتين عند الاقتضاء، أي: ادعوه حال كونكم خائفين طمعين، وادعوه عندما تكونون خائفين فحسب، وادعوه عندما تكونون طمعين فحسب، ولكن أكمل الأحوال أن تدعوه جامعين بين الأمرين خائفين طمعين.

والجَمْعُ بَيْنَ الخَوْفِ والطمع يوصل صاحبه إلى مقام الإحْسانِ وكَأنَّهُ مُشاهِدٌ لِلرَّحْمَنِ، ما زَجَرَهُ زاجِرُ الجَلالِ بِسِياطِ سَطْوَتِهِ، إلَّا دَعاهُ داعِي الكرم والفضل والجمال إلى بِساطِ رَأْفَتِهِ، ومَن حازَ مَقامَ الإحْسانِ كانَ أهْلًا لِلرَّحْمَةِ[2].

فإن قلت: الدُّعاء لأجل الخوف والطَّمع له معنىً شريف عظيم في بيان رحمة الله بعباده، فما هذا المعنى؟

الجواب: الدُّعاء خوفًا وطمعًا، أو لأجل الخوف والطَّمع إيجازٌ بليغٌ يقوم مقام أسفارٍ من الكلمات، فهو يدلُّ على أنَّ الشَّريعة موضوعة لمصالح العباد، وإقامة السَّعادة في حياتهم الدنيا والأخرى، فإنَّ الإنسان لا يخلو من أن يكون بين خوفٍ من أن تصيبه المكروهات، وطمع في أن يجلب الخيرات المحبوبات، فهو إمَّا يخاف من أن ينقص راتبه، أو تذهب وظيفته، أو تكسد تجارته، أو ألا يجد طعام يومه، أو ألَّا يتزوج، أو أن تتغير زوجته، أو أن

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٥).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٢٠).

يفسد ولده، أو أن يدهمه عدوُّه، وإمَّا يطمع في جلب النَّجاح والمال، والسَّعادة، والتَّفوُّق، فشمل ذلك جميع أغراض الحياة، وحتى يتحقَّق له ذلك فلا بدَّ أن يمتثل النِّظام الإلهيَّ، فيعمل بالمأمورات طمعًا في الثَّواب، ويجتنب المنهيات خوفًا من العقاب.

وإذا رسخ في قلب عبدٍ خوف الله والطمع فيما عنده، واستحضرهما في قلبه وهو داعٍ ربه ﷻ، ملتجئ إلى كنفه، تنزَّلت عليه سحائب الرَّحمات، وغمرته فيوضات الله ﷻ، فلا تسل بعدها عن لطائف الأنس تتنزل من لدن علام الغيوب على الأرواح والقلوب.

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ... فَيُسْفِرُ عَنْهُمُ وَهُمُ رُكُوعُ

أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ... وَأَهْلُ الأَمْنِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

لَهُمْ تَحْتَ الظَّلامِ وَهُمْ سُجُودٌ ... أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ

وَخُرْسٌ فِي النَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ ... عَلَيْهِمْ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ[1]

وما أجمل أن يجتمع في قلب العبد كلا الدَّاعيين (الخوف والطَّمع)؛ إذ بهما يحلِّق في مقامات العبوديَّة الحقَّة، قال يحيى بن معاذ رحمه الله: «مَنْ عَبَدَ الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار، ومَنْ عَبَدَه بمحض الرَّجاء تاه في مفازة الاغترار، ومَنْ عَبَدَه بالخوف والرَّجاء استقام في محجَّة الادِّكار»، وقال مكحول الدِّمشقيُّ رحمه الله: «مَنْ عَبَدَ الله بالخوف فهو حَروريٌّ، ومَنْ عَبَدَه بالرَّجاء فهو مُرجئٌ، ومَنْ عَبَدَه بالمحبَّة فهو زنديق، ومَنْ عَبَدَه بالخوف والرَّجاء والمحبَّة فهو مُوَحِّد»[2].

---

(١) الأبيات لعبد الله بن المبارك في ديوانه. ينظر: ديوان الإمام المجاهد عبد الله بن المبارك، جمع وتحقيق ودراسة: أ.د. مجاهد مصطفى بهجت (ص: ٩٠، ٩١).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٦).

وعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوْتِ، فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»، قَالَ: وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَرْجُو اللهَ، وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا المَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»(١).

ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فما الأدب من آداب الدُّعاء الذي ختم الله ﷻ به هذه الآية؟

الجواب:

الأدب السادس: الإحسان في دعاء الرَّحمن، وقبل دعائه، وعند دعائه، وبعد دعائه، ومن وجوه الإحسان الصَّدقة على بني الإنسان وسائر المخلوقات، ويبصِّرنا بذلك قوله جلَّ ذِكرُه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فإن قلت: ما وجه الاتصال بين هذا الختام وما سبق في آداب الدُّعاء؟

الجواب: انظر إلى الاتصال المدهش الذي يلفت نظرك بقوَّة، ويجذب انتباهك؛ فصيغة هذه الخاتمة صيغة لافتة، فلو أراد الله ﷻ أن يربطها بالدُّعاء بصورة مباشرة كالجملة التي قبلها لقال: وادعوه خوفًا وطمعًا وإحسانًا، أو وأحسنوا في دعائكم، لكنه لم يفعل ذلك، بل أتى بهذه الخاتمة للإمعانِ فيها، وتوسِّع مداركنا، وآفاقنا؛ فإن الأدب السابق يعلِّمنا أن ندعو الله ﷻ خوفًا وطمعًا أو لأجل الخوف والطمع، فإذا استقرَّت هذه الطَّبيعة الرَّائعة في النَّفسيَّة المسلمة الدَّاعية، اقتضى ذلك أن تراقب النفسُ ربَّها ﷻ خوفًا وطمعًا، وإذا ثبتت هذه المراقبة القلبيَّة وصل المرء إلى مرتبة الإحسان، حيث يعبد الله ﷻ مستشعرًا بأنه يراه، فإن لم يكن يرى ربَّه ﷻ، فإن ربَّه ﷻ يراه، وتصبح المراقبة لله ﷻ حاضرةً دائمة في تصرُّفات الإنسان..

---

(١) الترمذي (٩٨٣)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ وَقَدْ رَوَى بَعْضُهُمْ هَذَا الحَدِيثَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُرْسَلًا»، وقال النووي: «رواه الترمذي بإسناد جيد» في خلاصة الأحكام (٢/ ٩٠٢)، وحسنه الألباني في أحكام الجنائز (ص: ٣).

هذا هو الإحسان الذي عرَّفه النَّبيُّ ﷺ، ولذلك أعقب الله ﷻ الأدب السابق بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ختام محكم وصياغة مدهشة:

الآن، أنعمِ النَّظر في صياغة هذه الخاتمة، فقد تكوَّنت هذه الجملة من عدَّة كلمات: ﴿إِنَّ﴾، و﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، و﴿قَرِيبٌ﴾، و﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فهذه أربعة أقسام في الجملة:

القِسم الأول: **بدأها الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ﴾** ليصوِّر لنا التأكيد بأن المحسنين سيظفرون بالرحمة؛ إذ هي قريبة منهم، ولماذا التأكيد؟ التأكيد يأتي للمتردِّدين في الخبر، فهل السَّامعون متردِّدون في تصديق ما قاله الله؟!

أمَّا إن كان المخاطَب بذلك مسلمًا فهو غير متردِّدٍ في تصديق كلام الله ﷻ، لكن التأكيد للتَّشديد ليزداد السَّامع قربًا، وبالكلام اهتمامًا، وأمَّا إن كان المخاطَب غير مسلمٍ فالتأكيد لإثارة اهتمامه، وإثارة فضوله عسى أن يدعو ربَّه ويطلب أساس الدُّعاء، وهو الإسلام.

وقد تتساءل متدبِّرًا: هل هناك محذوف في الكلام؛ فإن الكلام انتقل من الدُّعاء خوفًا وطمعًا إلى الإحسان، فقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]؟

الجواب: واضح أن هناك محذوفًا في الكلام يدلُّ عليه السِّياق، فتقدير الكلام: وادعوه خوفًا وطمعًا، وأحسنوا إنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِينَ.

و﴿إِنَّ﴾ كما أفادت التأكيد وزيادة اهتمام السَّامع ولفت انتباهه، فإنها تفيد كذلك التَّعليل؛ إذ بعد أنْ أمر الله ﷻ بدعائه خوفًا وطمعًا، أعقب ذلك بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وكأنَّ المعنى: إنما أُمرتم بأن تدعوا الله ﷻ مع الخوف والطمع فلأن هذا مقام الإحسان العظيم، وصاحِبُه أحرى بأن يستجيب الله ﷻ له وينال فضله ورحمته، لأن ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

القِسم الثاني: ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾:

أي: كلُّ ما صدر عنه ﷻ على سبيل الرَّحمة من عطاءاته التي لا تنفد، ونِعَمه التي يعجز عنها العدُّ بما في ذلك إجابة الدُّعاء.

القِسم الثالث: ﴿قَرِيبٌ﴾:

فإن قلت: ما معنى القرب في قول ربِّنا ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾؟

الجواب: القُرْبُ ضدُّ البُعد، وحَقِيقَتُهُ دُنُوُّ المَكانِ، أو الزَّمان، أو الشَّخص، وتختلف درجاته حتى يكون أقرب القريب هو الذي يلاصق المُمَاس حقيقة أو معنى، ومن ذلك قرب الله ﷻ من كلِّ عباده على الهيئة التي ليس كمثلها شيء كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، ويُطْلَقُ القرب عَلى الرَّجاءِ مَجازًا، يُقالُ: الفرج قَرِيبٌ، أيْ: يرجى تحقُّقه، ومِنهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧][1].

بذلك تشعر بوضوحٍ بمعنى قرب رحمة الله ﷻ من المحسنين، فَقُرْبُها يعني تحقُّق وقوعها؛ لأنها مجاورة لهم، دانية منهم، يجدونها عندما يطلبونها، كما قال بعضهم:

فاصبر لها، فلعلَّها، ولعلَّها ... ولعلَّ من خلقَ السَّماءَ يحلُّها

القِسم الرابع: ﴿مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ المحسنون: جمع محسن، والمحسن هو المتقن الذي صدر منه الإحسان في أسلوبه وطبيعة عملة ونتيجة عمله، والإحسان المطلوب يكون في عدَّة أوجه:

أحسنوا في الدُّعاء، بأن تأتوا به على الوجه الأكمل.

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٧).

وأحسنوا في ترقُّب النَّتيجة من الدُّعاء بأن تحسنوا الظنَّ بربِّكم ﷻ، وتترقبوا الفرج العاجل.

وأحسنوا في العبادات.

وأحسنوا في المعاملات.

وأحسنوا في واجباتكم الدُّنيويَّة، مثل: الإحسان في الوظيفة التي تقومون بها، أو في التجارة، أو الفلاحة التي تمتهنونها، ، أو أي عملٍ وُسِّدَ إليكم، فإنَّ اللهَ ﷻ محسنٌ يحبُّ الإحسان في كلِّ شيء، ويحبُّ من أحدكم إذا عملَ عملًا أن يتقنه، كما قضت بذلك الآثار عن النَّبيِّ ﷺ.

ومن أعظم صفات المحسنين المتقنين لأعمالهم، المستبصرين في أفكارهم أن يتبعوا الحقَّ، وأوضح الحقِّ محمد ﷺ، وذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فمن أحسن في الدُّنيا نال أحسن الثَّواب في الدُّنيا أو الآخرة، أو فيهما معًا.

وأحسنوا مع الدُّعاء باكتساب أفعال الإحسان التي تجعل الرَّحمة دانية قريبة منكم كما قال النبي قال ﷺ: «الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»(١)، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: «ارْحَمُوا تُرْحَمُوا، وَاغْفِرُوا يَغْفِرِ اللهُ لَكُمْ، وَيْلٌ لأَقْمَاعِ الْقَوْلِ، وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ

(١) أبو داود (٤٩٤١)، وصححه الأرناؤوط لغيره، وكذا الألباني في الصحيحة (٩٢٥).

عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[١]، وَقَالَ مَطَرٌ الْوَرَّاقُ رحمه الله: «تَنَجَّزوا مَوْعُودَ اللهِ بِطَاعَة الله، فَإِنَّهُ قَضَى أَنَّ رَحْمَتَهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ»[٢].

ولاحظ أن الله ﷻ أظهر الاسم الكريم ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولم يقل: إن رحمته قريب من المحسنين، فهذا إظهار في مقام الإضمار؛ إذ الأصل أن يقول: قريب منكم، ولَكِنَّهُ أظْهَرَ لفظ الجلالة؛ تَعْمِيمًا وتعظيمًا، وتبجيلًا وتكريمًا، وحثًّا للناس على الاتصاف به، وأظهر صفة المستهدف بالرَّحمة ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ولو قال: إن رحمته قريب منكم لساغ، باعتبار دلالات ما قبلها، ولكنه عدل عن الإضمار إلى الإظهار؛ تنبيهًا على أنه ظاهر برحمته، قريب من محسني خلقه، يجازيهم بمثل فعالهم، وهل جزاء الإحسان إلا بمثله، وبذا تكون رحمة الله ﷻ في متناول المحسنين لقربها منهم.

وهنا نتساءل: فلماذا خصَّ الله ﷻ المحسنين بذكر قرب رحمته منهم، ولم يذكر المؤمنين مع أنه قال عنهم في موضع آخر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؟

الجواب: ذكر المحسنين هنا ولم يذكر غيرهم ليحثَّ الجميع على أن يبذلوا جهدًا أكبر لينتقلوا من مرتبة الإيمان العامِّ إلى أعلى مراتب الإيمان، وهي مرتبة الإحسان؛ ليكونوا أكثر استحقاقًا وجدارة في تقرُّبهم من ربِّهم ﷻ، والمقصود هنا المؤمنون الدَّاعون، وأما آية سورة

---

(١) أحمد (٦٥٤١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٤٠): «رَوَاهُ أَحْمد بِإِسْنَاد جيد»، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩١): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعي، ووثقه ابن حبان، ورواه الطبراني كذلك».

(٢) تفسير ابْن أَبِي حَاتِمٍ (٨٦٠٤).

الأحزاب ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فهو خبر عن الرَّحمة العامَّة لله ﷻ بالمؤمنين، وهنا كلام عن رحمة خاصَّة يطلبها الدَّاعون.

فيكافئ الله ﷻ المحسنين برحمته، والرَّحمة كلمة شاملة لكلِّ ما يُفرَحُ به من جلب النِّعم ودرء النِّقم، فيدخل في معانيها كلُّ ما يأتيك من خيرٍ وفرحٍ، وسرور ماديٍّ أو معنويٍّ، ويدخل فيها رحمة الآخرة التي قال عنها الطَّبريُّ رحمه الله: «إن ثواب الله ﷻ الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدُّنيا قريبٌ منهم، وذلك هو رحمته، لأنه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدَّ لهم من كرامته، إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم»(١).

ولا بد أن نتساءل: ما الحكمة من تذكير لفظ (قريب) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فلمْ يقل: إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبَةٌ مِنَ المُحْسِنِينَ؟

الجواب: ينبغي أن نقرِّر أولًا: أن عربية القرآن العظيم هي أفصح عربية طرقت أذن الزَّمان، فما جاء فيه من أساليب عربية فيحسن أن نفيد منها، ونجعلها قواعد حاكمة للغة العربية، ولذا قال محمد رشيد رضا رحمه الله في كلام تأصيليٍّ متينٍ: «الِاسْتِعْمَالُ قَدْ وَرَدَ فِي أَفْصَحِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ وَأَعْلَاهُ، فَمَنْ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِمَّا عَلَّلُوهُ بِهِ لِطَرْدِ قَوَاعِدِهِمْ قَالَ بِهِ، وَمَنْ لَمْ يُعْجِبْهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلْيَقُلْ إِنَّ هَذَا مِنَ السَّمَاعِيِّ، وَمَا هُوَ بِبِدَعٍ فِي هَذِهِ اللُّغَةِ وَلَا فِي غَيْرِهَا»(٢).

ودعنا الآن نبين جمال هذا التركيب العظيم ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فقد قرَّر الفرَّاء وأبو عُبَيْدَةَ والطَّبريُّ رحمهم الله أن تذكير قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾ الذي هو خبر "الرحمة"، و"الرحمة" مؤنثة، لأنه أريد به القُرْب في الحال لا في النَّسب، فالقُرْب والبُعد إذا أُطْلِقَا عَلى

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٧).

(٢) تفسير المنار، (٨/ ٤١٣).

علاقة النَّسَبِ فَهو مَعَ المُؤَنَّثِ بِتاءٍ ولا بُدَّ، فيقال: فلانة بعيدة في نسبها عن بيت كذا، وفلان قريب في نَسَبه.

وأما إذا كان المقصود من القُرْب والبُعد الحال لا النَّسَب، فإن التَّذكير هو المستعمل فحسب، ومن ذلك قول الله تَعالى عن العقوبة التي أصابت قوم لوط عليه السلام: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، ولم يقل: بعيدة؛ لأن الأمر لا يتعلق بالنَّسَب، بل بالحال والواقع، وقالت العرب: «كرامة الله عز وجل بعيد أو قريب من فلان»؛ لأن معنى ذلك: هي في مكان بعيد أو قريب منه، فإذا حذفوا المكان وجعلوا "القريب" خَلَفًا منه، ذكَّروه ووحَّدوه في الجمع، كما كان المكان مذكَّرًا وموحَّدًا في الجمع، وأمَّا إذا أنَّثوه، أخرجوه مثنى مع الاثنين، ومجموعًا مع الجميع، فقالوا: "هي قريبة منَّا"، و"هما منَّا قريبتان"، كما قال عروة بن الورد:

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ ... فَتَدْنُو، وَلا عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدُ

وَإِنِّي لَتَغْشَانِي لِذِكْرَاكِ فَتْرَةٌ ... لَهَا بَيْنَ جِلْدِي وَالْعِظَامِ دَبِيبُ[1]

فأنَّث "قريبة"، وذكَّر "بعيدًا"، ولو كان "القريب"، من "القرابة" في النَّسَب، لم يكن مع المؤنَّث إلا مؤنَّثًا، ومع الجميع إلا مجموعًا[2].

---

(١) ذكر الشيخ أحمد شاكر أن الصحيح أنه عروة بن حزام، وذكر أنه في ديوانه، وعند الرجوع إلى ديوانه (ص: ٢٧، ٣٠)، وجدته بتقديم الثاني على الأول وبينهما عدة أبيات، وبلفظ:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ رَعْدَةٌ ... لَهَا بَيْنَ جِسمي وَالْعِظَامِ دَبِيبُ

عَشِيَّةَ لا عَفْرَاءُ دانٍ مَزَارُهَا ... فترجى، وَلا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبُ

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٤٨٨)، قال ابن عاشور رحمه الله: «ولَمّا كانَ إطْلاقُهُ في هَذِهِ الآيِ عَلى وجْهِ الِاسْتِعارَةِ مِن قُرْبِ المَسافَةِ جَرى عَلى الشّائِعِ في اسْتِعْمالِهِ في المَعْنى الحَقِيقِيِّ، وهَذا مِن لَطِيفِ الفُرُوقِ العَرَبِيَّةِ في اسْتِعْمالِ المُشْتَرَكِ إزالَةً لِلْإبْهامِ بِقَدْرِ الإمْكانِ، وقيل: لِأنَّها مُضافَةٌ إلَى اللهِ، فَلِهَذا قالَ: قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ؛ فالْمُرادُ أنَّهُ تَعالَى قَرِيبٌ بِرَحْمَتِهِ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، كَما أنَّهُ

بصيرة: جاء التَّذكير في كلمة ﴿قريب﴾ هنا لغاية عظيمة؛ إذ أراد الله ﷻ بالقُرْب قُرْب الحال مكانًا وزمانًا، فرحمة الله ﷻ قريب مكانُها من مكان المحسن، وقريب زمانُها من زمان المحسن، وقريب وقوعُها من المحسن، ومسافة القُرْب بين رحمة الله ﷻ وبين المحسن بحسب إحسانه، فقد تكون أقرب إليه من حبل الوريد، فليستبشر عند إحسانه.

ولأنَّ من آداب الدُّعاء الإحسانَ شرع الله ﷻ لنا مع صيام رمضان كثرة التَّصدُّق، وختم ذلك بإلزامنا بأن نتصدَّق صدقة الفِطر؛ لأن ذلك أدعى لقبول أعمالنا وإجابة دعائنا.

وقد حكوا أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله حَدَث له شيء يقرِّب لنا معنى عظمة الرَّحمة الإلهيَّة، ومعنى قُرْبها من المحسنين، فذكروا أنه خرج في عيد الفطر، فتصدَّق قبل الخطبة، ثم خطبهم، فدعا، فقال ما معناه:

- اللَّهُمَّ إنَّك قلتَ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، والصَّدقة إحسان، اللَّهُمَّ فاجعل رحمتك عليَّ، ثم سكت ثم قال:
- اللَّهُمَّ إن لم أكن أهلًا لأن أبلغ رحمتك بذلك، فقد قلت: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، اللَّهُمَّ قد قلتُ: لا إله إلا الله محمَّد رسول الله ﷺ فأنا مؤمن، فاجعل رحمتك عليَّ.

قَرِيبٌ بِعِلْمِهِ وَإِجَابَتِهِ مِنَ الدَّاعِينَ. وَكَثِيرًا مَا يُعْطَى الْمُضَافُ صِفَةَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ وَضَمِيرُهُ. وذهب بعضهم إلى أن الله ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ مَعْنَى الثَّوَابِ، أَوْ معنى الإحسان، والمعنى: أَنَّ إِحْسَانَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ». التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٧، ١٧٨).

- اللَّهُمَّ إن لم أكن أهلًا لأن تبلغني رحمتك بذلك، فأنا شيء، وقد قلت: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، اللَّهُمَّ فاجعل رحمتك عليَّ.
- اللَّهُمَّ إن لم أكن أهلًا لأن أبلغ رحمتك بذلك، فأنا مصابٌ بمصيبة عدم وصول الرَّحمة إليَّ، وأنا أقول في المصيبة: (إنَّا لله وإنا إليه راجعون)، وقد قلت: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البَقَرَة: ١٥٦-١٥٧] اللَّهُمَّ فاجعل رحمتك عليَّ[1].

فانظر لإحاطة رحمة الله ﷻ بالإنسان، وقُرْبها منه.. اللَّهُمَّ فاجعل لنا منها أوفر الحظِّ والنَّصيب.

(١) القصة ربما تكون وقع شيء يشبهها، ولكننا سقناها هذا المساق لتستبين عظمة الرحمة الإلهيَّة، وجمال التدبر حتى لو لم تكن القصة واقعة. ذكر بداية القصة أبو نعيم. ينظر: حلية الأولياء (٥/ ٢٩٨).

المَعْلم التَّعريفيُّ العاشر: إحياء البلد الميت بالماء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

المناسبة والاتصال:

قد تسأل: ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما سبق؟ وما نوع هذه الواو في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧]؟

الجواب: سبق أن ذكر الله ﷻ المعالم التَّعريفيَّة التي تعرِّف به، وهنا يكمل هذه المعالم، فلفت الله ﷻ نظرنا هنا إلى عملية إحياء الأرض الموات، وكان ذكرها بعد ما سبق في غاية الحسن لما يأتي:

أولًا: ناسب أن يذكر إحياء البلد الميت بالماء بعد الدُّعاء؛ ليبين أن نزول الماء منه ما يكون منتظمًا حيث جعل الله ﷻ له سُنَنًا وأسبابًا مادِّيَّة، ومنه ما يأتي بعد الدُّعاء المتضرِّع المخلص الذي يلتزم أصحابه بآداب الدُّعاء.

ثانيًا: ترى مناسبة عظيمة أخرى ينبئك بها حديث القرآن عن حرمة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، فهاهو الله ﷻ يصلحها بالماء الذي ينبت الله ﷻ به من كلِّ الثَّمرات، فبذلك يبثُّ الحياة الإنسانيَّة القائمة على توفُّر الأمن الغذائيِّ؛ لأن جميع الثمرات موجودة، إذ تتوفَّر الكفاية لكلِّ البشريَّة، فعن الماء تنشأ الثَّروة النَّباتيَّة، وعنها تنشأ الثَّروة الحيوانيَّة؛ لأن الثَّروة الحيوانيَّة تعتمد على الثَّروة النَّباتيَّة، وبالثَّروة النَّباتيَّة والحيوانيَّة والماء والمواد تنهض وتقام الثَّروات الصِّناعيَّة، ويحدث التَّبادل بين أفراد العالم، وتنمو الحياة وتزدهر.. وأساس كلِّ ذلك إحياء البلد الميت بالماء الذي يُخرِج الله ﷻ به من كلِّ الثمرات؛ ولذلك كان حقيقًا أن يسمِّي الله ﷻ الماء رحمة، كأنه لا توجد مظاهر الرَّحمة بهذه الكثافة في شيء كما توجد في الماء، إذًا أساس كل هذه الثروات إحياء البلد الميت بالماء.

بصيرة: يحيي الله ﷻ الأرض الميتة بالماء، فيُخرج به من كلِّ الثَّمرات، ويبثُّ الحياة الإنسانيَّة فيوفِّر لها الأمن الغذائيَّ، وتنمو الحياة وتزدهر؛ ولذلك كان حقيقًا أن يسمِّي الله ﷻ الماء رحمة، كأنه لا توجد مظاهر الرَّحمة بهذه الكثافة في شيء كما توجد في الماء.

وقد ذكر الله ﷻ الماء؛ لأن دوام صلاح الأرض كلِّها لا يكون إلا به، فهو من أجَلِّ أنْواعِ الرَّحْمَةِ، والماء لا يَكُونُ إلّا بِالسَّحابِ، والسَّحاب لا يتحرَّك إلّا بِالرِّيحِ بتعبير البقاعي ﷺ، فجمع الله ﷻ ذكرها جميعًا هنا.

فذكر الله ﷻ شكلًا من أشكال إصلاح الأرض، ونهى عن الإفساد فيها، وأخبرنا أنني أصلحت لكم الأرض بهذه الطريقة فانتبهوا أن تدمِّروها بأيديكم.

ثالثًا: مال الرَّازيُّ ﷺ في بيان قوَّة اتِّصال النَّظْم القرآنيِّ هنا إلى أنَّهُ تَعالى لَمَّا ذَكَرَ دَلائِلَ الإلهيَّة، وكَمالَ العِلْمِ والقُدْرَةِ مِنَ العالَمِ العُلْوِيِّ، وهو السَّمَوَات والشَّمْسُ والقَمَرُ والنُّجُومُ، أتْبَعَهُ بِذِكْرِ الدَّلائِلِ مِن بَعْضِ أحْوالِ القدرة الإلهيَّة في العالَمِ السُّفْلِيِّ. وأحْوال هَذا العالَمِ مَحْصُورَةٌ في أُمُورٍ أرْبَعَةٍ: الآثارُ العُلْوِيَّةُ، والمَعادِنُ، والنَّباتُ، والحَيَوانُ، ومِن جُمْلَةِ الآثارِ العُلْوِيَّةِ الرِّياحُ، والسَّحابُ، والأمْطارُ، ويَتَرَتَّبُ عَلى نُزُولِ الأمْطارِ أحْوالُ النَّباتِ، وذَلِكَ هو المَذْكُورُ في هَذِهِ الآيَةِ، وبذلك يكون الواو في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧] لعطف هذه عَلَى مَا بَيَّنَ بِهِ تَعَالَى تَدْبِيرَهُ لِأَمْرِ الْعَالَمِ فِي إِثْرِ إِثْبَاتِهِ لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] (١).

(١) تفسير الرازي (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧).

رابعًا: عرَّفنا الله ﷻ في الآية (٥٤) من هذه السورة بمبدأ الحياة، فهو الأول الذي ليس قبله شيء، وهذه الآية توقفنا لنتعرَّف إلى الله ﷻ من خلال تدبيره لإحياء الأرض بعد موتها، وتسخيره للرِّياح والسَّحاب والماء والأرض، فتعرَّفنا من هذه المشاهدات بكيفية الحياة الأخرى الغيبية، إذ قال في آخر هذه الآية: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وبذلك يجمع الله ﷻ بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر.

خامسًا: ختمت الآية التي قبلها بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وفي هذه الآية يفتح السِّياق مرَّة أخرى للقلب البشري صفحةً من صفحات الكون المعروضة للأنظار.. إنها صفحة يفتحها على ذكر رحمة الله ﷻ في الآية السَّابقة أنموذجًا لرحمة الله في صورة الماء النازل لبثِّ الحياة في الآفاق، وإنعاشها بعد الموات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فإن قلت: ما الفكرة الأساسيَّة التي تدور حولها الآية؟

الجواب:

تدور الفكرة الأساسية لهذه الآية حول لوحة بهية جميلة تأخذ الأنفاس، ترى فيها نماذج لقدرة الله ﷻ التي تبشر برحمته، إنك ترى:

صورة الرياح المبشرة، ونسماتها العليلة، وحركتها الجذَّابة، وليس ريحها المدمِّرة، وترى السَّحاب الثِّقال المتراكم تسوقها الرِّياح سوقًا خفيفًا رفيقًا دون أن تدمِّر، فتتحرَّك وتتراكم وتجتمع حتى تصل إلى مكانٍ يحدِّده الله ﷻ، وقد أحاط بالأرض، وتشاهد الماء الهاطل، وترى الزَّرع النامي، والحياة النابضة بعد الموت والخمود، وقد ذكر الله -جلَّ ذِكرُه- مراحل متوالية لهذه الآيات الباهرة في إحياء البلد الميت.

مراحل إحياء البلد الميت

مرحلة [1] — إرسال الرِّياح

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: 57].

مرحلة [2] — النَّشر والتَّبشير

﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 57]، بناء على القراءات الواردة في كلمة ﴿بُشْرًۢا﴾.

مرحلة [3] — السحاب الثقال

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: 57].

مرحلة [4] — نزول الماء

﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: 57].

مرحلة [5] — ظهور الحياة، وبُدُوُّ الثمرات

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الحجر: 26].

مرحلة [6] — "الحاضر والغائب "الغيب والشهادة والحياة الآخرة

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأعراف: 57].

مرحلة [7] — التذكر، فالعقل والقلب يتذكران فيُكبران

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57].

مراحل إحياء البلد الميت:

المرحلة الأولى: إرسال الرِّياح ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

ما تعريف الرياح؟

الجواب: لكي يعرف الإنسان جمال القرآن لا بدَّ أن يعرف الجمال اللُّغويَّ لكلِّ مفردة، فالرياح: جمع ريح، وكلمة (الريح) مُؤَنَّثَةٌ، وَقَدْ تُذَكَّرُ: بِمَعْنَى الْهَوَاءِ [(١)]، مشتقة من (رَوَحَ)، وهي: كلمة تدُلُّ عَلَى سَعَةٍ وَفُسْحَةٍ وَاطِّرَادٍ، وَالرَّوْحُ: نَسِيمُ الرِّيحِ، وَيُقَالُ أَرَاحَ الْإِنْسَانُ، إِذَا تَنَفَّسَ، فيقال: وَجَد رَوْح الشَّمَال: أي بَرْدَ نسيمها، ثم تأتي بمعنى الرَّاحة، والرَّحمة، والسُّرور، والفَرَج؛ (لانبساط النَّفس وخفَّتِها، كما يقال: نفَّس عنه): ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وتجمع الرِّيح على: رِيَاح، وَأَرْوَاح، وَكَذَا أَرْيَاح، ومادة الرِّياح: الهواء المتحرِّك، وَالْهَوَاءُ من شروط وجود الحياة، وقد جعله الله ﷻ مشاعًا للخلق، فلا يستطيع أحدٌ أن يتحكَّم ببيعه أو شرائه ، وتصوَّر موضعًا بدون هواء! لا يمكن أن يستمر من فيه على قيد الحياة إلا بضع ثوانٍ.

وتتكوَّن الرياح عندما تتحرَّك كُتَلٌ من الهواء بشكل أفقيٍّ من مناطق الضَّغط الجويِّ العالي، متَّجهة إلى مناطق الضَّغط الجويِّ المنخفض، وتتأثَّر الرِّياح بدوران الأرض حول نفسها، وحول الشمس، وتتنوَّع طريقة تشكيلها ومدَّة استمرارها، وتَحْدُثُ الرِّياح نتيجة للتَّسخين غير المتساوي بالغلاف الجويِّ؛ لأنَّ الشَّمس تسخِّن سطح الأرض بطريقة غير متساوية، فنجد أن الهواء الموجود بالمناطق الحارَّة يرتفع ليحلَّ محلَّه هواءٌ بارد.

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٤٥٥)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٦٩)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ٧٧١).

وإذا كان أصل الرياح هواء، فمن أوجده؟ ومن مَنَحَه خاصِّية الحركة بعد الإيجاد؟ من الذي جعله مجَّانًا لا يستطيع الإنسان أن يتحكَّم به، إلا في حدود ضيقة شديدة الضِّيق؟ من الذي منح كلَّ ذلك؟ إنه الله جلَّ في علاه. انظر كيف يحاول طغاة العالم السَّيطرة على منابع المياه من أجل التَّحكُّم الإستراتيجيِّ، وتخيَّل لو كانوا يقدرون على التَّحكُّم بالهواء! والله ﷻ يقول في سورة بني إسرائيل: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: ١٠٠] الحمد لله، فلم يُمكِّنْهُم الله ﷻ من الهواء، وإلا لفعلوا الأفاعيل.

وقد تتساءل: ما القراءات الواردة في كلمة ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾؟ وما المشاهد التي تصوِّرها؟

الجواب: في كلمة (الريح) قراءتان:

القراءة الأولى: قرأ ابْنُ كَثِيرٍ وحَمْزَةُ والكِسائِيُّ وخلف العاشر كلمة ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ هنا بالتوحيد، عَلى إرادَةِ الجِنْسِ، وحقَّق ابن عاشور ﵀ أن الإفْرادَ قَدْ يُرادُ بِهِ أنَّها مَدْفُوعَةٌ دُفْعَةً واحِدَةً قَوِيَّةً، لا فَتْرَةَ بَيْنَ هَبَّاتِها.

القراءة الثانية: قرأ الجمهور ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع لبيان تنوُّعِها، وقَدْ يُرادُ بِالجمع تَعَدُّدُ الـمَهابِّ أوْ حُصُولُ الفَتَراتِ في الهُبُوبِ، تأتي ثم تَسْكُن، ثم تأتي ريح أخرى فتدفعها، ثم تَسْكُن، وهكذا[1].

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٧٩).

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «لَعَلَّ حِكْمَةَ الْقِرَاءَتَيْنِ أَنَّ الرِّيحَ الْوَاحِدَةَ تُبَشِّرُ بِالْمَطَرِ أَحْيَانًا أَوْ فِي بَعْضِ الْأَقْطَارِ كَمَا تُبَشِّرُ بِهِ رِيحَانِ فِي قُطْرٍ آخَرَ، أَوْ أَنَّ الرِّيَاحَ بِأَنْوَاعِهَا تُبَشِّرُ بِالْمَطَرِ فِي الْأَقْطَارِ الْمُخْتَلِفَةِ»(١).

ونستطيع القول: إن الفرق بين قراءة الإفراد والجمع أن الرِّيح عبارة عن ريح واحدة تدفع السَّحاب دفعة واحدة حتى توصله إلى مكانه، أما الرِّياح فهي تدفعه فيظنُّ الناس وقد وقف السحاب في هذا المكان أن المطر سينزل بهذا المكان ثم لا ينزل، ثم تأتي رياح أخرى فتدفعه وهكذا. قد ينزل على بُعْدِ مائة كيلو، مائتي كيلو، (فانظر إلى آثار رحمة الله) بحسب ما يقسم الله عز وجل بين عباده.

وأَنْواعُ الرياح خَمْسٌ: جَنُوبٌ، وشَمالٌ، وَالثَّالِثَةُ: الصَّبَا وَالْقَبُولُ وَهِيَ الشَّرْقِيَّةُ، وَالرَّابِعَةُ: الدَّبُورُ، وَهِيَ الْغَرْبِيَّةُ، والخامسة: نَكْباءُ، مُؤَنَّثُ الْأَنْكَبِ، وهي كُلُّ رِيحٍ انْحَرَفَتْ فَوَقَعَتْ بَيْنَ رِيحَيْنِ، أي: لا هي شمالية ولا جنوبية، ولا شرقية ولا غربية، وإنما هي متوسطة بين جهتين، وَهِيَ مِنْ قَوْلِهِمْ: نَكَبَ عَنِ الشَّيْءِ أَوْ عَنِ الطَّرِيقِ نَكْبًا وَنُكُوبًا: إِذَا انْحَرَفَ وَتَحَوَّلَ عَنْهُ، وَمِنْهُ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، وَإِذَا هَبَّتِ الرِّيَاحُ مِنْ مَهَابِّ وَنَوَاحٍ مُخْتَلِفَةٍ سَمَّوْهَا الْمُتَنَاوِحَةَ، وتتعاون بعض هذه الأنواع على تكوين السَّحَابِ الْمُمْطِرِ، حيث تقول العرب: إِنَّ الصَّبَا تُثِيرُهُ، وَالشَّمَالَ تَجْمَعُهُ، وَالْجَنُوبَ تُدِرُّهُ، وَالدَّبُورَ تُفَرِّقُهُ. قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي وَصْفِ سَحَابٍ مُمْطِرٍ دَعَا لِبِلَادِهِ بِهِ:

جَـونٌ أَعَـارَتْـهُ الْـجَـنُـوبُ جَـانِـبًـا ... مِنْهَا وَوَاصَـلَـتْ صَـوْبَـهُ يَـدُ الصَّـبَـا

ثُمَّ قَالَ:

---

(١) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

إِذَا خَبَتْ بُرُوقُهُ عَنَّتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا تُثِيرُ مِنْهُ مَا خَبَا
وَإِنْ وَنَتْ رُعُودُهُ حَدَا بِهَا حَادِي الْجَنُوبِ فَحَدَتْ كَمَا حَدَا[1]

وقد تسأل: هل عادة القرآن في استعمال كلمة (الرِّيح) و(الرِّياح) متماثلة أم متباينة؟

الجواب: يرى الراغب ﵀ أن الاستعمال القرآني لهاتين الكلمتين مطَّرد في الغالب، إذ قَالَ: «إِنْ عَامَّةَ الْمَوَاضِعِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا إِرْسَالَ الرِّيحِ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ فَعِبَارَةٌ عَنِ الْعَذَابِ، وَكُلُّ مَوْضِعٍ ذُكِرَ بِلَفْظِ الْجَمْعِ فَعِبَارَةٌ عَنِ الرَّحْمَةِ»[2]، واستدل ببعض النُّصوص، ومن ذلك حديث: «اللَّهمَّ اجعلها رياحًا، ولا تجعلها ريحًا»، والذي قرَّره الرَّاغب ﵀ ليس مطَّردًا عند الاستقراء، وهذا الحديث ضعيف، وقد أنكره الطَّحاويُّ ﵀ فقال:

«قال أبو عبيد ﵀: القراءة التي سمعتها في الرِّيح والرِّياح أنَّ ما كان منها من الرَّحمة فإنه جمع، وما كان منها من العذاب فإنه على واحدة، قال: والأصل الذي اعتبرنا به هذه القراءة حديث النَّبيِّ ﷺ أنه كان إذا هاجت الريح قال: «اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا»، فكان ما حكاه أبو عبيد ﵀ من هذا عن رسول الله ﷺ ممَّا لا أصل له، وقد كان الأولى به لجلالة قَدْره ولصِدْقه في روايته غير هذا الحديث أن لا يضيف إلى رسول الله ﷺ ما لا يعرفه أهل الحديث عنه.

ثم اعتبرنا في كتاب الله تعالى ممَّا يدلُّ على الواحد في هذا المعنى؛ فوجدنا الله تبارك وتعالى قد قال في كتابه العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]، فكانت

(١) تفسير المنار (٨/ ٤١٤)، والأبيات لابن دريد، أوردها المرزوقي في أماليه (ص: ٣١٢)، وفيه: (تَشُبُّ) بدلًا من (تثير)، وفيه أيضًا (راعي الجنوب) بدلًا من (حادي الجنوب).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٧٠).

الرِّيح الطَّيِّبة من الله تعالى رحمة، والرِّيح العاصف منه ﷻ عذابًا. ففي ذلك ما قد دلَّ على انتفاء ما رواه أبو عبيد ﷺ ممَّا ذكره»[(١)].

وقرر محمد رشيد رضا ﷺ أن مَنِ اسْتَقْرَأَ الْآيَاتِ فِي ذَلِكَ رَأَى أَنَّ الْجَمْعَ لَمْ يُذْكَرْ إِلَّا فِي بَيَانِ آيَاتِ اللهِ أَوْ رَحْمَتِهِ وَلَا سِيَّمَا رَحْمَةُ الْمَطَرِ، وَأَمَّا الرِّيحُ الْمُفْرَدَةُ فَذُكِرَتْ فِي عَذَابِ قَوْمِ عَادٍ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ، وَفِي ضَرْبِ الْمَثَلِ لِلْعَذَابِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: ١١٧]... وَلَكِنَّهَا وَرَدَتْ فِي الْأَمْرَيْنِ بِالتَّقَابُلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢] الْآيَةَ، وَوَرَدَتْ فِي مَقَامِ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ بِتَسْخِيرِهَا لِسُلَيْمَانَ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَسَبَإٍ وَصَ[(٢)].

فإن قلت: ما أنواع الرِّياح المذكورة في القرآن المجيد؟

الجواب: يبين ابْن عُمَرَ ﷺ أنواع الرياح في تدبُّر ماتع للقرآن المجيد، فيقول:

الرِّياحُ ثَمانٍ: أرْبَعَةٌ مِنها عَذابٌ، وهو القاصِفُ، والعاصِفُ، والصَّرْصَرُ، والعَقِيمُ، وأرْبَعَةٌ مِنها رَحْمَةٌ: النّاشِراتُ، والمُبَشِّراتُ، والمُرْسَلاتُ، والذّارِياتُ، وذكر النَّبِيُّ ﷺ بعض أنواع الرياح، فقال: «نُصِرْتُ بِالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بِالدَّبُورِ»[(٣)]، وللرِّياح فوائدها العظيمة في حماية الإنسان، وتيسير حياته، والمحافظة على الأرض، وتلقيح النَّباتات، ويبيِّن كَعْب الأحبار ﷺ

---

(١) مشكل الآثار (١/ ٣٩٧-٣٩٨)، والحديث في مسند الشافعي- ترتيب السندي (٥٠٢)، والمعجم الكبير للطبراني (١١٥٣٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٣٦): «وفيه حسين بن قيس الرحبي، أبو علي الواسطي، الملقب بحنش، وهو متروك، وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح»، وانظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٩/ ٢٢٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

(٣) البخاري (١٠٣٥)، مسلم (٩٠٠).

الهلاك الذي يحلُّ على العالم لو اختفت الرِّيح، فيقول: «لَوْ حَبَسَ اللهُ ﷻ الرِّيحَ عَنْ عِبادِهِ ثَلاثَةَ أيّامٍ لَأنْتَنَ أكْثَرُ الأرْضِ»؛ لأنَّ الرِّياح لا يقتصر عملها على أن تحرك السحاب بل تثير الأرض، وتحرك الحياة بما تحتاج إليه، وتصفي الأتربة.

إذا عَرَفْتَ هَذا فَنَقُولُ: اخْتِلافُ الرِّياحِ في الصِّفاتِ المَذْكُورَةِ، مَعَ أنَّ طَبِيعَةَ الهَواءِ واحِدَةٌ، وتَأْثِيراتُ الطَّبائِعِ والأنْجُمِ والأفْلاكِ واحِدَةٌ، يَدُلُّ عَلى أنَّ هَذِهِ الأحْوالَ لَمْ تَحْصُلْ إلّا بِتَدْبِيرِ الفاعِلِ المُخْتارِ ﷻ[1].

بصيرة: يجلِّي الله ﷻ لعباده قدرته المطلقة بالتَّذكير بعظيم آياته وجزيل آلائه ليعلِّق قلوبهم بحضرته، فلتلهج الألسن عليه بالثناء، وتخفق القلوب إليه بالدُّعاء.

فإن قلت: ما الذي يفيدنا حرف العطف الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾؟

الجواب: قَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧] مَعْطُوفٌ عَلى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والتقدير: إن ربكم الله الذي خلق السَّمَوات والأرض، وهو الذي يرسل الرياح.

وقد اختصر هنا في الكلام، فكأنه -جلَّ ذِكرُه- قال: وهو الذي خلق الهواء، وخلق الأسباب التي تجعله ريحًا، وعدَّد أنواع الريح المختلفة، فجعل منها ريحًا، وجعل منها رياحًا من جهات متعدِّدة، وبقدرات متنوِّعة، وأرسل الرِّياح بشرًا بين يدي رحمته، أنعم النظر، فهذا الكلام كله نفهمه من الواو.

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٩).

وبعد أن وضحت لنا معاني كلمة (الريح) نعود مجدَّدًا للتركيب في قول الله جلَّ ذِكرُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]؟ لماذا لم يقل: وهو الذي يسير الرياح؟

الجواب: في لفظ: ﴿يُرۡسِلُ﴾ من اللُّطف ورشاقة المبنى والمعنى ما لا يخفى؛ إذ من معاني هذا الأصل (ر س ل) في اللغة: التُّؤَدة والرِّفق، والسَّعة واللُّطف، والرَّسِيلُ، كأَمِيرٍ: الْوَاسِعُ، والشَّيْءُ اللَّطِيفُ أَيْضًا، والتَّرسُّل كالرِّسْل، والتَّرسُّلُ في القراءة والترسيل واحد وهو التحقيق بلا عَجَلة، وقيل: بعضُه على أثر بعض، وتَرَسَّل في قراءته اتَّأَد فيها، وفي الحديث: «كان في كلامه تَرْسِيلٌ»[(١)] أي: ترتيل، يقال: تَرَسَّلَ الرجلُ في كلامه ومشيه إذا لم يَعْجَل، وهو والترسُّل سواء، وفي الحديث: «إذا أَذَّنْتَ فترَسَّلْ»[(٢)] أي: تَأَنَّ ولا تَعْجَل، ونَاقَةٌ مِرْسَالٌ: سَهْلَةُ السَّيْرِ، مِن نُوقٍ مَرَاسِيلَ، وَقيل: المَرَاسِيلُ: الْخِفافُ، الَّتِي تُعْطِيكَ مَا عندَها عَفْوًا، الواحدَةُ رَسْلَةٌ[(٣)]، قالَ كَعْبُ بنُ زُهَيْرٍ ﷺ:

أَمْسَتْ سُعادُ بأَرْضٍ لَا يُبَلِّغُها ... إِلَّا العِتاقُ النَّجِياتُ الْمَراسِيلُ[(٤)]

ولست بواجد لوصف الريح التي يسوقها الله ﷻ إلى عباده فيحيي بها موات أرضهم أدقَّ وألطفَ من لفظ: ﴿يُرۡسِلُ﴾.

عرفنا أن المرحلة الأولى هي إرسال الرِّيح، ثم قال الله ﷻ: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧]، فما المرحلة الثانية التي تمرُّ بها الدُّورة المائية لإحياء الأرض كما وصفتها الآية؟

الجواب:

---

(١) أبو داود، (٤٨٣٨). قال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤٨٣٨).

(٢) الترمذي (١٩٥)، قال الذهبي: فيه عمرو بن فائد. قال الدارقطني: متروك. مختصر تلخيص الذهبي (١/ ١٦٥).

(٣) ينظر: لسان العرب (١١/ ٢٨٢)، تاج العروس (٢٩/ ٧٦).

(٤) ينظر: جمهرة أشعار العرب (ص: ٦٣٤).

المرحلة الثانية: النَّشر والتَّبشير ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

تترتب هذه المرحلة على التنوع القرائي المعجز في كلمة: ﴿بُشْرًۢا﴾، فما القراءات الواردة فيها ؟ وما المشاهد المتنوعة التي تصوِّرها؟

الجواب: في كلمة: ﴿بُشْرًۢا﴾، أربعُ قراءات توضِّح ثلاثة مشاهد مختلفة:

المشهد الأول: تصوِّره قراءة أهل المدينة وعامَّة المكِّيين والبصريين، وهم نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمر ويعقوب[1]، فإنهم قرؤوا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ نُشُرًۢا﴾، بضم "النون" و"الشين" جمع "نَشور"، كما يجمع رَسُول على رُسُل، و"صَبور" على "صُبُر"، والنُّشُورُ بِمَعْنى الـمُنْشَرِ، كالرَّكُوبِ بِمَعْنى الـمَرْكُوبِ، والنَّشر بَسْطُ ما كانَ مَطْوِيًّا، فتقول مثلًا: انشر لي هذه البُسُط والثِّياب، وانشر الخشب بالمنشار، أي: فَرِّق أجزاءها، وكأن هذه القراءة تشير إلى أنَّ الرِّياح كانت مضمومة ملمومة مختزنة في مكانٍ ما، فإذا بالله تعالى ينشرها، فتتحرَّك، وتُحَرِّك ما أمامها من المواد التي يمكنها تحريكها، ومن ذلك المواد التي تُكَوِّن السَّحاب، والرِّياح منشورة مفرَّقة في الاتجاهات في الشَّمال والجنوب والشَّرق والغرب، وبعضها يكون ليِّنًا، وبعضها يكون عاصفًا، فتجمع مواد السَّحاب في مكان واحد لتكون سحابة هنا، وسحابة هناك، ثم ربما تجمع الرِّياح بين أنواع السَّحاب لتجعل منها سحابة واحدة ضخمة متكاثفة، كَما قالَ الكُمَيْتُ في السَّحابِ:

مَـرَتْـهُ الـجَـنُـوبُ فـلـمَّـا اكْـفَـهَـــ ـــرَّحَـلَّـتْ عَـزالِـيَـهُ الشَّـمْـأَلُ[2]

فيكون المعنى على هذه القراءة: وهو الذي يرسل الرِّياح منشورة مفرَّقة بين جهاتٍ متعدِّدة.

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) ديوان الكميت (ص: ٣١١)، وحلَّت عزاليه: كثُر مطرها. ينظر: لسان العرب (١١/ ٤٤٣).

وقَرَأ ابْنُ عامرٍ ﴿نُشْرًا﴾، فهي كالقراءة الأولى إلا أنها بإسْكانِ الشِّينِ، تخفيفًا من توالي الحركات كَما يُقالُ: كُتُب وكُتْبٌ، ورُسُل ورُسْلٌ.

المشهد الثاني: عَبَّرتْ عنه قراءة: ﴿نَشْرًا﴾ بفتح "النون" وسكون "الشين"، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، ولهذه القراءة ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنى القراءة الأولى؛ فقد انْتَصَبَت كلمة: ﴿نَشْرًا﴾ عَلى المَفْعُولِيَّةِ المُطْلَقَةِ؛ لِأَنَّهُ مقارب لِـ أرْسَلَ، فكأنه قال: وهو الذي يرسل الرياح، فينشرها نَشْرًا، أي: يفرِّقها تفريقًا بين جهاتٍ متعدِّدة، فتكون بمعنى القراءة الأولى على وجهٍ ما.

الثاني: أن تكون كلمة: ﴿نَشْرًا﴾ منصوبة عَلى الحالِ مِنَ الرِّيحِ، والمعنى: وهو الذي يرسل الرياح ناشِرَةً السَّحابَ، أي: مجمعة له مفرِّقة له في النواحي فتكون بمعنى القراءة الأولى أيضًا.

الثالث: أن تكون كلمة: ﴿نَشْرًا﴾ حالًا مِنَ الضَّمِيرِ ﴿هو﴾ أيْ: يُرْسِلُها ناشِرًا بها الأرض الميتة، أيْ: مُحْيِيًا بِآثارها، وهي الأمطار الأرْضَ المَيْتَةَ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ [عَبَس: ٢٢]، وكما قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٩]، فالنَّشر هو الإحياء، مِن قَوْلِهِمْ: أنْشَرَ اللهُ المَيِّتَ، فَنُشِرَ. قالَ الأعْشى:

... ... يا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ[1]

والنَّشْرُ: نوعٌ من الرِّياح الطَّيِّبة، اللَّينة الهبوب، التي تنشئ السحاب، واحِدُها نُشُورٌ، وأصْلُهُ مِنَ النَّشْرِ، وهو الرّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ، وكذلك كُلُّ ريحٍ طيبةٍ عندهم فهي "نَشْر"، ومنه قول امرئ القيس:

---

(١) البيت للأعشى الكبير في ديوانه (ص: ١٤١)، وصدر البيت: حتَّى يقولَ النّاسُ مِمَّا رأوا

كَأَنَّ الـــمُدَامَ وَصَــوْبَ الغَمَامِ وَرِيحَ الخُزَامَى وَنَشْــرَ القُطُرْ [١]

والنَّشْرُ: مَصْدَرُ نَشَرْتُ الثَّوْبَ، ضِدّ طَوَيْتُهُ، ويُرادُ بِالمَصْدَرِ هَهُنا المَفْعُولُ. والرِّياحُ كَأَنَّها كانَتْ مَطْوِيَّةً، فَأَرْسَلَها اللهُ تَعالى مَنشُورَةً بَعْدَ انْطِوائِها[٢].

المشهد الثالث: تصوِّره لنا قراءة عاصم: ﴿بُشْرًا﴾ بالباء وضمِّها وسكون الشين، من التبشير كما في قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، وكلمة: ﴿بُشْرًا﴾ تأتي على معنيين:

الأول: أن تكون جمعًا مخفَّفًا من كلمة: ﴿بُشُرًا﴾، إلا أنَّنا خفَّفنا ضمَّة الشِّين بالتَّسكين، كما تجمع كلمة: ﴿نذير﴾ ﴿نُذُرًا﴾، وتخفِّفها فتقول: ﴿نُذْرًا﴾، والمعنى هنا: يرسل الرِّياح تُبَشِّر بالمطر، أو بالحياة التي تترتب على المطر.

الثاني: أن تكون كلمة: ﴿بُشْرًا﴾ حالًا من الرِّياح، أي: حال كونها تُبشِّر بما سيأتي معها من الرَّحمة النَّازلة من السَّحاب.

وإنك لتعجب إلى هذا الجمع العظيم للمعاني التي أفدناها من كلمة واحدة في موضع واحد؛ ويمكنك الجمع بين هذه المعاني، فتقول: وهو الذي يرسل الرِّياح ناشرة السَّحاب، أي: مُكَوِّنة لمواده مجمِّعة لها كأنَّها تحييه، ناشرة له أي: مفرِّقة له بجعله قِطَعًا من السَّحاب المتفرِّق، ثم، ناشرة له مرَّة أخرى أي: محيية له بتجميع السَّحاب المتفرِّق؛ ليكوِّن سحابة واحدة عظيمة، ومثلها معها من السُّحب العظيمة الأخرى، وهنا يراها الناس، ويشعرون

---

(١) ديوان امرئ القيس (ص: ١٥٧)، (المدام): الخمر، و(الخُزامى): نبت طيب الريح، (نَشْرَ القُطُر): العود الذي يتبخر به.

(٢) تفسير الرازي (٤/ ٢٨٧).

بالرِّياح، فيجعلونها مبشِّرة بما سيأتي معها من الأمطار النازلة التي تنشر الأرض، أي: تحييها بعد موتها.

فانظر إلى آثار رحمة ربِّنا من هذه القراءات المتعددة لكلمة: ﴿بُشْرًا﴾. ما أجمل أن تجتمع هذه المعاني في كلمة واحدة![1].

وتعجب لجمال القرآن! إذ تُظهر قراءاتُه الثابتةُ عِدَّةَ معانٍ في مكانٍ واحد؛ إمَّا باللَّفظة ذاتها، أو بتغير شيء داخليٍّ في هذه اللَّفظة؛ حرفًا كان أو حركةً.

فإن قلت: ما معنى هذا التعبير اللافت: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾؟ ما هذه الرحمة؟

الجواب: يعني: قُدَّام رحمته وأمامها، يقال: بيْنَ يَدَيْ فُلانٍ، أي: أمامَهُ بِقُرْبٍ مِنهُ؛ ولِذَلِكَ قُوبِلَ بِالخَلْفِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكَقَوْلِهِ تَعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبإ: ٤٦]، والتَّصوير هنا بديع؛ إذ المعنى: يُرْسِلُ الرِّياحَ أمام رَحْمَتِه، قربها مبشرة بها، وينبغي أن تكمل الصُّورة الجميلة التي تقدِّمها هذه الكلمة، فكأنَّ الرَّحمة خلف الرِّياح باسطة يديها توشك أن تصل إلى العالم لتصافحهم، فيجدون لذَّة تلك المصافحة، وكيف لا يجدون وهي مصافحة للرَّحمة؛ ولذا استبشر قوم عاد بالسَّحاب الذي ساقته الرِّياح لما رأوها ظانِّين أنَّ الرَّحمة ستعقب ذلك بإنزال الغيث، وحكى الله ﷻ موقفهم، فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

و"الرَّحمة" التي ذكرها جلَّ ثناؤُه في هذا الموضع أنواع متعدِّدة عرفنا من أبرزها أمرين:

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٨٠).

١) تحريك طبقات الهواء لتنقية الأجواء من الغازات الضَّارة، وإيجاد الجوِّ المناسب للتَّنفس الطَّبيعيِّ.

٢) والغيث الذي يأتي نظرًا لإرسال الرِّياح التي تُكَوِّنُ السَّحاب وتحرِّكه، فهذا من إطلاق العامِّ، وإرادة الخاصِّ، أو من إطلاق الكلِّيِّ وإرادة الجزئيِّ؛ لأهمِّيَّته، كما قال تعالى جَدُّهُ: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الرُّوم: ٥٠].

وهذا التعبير: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ يبلغ من الحسن غايته، ومن الجمال منتهاه، فالعرب كذلك تقول لكلِّ شيء حدث قُدَّام شيء وأمامه: "جاء بين يديه"؛ لأن ذلك من كلامهم جرى في أخبارهم عن بني آدم، وكثر استعماله فيهم، حتى قالوا ذلك في غير ابن آدم وما لا يَدَ له، كما يُقالُ: إنَّ الفِتَنَ تَحْدُثُ بَيْنَ يَدَيِ السّاعَةِ، يُرِيدُونَ قُبيلَها، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ [سبأ: ٤٦]، وقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١]، وهو كثير في القرآن، والسَّبَبُ في حُسْنِ هَذا المَجازِ، أنَّ يَدَيِ الإنْسانِ يتقدَّمانه، فَكُلُّ ما كانَ يَتَقَدَّمُ شَيْئًا يُطْلَقُ عَلَيْهِ لَفْظُ اليَدَيْنِ عَلى سَبِيلِ المَجازِ؛ لِأجْلِ هَذِهِ المُشابَهَةِ. فَلَمّا كانَتِ الرِّياحُ تَتَقَدَّمُ المَطَرَ، لا جَرَمَ عَبَّرَ عَنْهُ بِهَذا اللَّفْظِ.

فمعنى الكلام إذًا: والله الذي يرسل الرياح ليِّنًا هبوبها، طيِّبًا نسيمها، أمام غيْثه الذي يسوقه بها إلى خلقه لإحياء بلد ميت، قد تَعَفَّت مزارعه، ودَرَست مشاربه، وأجدب أهلُه فأنزل به المطر، وأحيا لهم البلاد والعباد، وأخرج به من كلِّ الثَّمرات.

قال البقاعيُّ رحمه الله: «ولَعَلَّهُ عَبَّرَ فِيهِ بِاليَدَيْنِ: اليُمْنى واليُسْرى؛ لِدِلالَتِهِ -مَعَ ما فِيهِ مِنَ الفَخامَةِ- عَلى أنَّهُ تارَةً يَكُونُ رَحْمَةً، وتارَةً يَكُونُ عَذابًا، كَما كانَ عَلى قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام، وإنْ كانَتِ الرَّحْمَةُ فِيهِ أغْلَبَ وهي ذاتُ اليَمِينِ، وتارَةً تَكُونُ الرِّياحُ جامِعَةً لَها لِحِفْظِ الماءِ، وتارَةً

مُفَرِّقَةً مُبْطِلَةً لَها، وتارَةً تَكُونُ مُقَوِّمَةً لِلزُّرُوعِ والأشْجارِ مُكَمِّلَةً لَها وهي اللَّواقِحُ، وتارَةً تَكُونُ مُنَمِّيَةً لَها أوْ مُهْلِكَةً كَما يَكُونُ في الخَرِيفِ، وتارَةً تَكُونُ طَيِّبَةً وتارَةً مُهْلِكَةً إمّا بِشِدَّةِ الحَرارَةِ والبُرُودَةِ»[1].

وقد تتساءل: لاحظنا أن الله ﷻ سمَّى الغيث والمطر رحمة، فما الحكمة من التعبير بلفظ: ﴿رحمته﴾، دون الغيث أو المطر؟

الجواب: لأنَّ المطر أساس لانتشار أنواع الرَّحمة المختلفة، فأطلق السَّبب على المسبَّب؛ فقد قال تعالى جَدُّهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشُّورَى:٢٨].

فإن قلت: ما الحكمة من ذكر الله ﷻ قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧] في هذا الموضع؟

الجواب: أجاب على هذا السؤال بسعة باعٍ لا نظير له ابن عاشور ﵀ فبيَّن أن المقصد الأوَّل من هذه الكلمات المباركات: تَقْرِيعُ المُشْرِكِينَ، وتَفْنِيدُ إشْراكِهِمْ، وتَبِعَهُ تَذْكِيرُ المُؤْمِنِينَ وإثارَةُ اعْتِبارِهِمْ؛ لِأنَّ المَوْصُولَ دَلَّ عَلى أنَّ الصِّلَةَ مَعْلُومَةُ الِانْتِسابِ لِلْمَوْصُولِ؛ لِأنَّ المُشْرِكِينَ يَعْلَمُونَ أنَّ لِلرِّياحِ مُصَرِّفًا، وأنَّ لِلْمَطَرِ مُنَزِّلًا، غَيْرَ أنَّهم يَذْهَلُونَ أوْ يَتَذاهَلُونَ عَنْ تَعْيِينِ ذَلِكَ الفاعِلِ، ولِذَلِكَ يَجِيئُونَ في الكَلامِ بِأفْعالِ نُزُولِ المَطَرِ مَبْنِيَّةً إلى المَجْهُولِ غالِبًا، فَيَقُولُونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ الثُّرَيّا ويَقُولُونَ: "غِثْنا ما شِئْنا" مَبْنِيًّا لِلْمَجْهُولِ أيْ: أُغِثْنا، فَأخْبَرَ اللَّهُ تَعالى بِأنَّ فاعِلَ تِلْكَ الأفْعالِ هو اللَّهُ، وذَلِكَ بِإسْنادِ هَذا المَوْصُولِ إلى ضَمِيرِ الجَلالَةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ أيِ: الَّذِي عَلِمْتُمْ أنَّهُ يُرْسِلُ الرِّياحَ ويُنَزِّلُ الماءَ، وهو اللَّهُ تَعالى

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٢١).

كَقَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، فالخَبَرُ مسوقٌ لِتَعْيِينِ صاحِبِ هَذِهِ الصِّلَةِ، فَهو بِمَنزِلَةِ الجَوابِ عَنِ اسْتِفْهامٍ مَقْصُودٌ مِنهُ طَلَبُ التَّعْيِينِ في نَحْوِ قَوْلِهِمْ: أراحِلٌ أنْتَ أمْ ثاوٍ، ولِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ في هَذا الإسْنادِ قَصْرٌ؛ لِأنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ رَدَّ اعْتِقادٍ، فَإنَّهم لَمْ يَكُونُوا يَزْعُمُونَ أنَّ غَيْرَ اللهِ يُرْسِلُ الرِّياحَ، ولَكِنَّهم كانُوا كَمَن يَجْهَلُ ذَلِكَ مِن جِهَةِ إشْراكِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَرُوعِيَ في هَذا الإسْنادِ حالُهُمُ ابْتِداءً، ويَحْصُلُ رَعْيُ حالِ المُؤْمِنِينَ تَبَعًا؛ لِأنَّ السِّياقَ مُناسِبٌ لِمُخاطَبَةِ الفَرِيقَيْنِ كَما تَقَدَّمَ في الآيِ السّابقة(١).

المرحلة الثالثة: السحاب الثقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧]:

فهذه جملة مكوَّنة من خمس كلمات، فما معناها؟ وما المعاني التي تحبونا بها؟

الجواب:

الكلمة الأولى: ﴿حَتَّىٰٓ﴾ هنا ابْتِدائِيَّةٌ، أي: ابتدأ بها كلام متَّرتب على كلامٍ سبق، وهي تصوِّر لنا الهدف الذي تقصد الرياح أن تصل إليه، وهي من هذا الوجه لتغيبة الإرسال المذكور في السياق قبل، فالله ﷻ أرسلها مقدِّمة للرَّحمة العظيمة التي أساسها الغيث النازل من السَّحاب الثِّقال، فتسير الرِّياح المرسلة وتسير، وتدفع مكونات السَّحاب، فتجتمع السُّحب، حتى يحدث شيء جديد، فما الجديد الذي يحدث؟

يصورِّه لنا قوله تعالى: ﴿أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾ [الأعراف: ٥٧].

الكلمة الثانية: ﴿إذا﴾ وهي كلمة شرطيَّة تعني اقتران أمرين الأول منهما فعل الشرط، والثاني جوابه، ففعل الشرط: ﴿أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا﴾، وعندها تصوِّر لنا كلمة ﴿إذا﴾ أن هناك جوابًا متوقَّعًا، فماذا حدث بعد أن أقلَّت سحابًا ثقالًا؟ قال الله ﷻ: ﴿سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٨١).

فما معنى كلمة ﴿أَقَلَّتْ﴾؟

الجواب:

هذه هي الكلمة الثالثة: ﴿أَقَلَّتْ﴾[١]: مشتقَّة من قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً، فَهُوَ قَلِيلٌ، قال الراغب رحمه الله: «والقِلَّةُ والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغَر يستعملان في الأجسام، ثم يستعار كلُّ واحد من الكثرة والعِظَم، ومن القلَّة والصِّغَر للآخر».

وَيُقَالُ: اسْتَقَلَّ الْقَوْمُ، إِذَا مَضَوْا لِمَسِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ الْإِقْلَالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفُّوا السَّيْرَ وَاسْتَقَلُّوهُ.

وهنا ستسأل: فما علاقة ﴿أَقَلَّتْ﴾ بالقِلَّة؟

الجواب: كلمة ﴿أَقَلَّتْ﴾ أي: حملت ورفعت السَّحاب كأنَّها استقلَّته، أي: أحسَّت بأنه خفيف قليل لقوَّتها؛ لأنَّ الرَّافع المطيق الذي يحمل الشيء يرى ما يحمله قليلًا، فالهَمْزَةُ فِي قوله: ﴿أَقَلَّتْ﴾ لِلْجَعْلِ، أي: جعلته قليلًا فحملته، قال السَّمين رحمه الله: «مِنْ أقللت كذا، أي: حملته بسهولة، وكأنه مأخوذ من القِلَّة؛ لأنه يقال: أقلَّه أي: حمله بسهولة، فهو مستقلٌّ لما يحمله»[٢]، وَرأى محمد رشيد رضا رحمه الله أَنَّهُ مِنْ: أَقَلَّ الْقُلَّةَ -وَهِيَ بِالضَّمِّ: الْجَرَّةُ - فَإِنَّمَا سُمِّيَتْ قُلَّةً؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يُقِلُّهَا، أَيْ: يَحْمِلُهَا أَوْ يَرْفَعُهَا بِيَدَيْهِ عَنِ الْأَرْضِ[٣]، وذلك يعني أنه رأها قليلة خفيفة يمكنه أن يحملها.

فما معنى كلمة: ﴿سَحَابًا﴾؟

الجواب:

---

(١) مقاييس اللغة (٥/ ٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٨٠)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ١٨٢٢).

(٢) الدر المصون (٥/ ٣٥٠).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

هذه الكلمة الرابعة: ﴿سَحَابًا﴾، وهي اسْمُ جنس، يقال لواحده سَحابَةٍ، مشتقة من السَّحْبِ[1]، وهو الجرُّ كسَحْب الذَّيل والإنسان على الوجه، وتَقُولُ: سَحَبْتُ ذَيْلِي بِالْأَرْضِ سَحْبًا، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، فسُمِّيت السَّحابة سحابة؛ لجرِّ الرِّيح لها، ولجرِّها هي الماء، ولانجراره معها، فكَأَنَّهُ يَنْسَحِبُ فِي الْهَوَاءِ انْسِحَابًا، والسَّحَابُ: الغيم ربما يكون فيه مطر، وربما لا، ولهذا يقال: سحاب جَهام، أي: لا مطر فيه، والسَّحاب يتكوَّن من جسيمات دقيقة من الماء السَّائل، أو الجليد، أو كليهما، ويكون عالقًا في الغلاف الجوي ولا يلمس عادة سطح الأرض.

ولكن كيف تتكون السحب؟

الجواب: تعتبر الشَّمس المُحرِّكَ الأساسيَّ لدورة الماء، إذ تقوم بتسخين المحيطات التي تحوِّل جزءًا من مياهها من حالتها السَّائلة إلى بخار، فتقوم التَّيارات الهوائيَّة المتصاعدة بأخذ بخار الماء إلى داخل الغلاف الجوي (حيث درجات الحرارة المنخفضة)، فيتكاثف الهواء المُشَبَّع ببخار الماء مكوِّنًا بذلك جُزَيئات الماء السَّائلة أو المتجمدة، فتمتزج بذرَّات الغبار مُشَكِّلة بذلك السُّحُب، وبما أنَّ درجة كثافة السُّحُب هي من ١٠ إلى ١٠٠ مرَّة أقلُّ من درجة كثافة الهواء فإنَّها تطفو في السَّماء، ويحرِّكها نوعٌ من الهواء نسميه الرِّياح.

الكلمة الخامسة: ﴿ثِقَالًا﴾، فكيف يوصف السَّحاب بأنه ثقال مع أننا نرى أن السَّحاب ربما يخترق الجبال، وربما يخترق أجسامنا لو كنا في ذلك الجبل؟

الجواب: نعم هو ثقيل، والسَّحاب ثقال، والاختراق لا يتعلَّق بالثِّقَل، بل يتعلَّق بدرجة الكثافة بين الجُزْئيات.

---

(١) مقاييس اللغة (٣/ ١٤٢)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٣٩٩).

أنواع السُّحب:

تتنوَّع السُّحب إلى أنواع منها: السَّحاب الطِّباقيُّ، وهو سحاب منخفض، رمادي اللون، قريب من سطح الأرض، أشبه ما يكون بالضَّباب المرتفع، وأحيانًا على هيئة رُقَعٍ مهلهلة تتركَّب من قطيرات مائيَّة دقيقة، والسَّحاب الرُّكاميُّ الطِّباقي، وهي سُحُب منخفضة، قريبة من سطح الأرض، تبدو بشكل طبقة رماديَّة، يغلب عليها وجود أجزاء داكنة، ويهطل منها مطر خفيف، وأحيانًا ثلوج، والسَّحاب الرُّكاميُّ المنخفض، والمزن الرُّكاميَّة أو الرُّكام المزني، وهي سحب شديدة الكثافة والضَّخامة لها امتداد رأسي كبير، مظهرها يشبه مظهر الجبال، وتتركَّب من قطرات مائيَّة وبلورات ثلجيّة، ويكون التَّهاطل على شكل زخَّات شديدة من المطر، أو الثَّلج، أو البَرَد، ويندر أن يهطل البَرَد من سواها، وهي أشهر أنواع السُّحب، وأكثرها قوَّة، وتحمل في داخلها قوَّة ديناميكيَّة هوائيَّة خارقة، بإمكانها الإطباق على جناحي طائرة ركَّاب، كما تحمل في باطنها شحنات كهربائيَّة عالية جدًّا، وبإمكان شرارة برق صادرة منها أن تَمُدَّ مدينة بالكامل بالكهرباء، وهي السَّحابة الوحيدة التي تتميَّز بشكلها المَهيب والـمُخيف[1].

وهناك أنواع أخرى من السحاب مثل السَّحاب الرَّقيق المرتفع الذي يُطلِق عليه العرب اسم القزع، وهي عبارة عن سُحُب عالية، تتواجد على ارتفاع ٦ كم.

فتعال ننظر ثقلها: عندما تتشبَّع السَّحاب ببخار الماءِ تثقل؛ وهذا هو الذي يرجى منه المطر، ومِن أَحْسَنِ مَعانِي أَبِي الطَّيِّبِ قَوْلُهُ فِي حُسْنِ الِاعْتِذارِ:

(١) ينظر: إعجاز القرآن في وصف أنواع الرياح، السحاب، المطر (ص ٣١، ٤٨، ٧٩)

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي أَسْرَعُ السُّحْبِ في المَسِيرِ الجَهامُ[1]

أي: إذا أنت أبطأت في سَيْبِك أي: عطائك عني، فإني أتوقَّع أن يكون عطاؤك أكيدًا كثيرًا وافرًا؛ لأنَّ السَّحاب الذي يسير بسرعة هو الذي لا مطر معه.

السَّحاب الثِّقال والإعجاز العلمي:

وفي العلوم الحديثة وجدنا للثِّقَل معنىً أكثر وضوحًا،حيث تكشف عن هذا النوع من السَّحاب بصورةٍ تؤكِّد أنَّ القرآن المجيد من لدن حكيم خبير.

فقد قام بعضهم بحساب ثقل غيمة صغيرة، فوجدوا أن وزنها نحو (٥٠٠) ألف كيلو غرام، وبعض الغيوم تساوي مليون طن.

ويصف أحد علماء المناخ السحب بأنها فيلٌ يسبح أي: في الهواء (Floating elephants)، ويمكن أن يصل متوسط وزن السَّحابة الرُّكامية إلى مليون رطل، أي: إن وزنها يعادل وزن أكبر طائرة ركاب في العالم، وبالمقابل: قدَّر العلماء وزن جبل أُحُد بـ(٤٥) مليار طن.

والتعبير بالسَّحاب الثِّقال مدهش؛ إذ يظن الناس أنها لا تزن شيئًا مع أنه يوجد فيها ماء، بينما هي مُثْقَلة، والثِّقل يعود لكثرة ما فيها من الماء، وتخيل لو أن هذا الماء صُبَّ صبًّا، أي: لم ينزل قطراتٍ، بل نزل سيلًا جارفًا من الأعلى، فماذا يحدث؟

سيدمِّر الأرض تدميرًا، ولذلك يؤمن الإنسان المتدبِّر المتفكِّر العاقل، وليس الجاهل الجاحد المعاند بأن الذي يمسك السماء والأرض، ولا يؤوده حفظهما هو الله الرحمن

(١) ديوان المتنبي (ص: ١٦٧)، من قصيدة في مدح أبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني.

الرحيم، ولكن هذا التَّعبير المعجز يختلف تمامًا عن التعبير المنسوب إلى زَيْد بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْل رحمه الله، حينما قال:

وأســلمتُ وجْهِي لمنْ أسْــلَمَتْ ... لَـهُ الـــمُـزْنُ تَـحْـمـل عَـذْبًـا زُلالا

وأســلَمْتُ وَجْهي لِمَنْ أســلَمَتْ ... لَـهُ الْأَرْضُ تحمـلُ صَــخرًا ثِقَـالًا[1]

ففرقٌ بين أن تقول: المزن يحمل عذبًا زلالًا، وبين أن تقول: يحمل سحابًا ثقالًا، فيثبت الثِّقل للسَّحاب، وذلك يخالف المعهود من المشاهدات الإنسانيَّة، ولم يكتشف تفصيل ذلك إلا حديثًا[2].

فإن قلت: هذا السحاب بهذا الثِّقل الهائل كيف يمكن أن يبقى معلَّقًا في الهواء؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نذكر أولًا ما قيل في وزن هذا السَّحاب وثِقَله، فالسَّحابة عبارة عن تكتُّل لجُزَيئات دقيقة من الماء أو الجليد يتراوح قُطْرها ما بين ١ إلى ١٠٠ ميكرون، ولأنَّ درجة كثافة السُّحُب هي من ١٠ إلى ١٠٠ مرَّة أقلُّ من درجة كثافة الهواء فإنَّها تطفو في السَّماء، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فإذا أثارت الرِّياح حبيبات البخار اجتمعت إلى بعضها، فتكوَّنت سحابة صغيرة، ثم تثير الرِّياح السُّحب الصِّغار لتجتمع فتكون مزنًا طبقيًّا أو متراكمًا، وتبدأ بالثِّقل شيئًا فشيئًا، وتقدَّر كثافة السُّحب التراكمية بنصف جرام لكلِّ متر مكعب، والكيلو متر مكعب يساوي مليار متر

(١) ينظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣١).

(٢) ينظر: إعجاز الكتاب في وصف ثقل السحاب، إعداد: محمد ترياقي، مقال في موقع إعجاز القرآن والسنة، ديسمبر ٢٠١٩م.

مكعب، وعليه وبحسبة بسيطة يتَّضح أن كيلومتر مكعب من السَّحاب التراكمي يعادل حوالي خمسمائة مليون جرام، أي: خمسمائة طن(١).

وإذا تقرَّر ذلك وعرفنا مقدار هذا الثقل الهائل لهذه السحب فيأتي الإجابة عن السؤال السابق، إذ حاول الرَّازيُّ رحمه الله وَفْقَ المعرفة العلمية التي كانت سائدة في وقته أن يكتشف ما يتعلَّق بالسَّحاب الثِّقال وأسرار السُّحُب، فذكر أنَّ السَّحابَ الكَثِيفَ المُسْتَطِيرَ لِلْمِياهِ العَظِيمَةِ إنَّما يَبْقى مُعَلَّقًا في الهَواءِ؛ لِأنَّهُ تَعالى دَبَّرَ بِحِكْمَتِهِ أنْ يُحَرِّكَ الرِّياحَ تَحْرِيكًا شَدِيدًا، فَلِأجْلِ الحَرَكاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي في تِلْكَ الرِّياحِ تَحْصُلُ فَوائِدُ:

إحْداها: أنَّ أجْزاءَ السَّحابِ يَنْضَمُّ بَعْضُها إلى البَعْضِ، ويَتَراكَمُ ويَنْعَقِدُ السَّحابُ الكَثِيفُ الماطِرُ.

وثانِيها: بِسَبَبِ تِلْكَ الحَرَكاتِ الشَّدِيدَةِ الَّتِي في تِلْكَ الرِّياحِ يَمْنَةً ويَسْرَةً يَمْتَنِعُ عَلى تِلْكَ الأجْزاءِ المائِيَّةِ النُّزُولُ، فَلا جَرَمَ يَبْقى مُتَعَلِّقًا في الهَواءِ، وأقول: ليس الأمر متعلِّقًا بالرِّياح فحسب بل يدخل في ذلك درجة كثافة السُّحب.

وثالِثُها: بِسَبَبِ حَرَكاتِ تِلْكَ الرِّياحِ يَنْساقُ السَّحابُ مِن مَوْضِعٍ إلى مَوْضِعٍ آخَرَ، وهو المَوْضِعُ الَّذِي عَلِمَ اللهُ تَعالى احْتِياجَهم إلى نُزُولِ الأمْطارِ وانْتِفاعَهم بِها، وأقول: قد يساق المطر إلى مكانٍ لا حاجة لهم فيه إلى المطر فيما يظهر في أول الأمر، لكنهم يحتاجونه لأسباب تخفى عليهم ويعلمها الله، وقد تكون الأمطار عذابًا على بعض المناطق، ولذا قال النَّبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا، وَلا عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ عَلَى الآكَامِ وَالجِبَالِ وَالآجَامِ وَالظِّرَابِ وَالأَوْدِيَةِ

---

(١) http://www.usgs.gov/special-topics/water-science-school/science/how-much-does-cloud-weigh#overview

وَمَنَابِتِ الشَّجَرِ»[(١)]، فلم يدعُ النَّبيُّ ﷺ أن ينقطع المطر، بل دعا أن يُصرف الزائد عن الحاجة الوقتية للناس إلى المناطق المجاورة لهم ليغذي الأرض والأنهار، ويوجد الثروة المائية الجوفية التي هي أغلى من الذَّهب.

ورابِعُها: حَرَكات الرِّياحِ تارَةً تَكُونُ جامِعَةً لِأجْزاءِ السَّحابِ مُوجِبَةً لِانْضِمامِ بَعْضِها إلى البَعْضِ حَتّى يَنْعَقِدَ السَّحابُ الغَلِيظُ، وتارَةً تَكُونُ مُفَرِّقَةً لِأجْزاءِ السَّحابِ مُبْطِلَةً لَها.

وخامِسُها: هَذِهِ الرِّياح تارَةً تَكُونُ مُقَوِّيَةً لِلزُّرُوعِ والأشْجارِ مُكَمِّلَةً لِما فِيها مِنَ النُّشُوءِ والنَّماءِ وهي الرِّياحُ اللَّواقِحُ، وتارَةً تَكُونُ مُبْطِلَةً لَها كَما تَكُونُ في الخَرِيفِ.

وسادِسُها: أنَّ هَذِهِ الرِّياحَ تارَةً تَكُونُ طَيِّبَةً لَذِيذَةً مُوافِقَةً لِلْأبْدانِ، وتارَةً تَكُونُ مُهْلِكَةً، إمّا بِسَبَبِ ما فِيها مِنَ الحَرِّ الشَّدِيدِ كَما في السُّمُومِ أوْ بِسَبَبِ ما فِيها مِنَ البَرْدِ الشَّدِيدِ كَما في الرِّياحِ البارِدَةِ المُهْلِكَةِ جِدًّا.

ولذلك كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ كما في حديث عائشة رضي الله عنها، قَالَ: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»، قَالَتْ: وَإِذَا تَخَيَّلَتِ السَّمَاءُ، تَغَيَّرَ لَوْنُهُ، وَخَرَجَ وَدَخَلَ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: «لَعَلَّهُ يَا عَائِشَةُ كَمَا قَالَ قَوْمُ عَادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[(٢)].

---

(١) البخاري (١٠١٣).

(٢) مسلم (٨٩٩).

وسابِعُها: أنَّ هَذِهِ الرِّياحَ تارَةً تَكُونُ شَرْقِيَّةً، وتارَةً تَكُونُ غَرْبِيَّةً وشَمالِيَّةً وجَنُوبِيَّةً. وهَذا ضَبْطٌ ذَكَرَهُ بَعْضُ النّاسِ وإلّا فالرِّياحُ تَهُبُّ مِن كُلِّ جانِبٍ مِن جَوانِبِ العالَمِ ولا ضَبْطَ لَها، ولا اخْتِصاصَ لِجانِبٍ مِن جَوانِبِ العالَمِ بِها [١].

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الرَّبَّ الْمُدَبِّرَ لِأُمُورِ الْخَلْقِ هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، لِعِبَادِهِ بِالْمَطَرِ، أَيْ قُدَّامَهَا مُبَشِّرَاتٍ بِهَا وَنَاشِرَاتٍ لِأَسْبَابِهَا حَتَّى إِذَا حَمَلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا وَرَفَعَتْهُ فِي الْهَوَاءِ[٢].

المرحلة الرابعة: سياقة منظَّمة إلى موقع محدَّد ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

قد تسأل: ما معنى قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [الأعراف: ٥٧]؟

الجواب: في هذا القبس المبارك من الآية ثلاث كلمات: ﴿سُقْنَاهُ﴾، ﴿لِبَلَدٍ﴾، ﴿مَّيِّتٍ﴾، وفيما يأتي ذكر معنى هذه الكلمات المباركة:

الكلمة الأولى: ﴿سُقْنَاهُ﴾، ففيها يُقَالُ سَاقَهُ[٣] يَسُوقُهُ سَوْقًا: إذا حداه ودفعه إلى الأمام، وقد يحرِّكه إلى جهة من الجهات، لكنَّ الأصل أن يدفعه أو يقوده إلى الأمام، وساق الشجرة جذعُها الذي يرفعها إلى الأعلى، ويقال لنوع من السَّحاب: السَّيِّق -كـ(سيِّد)-، وهو ما تسوقه الرِّيحُ، ولا ينزل منه المطر.

لاحظ الآن إذ يقول الله ﷻ: ﴿سُقْنَاهُ﴾، أي: دفعناه إلى الأمام أو إلى جهات متعدِّدة، ولم يقل: ساق نفسه، أي: دفعنا ذَلِكَ السَّحابَ بتلك الرِّيح، وحرَّكناه إلى بَلَدٍ مَيِّتٍ، كما يَسُوقُ

---

(١) تفسير الرازي (١٤/ ٢٨٩).

(٢) تفسير المنار (٨/ ٤١٥).

(٣) مقاييس اللغة (٣/ ١١٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٣٦)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٢/ ١٠٣٢).

السَّائِقُ الدّابَّةَ والسَّيارة، والسَّوق هو التَّسيير والدَّفع للشَّيء من مكانٍ إلى مكانٍ آخر غير المكان الذي يكون فيه المسوق، فيدفع الله ﷻ السَّحاب إلى مكانٍ آخر، وصفه هنا بأنه بلد ميت.

الكلمة الثانية: ﴿لِبَلَدٍ﴾، ولكن ما معنى كلمة ﴿بلد﴾؟

الجواب: البلد[١] نعني به صَّدْرَ الشيء، فيُقَالُ: وَضَعَتِ النَّاقَةُ بَلْدَتَهَا بِالْأَرْضِ، إِذَا بَرَكَتْ، فوضعت بطنها وصدرها. قَالَ ذُو الرُّمَّةِ:

أُنِيخَتْ فَأَلْقَتْ بَلْدَةً فَوْقَ بَلْدَةٍ ... قَلِيلٍ بِهَا الْأَصْوَاتُ إِلَّا بُغَامُهَا[٢]

فالبَلَد هو: المكان الممتد المحيط المحدود الذي التصق به أهله، فأقاموا فيه سواء أكانوا من البشر أم من غيرهم، وجمعُه: بِلَاد وبُلْدَان، ويطلق على كلِّ بقعة من الأرض ولو لم يسكنها أحد، والطَّائِفَةُ مِنهُ، والفَلاةُ تُسَمَّى بَلْدَةً، قالَ الأعْشى:

وبَلْدَةً مِثْلَ ظَهْرِ التُّرْسِ مُوحِشَةً ... لِلْجِنِّ بِاللَّيْلِ في حافاتِها زَجَلُ[٣]

الكلمة الثالثة: ﴿مَيِّتٍ﴾، فما معنى هذه الكلمة؟

الجواب: كلمة ﴿مَيِّتٍ﴾[٤] أصل الكلمة (مَوَتَ)، وعرَّف ابن فارس رحمه الله المَوْت بأنه ذهاب القوة من الشَّيء، ولو قال ذهاب الحياة المعروفة لكلِّ شيء بحسبه لكان أفضل، من مَاتَ يَمُوتُ ويَمِيتُ مَوْتًا، ويَمَاتُ عند طيئ، قَالَ الراجز:

---

(١) مقاييس اللغة (١/ ٢٩٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٤٢)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (١/ ١٧١).

(٢) ديوان الأعشى الكبير (ص: ٥٩).

(٣) ديوان ذي الرُّمة (٢/ ١٠٠٤)، أي: أناخت صدرها فوق الأرض.

(٤) مقاييس اللغة (٥/ ٢٨٣)، مفردات القرآن للراغب (ص: ٧٨١)، تاج العروس (٥/ ٩٧)، المعجم الاشتقاقي المؤصل (٤/ ٢٠٢١).

بُـنَـيَّـتِـي سَـيِّـدَةَ الـبَـنَـاتِ عِيشِـي وَلَا نَـأْمَنُ أَنْ تَمَـاتِي[١]

وماتت الريحُ: رَكَدَتْ وسَكَنتْ، والمَوْتُ: السُّكُون كما قيل:

إِنِّـي لأَرْجُـو أَنْ تَـمُـوتَ الـرِّيـحُ فـأَسْـكُـنُ اليَوْم وأَسْـتَـرِيحُ[٢]

والنوم موت لأَنّه يزولُ مَعَه العَقْلُ والحَركةُ، تمثيلًا وتَشْبيهًا، لَا تحْقيقًا.

والـمَيْتُ، مُخَفَّفَةً: الَّذِي ماتَ بالفِعْل، (والـمَيِّتُ)، مشدَّدة، (والـمَائِتُ) على فَاعل: (الَّذِي لم يَمُتْ بَعْدُ)، ولكنه بصَدَدِ أَن يَمُوت ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠][٣]، قَالَ الخليلُ رحمه الله: أَنشَدني أَبو عَمْرو رحمه الله:

أَيـا سَـائِلِي تَفْسِـيرَ مَيْـتٍ ومَيِّـتٍ فَدُونك قد فَسَّرْتُ إِن كُنْتَ تَعْقِلُ

فـمَـن كَـانَ ذَا رُوحٍ فـذلـك مَـيِّـتٌ وَمَا الـمَيْتُ إِلَّا مَن إِلى القَبْرِ يُحْمَلُ[٤]

وجَمَعَ بَين اللُّغَتَين عَدِيُّ بنُ الرَّعْلاءِ فَقَالَ:

---

(١) الرجز بلا نسبة. ينظر: الصحاح (١/ ٢٦٧).

(٢) الرجز بلا نسبة. ينظر: المحكم لابن سيده (٩/ ٥٤٤)، ويُروى (فأقعد اليوم).

(٣) وهذا التفريق صحيح بالنسبة لما اجتمع عليه القراء من تشديد ما لم يمت، لكنه منتقض باختلاف القراء في التثقيل والتخفيف فيما سوى ذلك، فلا يستقيم هذا الإطلاق، قال الزجاج في معاني القرآن (٢/ ١٤٤): «وقال بعضهم الميِّت يقال لما لَمْ يَمتْ. والميْتُ لما قَدْ مَاتَ، **وهذا خطأ** إنما ميِّت يصلح لما قد مات، ولما سَيَمُوت. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]»، ثم استشهد ببيت الشعر الذي أنشده عدي بن الرعلاء، ولم ينسبه إلى أحد.

وقال البطليوسي في الاقتضاب في شرح أدب الكتَّاب (١/ ١٠٦): «وقد فرَّق قوم بين (الميِّت) بالتشديد، و(المَيْت) بالتخفيف. فقالوا: (الميِّت) بالتشديد: ما سيموت، و(المَيْت) بالتخفيف: ما قد مات. **وهذا خطأ في القياس، ومخالف للسماع.**

أما القياس، فإن (مَيْت) المخفف إنما أصله (مَيِّت) فخفِّف. وتخفيفه لم يحدث فيه معنى مخالفًا لمعناه في حال التشديد، كما يقال: هَيْن وهَيِّن، ولَيْن ولَيِّن، فكما أن التخفيف في هين ولين لم يحل معناهما، فكذلك تخفيف ميت.

وأما السماع فإنا وجدنا العرب لم تجعل بينهما فرقًا في الاستعمال»، ثم استشهد ببيت الشعر الذي أنشده ابن الرعلاء أيضًا.

(٤) ينظر: تاج العروس (٥/ ١٠٠).

لَيْسَ من ماتَ فاسْتراحَ بِمَيْت ... إنّما المَيْتُ ميِّتُ الأَحْياءِ[1]

ومن أجمل فوائد هذا التقرير أن تنظر في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالله ﷻ يَذْكُر لنا أن الذي ليس عنده نور القرآن ﴿مَيْت﴾ بالتخفيف على قراءة الجمهور ما عدا نافعًا وأبا جعفر ويعقوب[2]،؛ كأنه لا روح له، ولا حياة فيه، وإنما تظهر روحه، وتنطلق حياته عندما يملأ القرآن نفسه.

وقد تتساءل: يصف الله ﷻ البلد بأنه ميت، فكيف يكون البلد ميتًا، وهو ليس ذا روحٍ؟

الجواب: البلد الميت هو الذي ذهب الانتفاع به، فيقال: الأرض الميتة، والأرض المَوَات: الأرض التي لم تُزرع، ولم تُعمَر، ولا جرى عليها مِلْك، ولم ينتفع الخلق بها على هيئة ما، وعند نزول الغيث في بلد فإن أغلب الانتفاع إنما يكون باخضرار الأرض وإزهارها وإثمارها، ولا يمكن لها أن تكون ميتة إلا إذا انقطع عنها الماء، فتنعدم حينذاك أشكال الحياة، فالأرض لا تنبت، والثَّروة الحيوانيَّة لا تنتشر، والثَّروة الصِّناعيَّة لا تنهض، ولا ترى فيه إلا الموت في أرضه، وفوق أرضه؛ وإذا وجد في هذا البلد أهلٌ من الإنسان والحيوان تركوه وهاجروا إلى مكانٍ يوجد فيه الماء.

ووصف البلد بالميت يذكِّرني بوصف الأرض الذي ورد في حديث عَاصِمِ بْنِ لَقِيطٍ ﷺ، وهو حديث من أعجب الحديث، وفيه أَنَّ عاصمًا ﷺ خَرَجَ وَافِدًا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَمَعَهُ صَاحِبٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ: نَهِيكُ بْنُ عَاصِمِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْمُنْتَفِقِ، وفيه: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ

(١) البيت منسوب لعدي بن رَعلاء كما في: الأصمعيات (ص: ١٥٢).

(٢) ينظر: الموضعين. النشر (٢/ ٢٢٤).

يَجْمَعُنَا -أي: الله- بَعْدَ مَا تُمَزِّقُنَا الرِّيَاحُ وَالْبِلَى، وَالسِّبَاعُ؟ قَالَ: أُنَبِّئُكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي آلَاءِ اللهِ، الْأَرْضُ أَشْرَفْتَ عَلَيْهَا، وَهِيَ مَدَرَةٌ بَالِيَةٌ -أي: مثل الصَّحن الممتد المصنوع من المدر، فهي مثله ميتة موتًا تامًا، فلا يوجد فيها أدنى حياة، لا يوجد فيها ثروة نباتية، ولا يوجد ثروة حيوانية، ولا يوجد إنسان، فَقُلْتَ: لَا تَحْيَا أَبَدًا -أي: لن يحصل عمار لهذه الأرض المهجورة- ثُمَّ أَرْسَلَ رَبُّكَ ﷻ عَلَيْهَا السَّمَاءَ -أي: الماء- فَلَمْ تَلْبَثْ عَلَيْكَ إِلَّا أَيَّامًا حَتَّى أَشْرَفْتَ عَلَيْهَا، وَهِيَ شَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ -أي تضج بالحياة-

ثم قال النَّبِيُّ ﷺ: وَلَعَمْرُ إِلَهِكَ لَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ يَجْمَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ عَلَى أَنْ يَجْمَعَ نَبَاتَ الْأَرْضِ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ الْأَصْوَاءِ -أي من القبور- وَمِنْ مَصَارِعِهِمْ[1].

وهنا ستسأل: لماذا أتى بكلمة: ﴿بلد﴾ مُنكَّرًا؟

الجواب: لأن المراد به بلد أراد الله ﷻ إحياءه، فخصَّه بالمطر، وليس المراد كلَّ البلاد، أي: إلى بلدٍ ما، وَفْقَ القوانين السَّببية التي يدبِّر الله ﷻ الكون ومقادير الخلائق وَفْقَها، إلا أن يشاء الله ﷻ خَرْقها.

فإن قلت: ما موقع اللام في قوله: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ﴾؟

الجواب: اللام لها معنيان يصوِّران لنا مشهدين:

المشهد الأول: "اللَّامُ" يجوز أن تكون للغاية المكانية، فهي بِمَعْنى (إلى)، يُقالُ: هَدَيْتُهُ لِلدِّينِ وإلى الدِّينِ، وفي هذا المشهد ترى الله ﷻ يقسِّم رحمته على من شاء من عباده، فيرسل الغيث إلى هذا المكان، وذاك، أي: سقناه إلى أن أوصلناه إلى بلد محدَّد حسب تقسيم الله ﷻ للأرض أيُّها يصله الماء، وأيُّها لا يصله، وفي هذا المشهد ترى الانتظام في وصول المطر

(١) أحمد (١٦٢٠٦)، وقال الأرناؤوط: «إسناده ضعيف مسلسل بالمجاهيل»، وضعَّفه الألباني في ظلال الجنة (١/ ٢٨٩).

أو الغيث إلى أمكنته المعتادة، وقد جاءت بهذا المعنى في قوله تعالى جَدُّهُ: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

المشهد الثاني: يجوز أن تكون "اللَّام" لبيان العلَّة والهدف، فلما قال الله ﷻ: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾ كأن سائلًا قال: ما السبب في أن الله ﷻ ساقه أو حرَّكه؟ فيأتي الجواب: لأجل بلدٍ ميتٍ لَيْسَ فِيهِ حياة لنحييه، وذلك إمَّا أن يكون على سبيل الانتظام في حركة الغيث إلى مكانه، ويجوز أن يكون لا على سبيل الاعتياد، بل على سبيل الإغاثة لقوم استغاثوا بالله ﷻ واستسقوه، فتنبِّئك اللام بوصول الغيث لأجل أن البلد ميت، أو لأجل أن القوم استسقوا ليحيا ذلك البلد، وكلُّ ذلك يدلُّ على العناية الرَّبَّانيَّة بهذا البلد.

فيتضح الفرق البديع في معنى اللام في الحالين، ولنضرب لذلك مثلًا: اعتاد الفلاحون في اليمن مثلًا على نزول الأمطار في آب (أغسطس)، فهذا نظام معتاد، فالله ﷻ يسوق السَّحاب إلى بلد ميت في هذا الوقت، فإذا لم ينزل المطر في هذا الوقت، وتخلَّفت السُّنَّة المعتادة لجأ الناس إلى الاستغاثة بالاستسقاء، فيسوق الله ﷻ السَّحاب لأجل دعائهم إلى ذلك البلد المحدَّد، فإما أن يكون سوق السحاب إلى بلد ما، وإما أن يكون لأجل ذلك البلد بعد أن دعا أصحابه.

وهذه السِّياقة المنظَّمة إلى هذا المكان المحدَّد تذكرنا بحديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ -أي مسايل الماء في الحرار- قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ، فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ -لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ- فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي؟ فَقَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ

حَدِيقَةَ فُلَانٍ، لِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَّا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثًا، وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَهُ»(١).

قال ابْن مَسْعُودٍ ﷺ «أَنَّ رَجُلًا بَيْنَا هُوَ يَسْقِي زَرْعًا لَهُ إِذْ رَأَى غَيَابَةً تَرْهْيأُ(٢)، فَسَمِعَ فِيهَا صَوْتًا: أَنِ اسْقِ أَرْضَ فُلَانٍ، فَاتَّبَعَ الصَّوْتَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي سُمِّيَتْ، فَسَأَلَ صَاحِبَهَا مَا عَمَلُكَ فِيهَا؟ قَالَ: إِنِّي أُعِيدُ فِيهَا ثُلُثًا، وَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثٍ، وَأَحْبِسُ لِأَهْلِي ثُلُثًا»، فكان ابْن مَسْعُودٍ ﷺ يَبْعَثُ مسروقًا إِلَى أَرْضِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِيهَا ذَلِكَ(٣).

المرحلة الخامسة: نزول الماء ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

ما معنى ضمير ﴿بِهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾؟

الجواب:

إما أن يكون المعنى: فَأَنْزَلْنا بِالبَلَدِ الماءَ، فَتَكُونُ الْبَاءُ لِلظَّرْفِيَّةِ، بمعنى فِيهِ، ويؤيده أن الضمير في ﴿به﴾ يعود لأقرب مذكور، وهو البلد هنا.

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ المعنى: فأنزلنا بِالرِّيَاحِ الماء، وإما أن يكون المعنى: فَأَنْزَلْنا بِالسَّحابِ الماءَ؛ فَالْبَاءُ لِلْآلَةِ أَوِ للسَّبَبِيَّةِ، فسبب نزول الماء الرياح والسَّحاب، ووصف الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾

---

(١) مسلم (٢٩٨٤).

(٢) يعني: أنها قد تهيأت للمطر، فهي تريد ذلك، ولما تفعل بعد. غريب الحديث (٥/ ٩٧، ٩٨).

(٣) المعجم الكبير للطبراني (٩/ ٢٩٠) رقم (٩٤٦٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٨): «رَوَاهُمَا الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَرِجَالُهُمَا رِجَالُ الصَّحِيحِ».

[النور: ٤٣]، والْوَدْقُ: الْمَطَرُ[1]، ويحتمل أن تكون الباء بمعنى (مِن)، فيكون المعنى: فأنزلنا منه الماء، كَقَوْلِهِ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، أَيْ: مِنْهَا

وبتأمل في هذا السِّياق الذي تتوالى فيه مراحل نزول المطر بدءًا بتكوُّنِه بخارًا وسحابًا وانتهاء بإحيائه الأرض المَوَات تتجلَّى عظمة الخالق المبدع،: «فإن التصور الإسلامي في هذا الجانب ينفي العفوية والمصادفة في كلِّ ما يجري في الكون، ابتداء من نشأته وبروزه، إلى كلِّ حركة فيه وكلِّ تغيير وكلِّ تعديل، كما ينفي الجبرية الآلية، التي تتصوَّر الكون كأنه آلة، فرغ صانعها منها، وأودعها القوانين التي تتحرَّك بها، ثم تركها تتحرَّك حركة آلية جبرية حتمية وَفْقَ هذه القوانين التي تصبح بذلك عمياء!

إنه يثبت الخلق بمشيئة وقَدَر، ثم يثبت الناموس الثابت والسُّنَّة الجارية، ولكنه يجعل معها القَدَر المصاحب لكلِّ حركة من حركات الناموس، ولكلِّ مرَّة تتحقَّق فيها السُّنَّة، القَدَرَ الذي ينشئ الحركة ويحقِّق السُّنَّة، وَفْقَ المشيئة الطليقة من وراء السُّنَن والنواميس الثابتة».

ثم قال الله ﷻ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧] فهل هذه مرحلة جديدة من مراحل الدَّورة المائية لبثِّ الحياة في الأرض؟

الجواب: نعم، فهذه هي المرحلة السادسة:

(١) ينظر: تفسير المنار (٨/ ٤١٦).

المرحلة السادسة: ظهور الحياة، وبُدُوُّ الثمرات ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

أي: فأخرجنا بالماء، ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾، الثَّمَرَاتُ: جمع ثَمَرة[١]، والأصل أنها تطلق على كلِّ ما يُنْتَج ممَّا يُستفاد منه مالًا، أو طعامًا، أو سلعة، أو أفكارًا، أو نتاجًا لشيء، ولذا قرَّر ابن فارس رحمه الله أنها شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا، فيُقَالُ: ثَمَرَةٌ وَثَمَرٌ وَثُمُرٌ وَثِمَارٌ وثَمَرَات، فهي عامَّة في كلِّ ما يُنتَج من الشيء، ويقال لكلِّ نفعٍ يصدر عن شيء: ثَمَرَة كقولك: ثمرة العلم العمل الصالح، وثمرة العمل الصالح الجنَّة، وَثَمَّرَ الرَّجُلُ مَالَهُ: أَحْسَنَ الْقِيَامَ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ فِي الدُّعاء: " ثَمَّرَ اللهُ مَالَهُ " أَيْ: نَمَّاهُ، ويكنَّى به عن المال المستفاد، وعَن مُجاهد رحمه الله قَالَ: "مَا كَانَ فِي القُرآن من (ثُمُرٍ) فَهُوَ مَال، وَمَا كَانَ من (ثَمَر) فَهُوَ الثِّمَار"[٢].

وعَن مُحَمَّد بن سَلام قَالَ: قَالَ سَلام أَبُو الـمُنْذِر القارئ رحمه الله فِي قَوْله تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الْكَهْف: ٣٥] مَفْتُوح: جمع: ثَمرَة، وَمن قَرَأَ (ثُمُر) قَالَ: من كُلِّ الـمَال. قال الأزهري رحمه الله: فَأَخْبرت بذلك يونُسَ فَلم يَقْبله، كَأَنَّهُمَا كَانَا عِنْده سَوَاء.

ولعلَّ ما ذكره يونس رحمه الله هو الصواب؛ لورود القراءات المتواترة في هذا الموضع والذي بعده[٣]، وهي تتكلَّم عن جنة بعينها، فدلَّ على صحة هذا التفريق الذي ذكره سلام.

وَقَالَ بعضُهم: ثمَرَة، ثمَّ ثمَر، ثمَّ ثِمَار، ثمَّ ثُمُر جَمْع الْجمع.

---

(١) تهذيب اللغة (١٥/ ٦٢).

(٢) الهداية لمكي (٦/ ٤٣٨١).

(٣) اختلف القراء: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ [الْكَهْف: ٣٥]، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الْكَهْف: ٤٢]: فقرأ أبو جعفر وعاصم وروح بفتح الثاء والميم، وافقهم رويس في الأول، وقرأ أبو عمرو بضم الثاء، وإسكان الميم فيهما، وقرأ الباقون بضم الثاء والميم في الموضعين. النشر (٢/ ٣١٠).

فالثَّمرات تطلق على كلِّ ما يُنْتَج ممَّا يستفاد منه، وذلك أساس الرِّزق، فقُصِد بالثَّمرات العموم، ولكن المقصود هنا نوع خاصٌّ من الثَّمرات هي ثمرات الأشجار والنباتات، فهي تطلق في العُرف على أحمال الشجر، سواء أُكِلت أم لا، وَالشَّجَرُ الثَّامِرُ: الَّذِي بَلَغَ أَوَانَ يُثْمِرُ، وَالْمُثْمِرُ: الَّذِي فِيهِ الثَّمَرُ، وبذا تكون الثَّمرات الزِّراعيَّة مقصودة هنا بخصوصها أيضًا؛ لأن الثَّروة الزِّراعيَّة أساس للثَّروة الحيوانيَّة والصِّناعيَّة، فهي المورد الأول للرِّزق.

فالفاء في قول الله تعالى مجده: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧] للتعقيب حسب ما يقتضيه الوقت والسُّنَن الإلهيَّة، فإذا سِيقت السَّحاب الثِّقال، واجتمعت، فربما نزل الماء مباشرة، وربما بعدها بقليل بعد أن تتحرَّك السَّحاب إلى بلد محدَّد، ثم يخرج الله ﷻ به من كلِّ الثَّمرات بعد شهر أو أشهر حسب اختلاف التُّربة، ونوع النَّبات، والضَّوء وغير ذلك من عوامل الإنبات.

وقد تتساءل: كيف جعل الله ﷻ الماء سببًا وحيدًا لإخراج كلِّ الثمرات؟ وكيف أظهر ذلك قدرة الله ﷻ العظيمة وحكمته البالغة؟

الجواب: لاحظ: لم يقل الله: ثمرة واحدة. تخيل هذه المادة الوحيدة التي هي الماء تؤثر في التُّراب، وتتفاعل معه، فبدلًا من أن تخرج ثمرة واحدة أخرجت من كلِّ الثَّمرات مئات بل آلاف الأنواع من الثِّمار. أي: أثَّرَ الماء النازل على الأرض، فأخرجنا به من جنس كلِّ الثَّمرات التي تخرج من نباتات الأرض وأشجارها مما يأكله النَّاس، والحيوانات على اختلاف طعومها، وروائحها، وألوانها وأشكالها.

فإن قلت: هل كلُّ بلد يسوق الله ﷻ له السَّحاب، فينزل به الماء يخرج من كلِّ الثمرات؟

الجواب: لا، فالتَّعبير القرآنيُّ واضح جدًّا، فالله ﷻ لا يسوق السَّحاب لكلِّ بلدٍ من البلدان الميتة، بل يسوقه لبلدٍ ما أراد أن يحييه، وقد يذهب الماء لبلد ما من البلدان الميتة، ويريد الله

ﷻ ألَّا يحييه، فالتَّعبير القرآنيُّ بُني على الحشد الذي ينتج منه التنويع والتوزيع، فبعض البلدان لا يسوق الله ﷻ لها الماء، وبعضها يسوق لها الماء، ولا يحيي أرضها، وبعضها يسوق لها الماء، ويحييها، ولكن أشجارها لا تثمر، وبعضها يحييها، ويخرج ثمارها يانعة طيِّبة، كما بيَّن الله ذلك في الآية التالية: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

المرحلة السابعة: الحاضر والغائب "الغيب والشهادة والحياة الآخرة" ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٧].

إنه استدلال بالحاضر المنظور على الغائب المستور، فكما أحيا الله ﷻ الأرض بعد موتها، كذلك يحيي الأجساد بعد موتها.

المرحلة الثامنة: التذكر، فالعقل والقلب يتذكران فيُكبران ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧]:

هذه المرحلة نتيجة النَّظر في المراحل السَّابقة، أي: أريناكم هذه الآيات المحسوسة التي تشاهدونها لعلكم تستعملون عقولكم، وتدركون أن الله ﷻ كما أحيا البلد الميت بالماء كذلك يخرج الموتى يوم القيامة.

فإذا تفكرتم، وأنعمتم النَّظر في الشواهدِ المنظورة، والبصائر الإلهيَّة، حينها ربما تتأثَّر قلوبكم، ولتعلموا أنَّ الله على كل شيء قدير، وأنكم ستحاسبون على ما فعلتم في الحياةِ الدنيا.

وقد تسأل: ما القراءات الواردة في هذه الكلمة ﴿تَذَكَّرُونَ﴾؟ وما المشاهد التي تصورها؟

الجواب: فيها قراءتان؛ قرأ الجمهور بتشديد الذال ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وأصلها تتذكرون قلبت التاء الثانية ذالًا؛ لتقارب مخرجيهما، ثم أدغمت في الذال، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخلف- بتخفيف الذال- ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على حذف إحدى التاءين اختصارًا[1].

وليس معناهما واحدًا، فَإِنَّ الصِّيَغَ مِنَ الْمَادَّةِ الْوَاحِدَةِ تُعْطِي مَعَانِيَ خَاصَّةً، وَيُتَجَوَّزُ فِي بَعْضِهَا مَا لَا يَصِحُّ فِي بَعْضٍ.

فالقراءتان صيغة واحدة وإنما اختلف النطق بينهما لأن إحداهما على حذف إحدى التاءين تخفيفًا، والأخرى على الإدغام.

وهذا الاختلاف في النطق له تأثير في المعنى، فبالتخفيف فيها تركيز على نوع من أنواع التذكُّر وهو التذكُّر الهادئ العميق لقضية واحدة، وبالإدغام فيها تركيز على نوع آخر من أنواع التذكُّر، وهو التذكُّر لحشد من القضايا، وعلى كلا القراءتين فيهما نوع من السرعة، فالفعل بهذا النطق أسرع حركة وأسرع في الوصول إلى نتائجه، من الفعل الجاري على أصله: (تتذكرون)، ولم يقرأ به في القراءات العشر، وذلك موافق لما حشد من القضايا التي تتطلب سرعة وعمق وتوصل إلى النتيجة بسرعة وبيقين تام لا يقبل الشك.

فالتذكُّر: تَكَلُّفُ ذِكْرِ الشَّيْءِ فِي القَلبِ، أَوِ التَّدَرُّجِ فِيهِ بِفِعْلِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ، وَيُطْلَقُ عَلَى الِاتِّعَاظِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣][2].

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٦٦).

(٢) تفسير المنار (٨/ ١٧١، ١٧٢).

والذِّكر[١]: حفظ الشيء، واستحضاره ليخطر على العقل، وعرَّفه الرَّاغب رحمه الله بأنه هَيْئَةٌ لِلنَّفْس بهَا يُمْكِن الإِنْسَانَ أَن يَحْفَظَ مَا يَقْتَنِيه من المَعْرِفة، وَهُوَ كالحِفْظ إِلَّا أَن الحِفْظ يُقَال اعْتبارًا بإِحرَازه، والذِّكْر يُقَال اعتبارًا باسْتِحْضَارِه، ومنه قَول كَعْب بن زُهَيْر:

أَنَّى أَلَمَّ بك الخَيَالُ يَطِيفُ ... ومَطافُه لَك ذِكْرَةٌ وشُعُوفُ[٢]

ويظهر لي أن المعنى يكون هنا: تعتبرون كيف يحيي الله الأرض بعد موتها أمامكم، وكما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يحيي الموتى في الآخرة، فاستحضروا هذه الصُّورة التي تشاهدونها في الأرض، واستحضروا ما سيكون يوم القيامة لعلَّكم تذكرون، فتتأثرون، ويوصلكم إلى فَهْمٍ أعلى، وعملٍ أقوى، والتَّذكُّر يحميكم من النِّسيان والإهمال والترك والغفلة.

وأعظم التذكر تذكر أن الله عز وجل له الخلق والأمر في دورة الحياة:

تِلكَ الطَّبيعَةُ قِفْ بِنا يا ساري ... حَتَّى أُريكَ بَديعَ صُنعِ البَاري

الأَرضُ حَولَكَ وَالسَّماءُ اهتَزَّتا ... لِرَوائِعِ الآياتِ وَالآثارِ

مِنْ كُلِّ ناطِقَةِ الجَلالِ كَأَنَّها ... أُمُّ الكِتابِ عَلى لِسانِ القاري

دَلَّت عَلى مَلِكِ المُلوكِ فَلَم تَدَعْ ... لِأَدِلَّةِ الفُقَهاءِ وَالأَحبارِ

مَنْ شَكَّ فيهِ فَنَظرَةٌ في صُنعِهِ ... تَمحو أَثيمَ الشَّكِّ وَالإِنكارِ[٣].

---

(١) مقاييس اللغة (٢/ ٣٥٨)، المفردات في غريب القرآن (ص: ١٧٩)، تاج العروس (١١/ ٣٧٦).

(٢) ديوان كعب بن زهير (ص: ٤٩)، والشُّعُوفُ: الوَلُوعُ بالشيْءِ حَتَّى لَا يَعْدِلَ عَنْه.

(٣) الأبيات لأحمد شوقي.

التَّذكُّر عملية تنتج من التَّفكُّر، وشعور وإحساس نابع من عمليَّة عقليَّة قائمة على التأمُّل العميق.

يلفت الله ﷻ أنظارنا إلى قوانين المادة حوالينا، فيقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

فتذكِّرك دورة الحياة المائية بأن الله ﷻ ضَرَبَ إِحْيَاءَ الْبِلَادِ بِالْمَطَرِ مَثَلًا لِبَعْثِ الْبَشَرِ.

فيؤدِّي بكم ذلك إلى تذكُّر قدرته، وإلى تيقُّن أنه لا فرق بين الإخراجين؛ إذ كلٌّ واحد منهما إعادة للشيء بعد موته، فلو أَعملتم عقولكم لزال تعجُّبكم، وذَهَب استبعادكم للبعث.

فالمادِّيون والدَّهريون كثيرًا ما يتهجمون على فكرة إحياء الأموات يوم القيامة، وقد حكى الله ﷻ عنهم أنهم قالوا: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؟ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]؟ ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]؟ أي: سَنُدَانُ ونُحاسب؟ وقالوا عن البعث: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] أي: لا يمكن لنا أن نُبعث، فنحن نستبعد ذلك.

والله ﷻ يلفت أنظار عباده في الكون حولهم، ويبيِّن لهم أنه لا فرق بَيْنَ إحياء الأرض الميتة بقدرة الله ﷻ، وإحياء الأجساد بعد موتها، فكأنه يقول تعالى ذكره: كما يحيي الله ﷻ الأرض المَوَات بواسطة الغيث، ويخرج النَّبات بواسطة الغيث، كما نحيي هذا البلد الميت بما ننزل به من الماء، الذي ننزله من السَّحاب، فنخرج به من الثمرات بعد موته وجدوبته وقُحُوط أهله، كذلك نخرج الموتى من قبورهم أحياءً بعد فنائهم ودُرُوس آثارهم، فنحييهم بواسطة مطرٍ خاصٍّ ننزله يوم القيامة.

وكما أن الْبُذُور وَالْجُذُور تنمو بسبب الماء، والتَّغذِّي بِمَوَادِّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ وضوء الشمس وغير ذلك من العوامل، كذلك ينزل الله ﷻ ماء خاصًّا على بذرةٍ باقية من جسد الإنسان تسمَّى عَجْبَ الذَّنَب:

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ». قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ ﷻ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ البَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ القِيَامَةِ»[1].

ها قد رأينا هذا التَّأثير المحسوس للماء في الأرض، إذ أحيا الله ﷻ به البلدة الميتة، ويصوِّر النَّبِيُّ ﷺ تأثير أنوار القرآن، وما جاء به من الوحي على الإنسان بصورة مماثلة، فيقول: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ -فهذا البلد الطيب التي أراد الله ﷻ لها أن تنبت وأن تنتج- وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا -هذه لا ينفع فيها أن تنبت وينتفع الناس بها لإبقاء الثروة المائية- وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً، وَلا تُنْبِتُ كَلأً -أي: لا يستفاد منها لا في الثَّروة الزِّراعيَّة ولا في الثَّروة المائيَّة- فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ[2] فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[3].

قال الله ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] فماذا يعني ختم الآية بذلك؟

---

(١) البخاري (٤٩٣٥)، وناقش محمد رشيد رضا ﷺ الشبه الواردة هنا مناقشة ممتعة واسعة مدهشة، وأحث على الرجوع إليه. ينظر: تفسير المنار (٨/ ٤١٨).

(٢) (فَقِهَ): بكسر القاف أي: تعلَّم الفقه، (ومن فقُه) بضم القاف أي: صار الفقه له سجية بعد أن تعلَّمه، وعلى ذلك يجوز للكلمة أن تطبق بالهيئتين. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٥/ ٤٧).

(٣) البخاري (٧٩)، مسلم (٢٢٨٢).

الجواب: إن الله ﷻ يعلِّمنا التفكير العلميَّ بوضوح شديد:

ومن أعظم ما تذكِّرنا به الآيات ألَّا تشغلنا المشاهدات والماديات الموجودة أمامنا عمَّا وراءها، انظر كيف تذكِّرك الآية بالحقيقة التي يصرُّ المعاندون على إنكارها: كلُّ فعل لا بدَّ له من فاعل، وفاعل هذه الموجودات كلِّها هو الله ﷻ. انظر كيف تقول الآية:

﴿وَهُوَ﴾ ضمير يعود على الله ﷻ، ﴿ٱلَّذِى﴾ اسم موصول يعود إلى الله، ﴿يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ ﴿يُرْسِلُ﴾: فعل، و﴿ٱلرِّيَـٰحَ﴾: مفعول، وفاعل الإرسال هو الله تعالى ذكره، ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ الهاء الضمير يعود على الله ﷻ، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ﴾ من جديد، الرِّياح لا يمكن أن تتحرَّك إذا لم يودع الله ﷻ فيها قوَّة الدَّفع، والسَّحاب لا يمكن أن تتحرَّك إذا لم يودع الله ﷻ فيها قوَّة القبول من الرِّياح، فقال: ﴿سُقْنَـٰهُ﴾ فاعل السَّوْق ضمير مستتر تقديره: نحن بعظمتنا، وهذا ضمير التَّعظيم يعود على الله ﷻ، ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ ضمير العظمة يعود على الله ﷻ، ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ضمير العظمة يعود على الله ﷻ، لاحظ كيف يربط -جلَّ في علاه- بين قدرته المحرِّكة لكلِّ شيء وبين الأسباب به، للدِّلالة على الأسباب، ولكن لا ينبغي أن تحجبك الأسباب عن مسبِّب الأسباب، ولا يعني ذلك أن تنسى أنه وضع أسبابًا وقوانين ينبغي أن تسلكها، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فاعل الإخراج ضمير العظمة يعود على الله تعالى ذكره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ التَّذكُّر: ضد النِّسيان والغفلة كأنه يقول للملحدين الذين ينكرون البعث بعد الموت: ضربتُ لكم، أيُّها القوم هذا المثل الذي ذكرت لكم: من إحياء البلد الميت بقَطْر المطر الذي يأتي به السَّحاب الذي تنشره الرِّياح التي وصفتُ صِفتها، لتعتبروا فتذكروا وتعلموا أن مَنْ كان ذلك مِنْ قدرته، فَيَسِيرٌ في قدرته إحياء الموتى بعد فنائها، وإعادتها

خلقًا سويًّا بعد دُرُوسها، لتتذكروا أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَمْتَنِعْ هَذا المَعْنى في إحْدى الصُّورَتَيْنِ وجَبَ أنْ لا يَمْتَنِعَ في الصُّورَةِ الأُخْرى.

تُظهر لك الآية والآيات الرؤية القرآنيَّة العظيمة.. إنها الرؤية التي تجمع بين: الأسباب التي قدَّرها الله ﷻ في الكون، وبين قدرة مسببها ﷻ.

تأمل كيف تأخذ الآية بيديك، وتنقل تفكيرك لئلا تأسرك صور الموجودات عن حقيقة موجدها ﷻ.

إنها جميعًا تدلُّك على «آثار الرُّبوبيَّة في الكون. آثار الفاعلية والسُّلطان والتَّدبير والتَّقدير. وكلُّها من صنع الله ﷻ الذي لا ينبغي أن يكون للناس ربٌّ سواه. وهو الخالق الرَّازق بهذه الأسباب التي ينشئها برحمته للعباد.

وفي كلِّ لحظة تهبُّ ريح، وفي كلِّ وقت تحمل الرِّيح سحابًا. وفي كلِّ فترة ينزل من السَّحاب ماء.

ولكنْ ربطُ هذا كلِّه بفعل الله ﷻ - كما هو في الحقيقة - هو الجديد الذي يعرضه القرآن، هذا العرض المرتسم في المشاهد المتحرِّكة، كأنَّ العين تراه».

إنه الله.. هو الذي يرسل الرِّياح مبشِّراتٍ بين يدي رحمته.. ولكنه يرسلها وَفْقَ قوانين وضعها لها، يرسلها وَفْقَ نواميس حدَّدها لتتحرَّك في هذا الكون الممتد الفسيح، والرِّياح لا تنشئ نفسها بنفسها، ولا تحرِّك ذاتها بمحض إرادتها، بل وَفْقَ إرادة ربِّها ﷻ، وبواسطة القوَّة التي أودعها الله ﷻ فيها.

والسُّحب التي دفعتها الرِّياح تكونت وَفْقَ قوانين محدَّدة وضعها مَنْ له الخلق والأمر جلَّ ثناؤُه، ودفعتها الرياح وَفْقَ قوانين محدَّدة حددها مَنْ له الخلق والأمر تعالى ملكه، ووصلت إلى مكان حدَّده مَنْ له الخلق والأمر تعالى ذكره.. إنَّها الرؤية الإسلاميَّة الصَّافية لواقع

الوجود: الله هو الذي له الخلق والأمر، والكون ما هو إلا أحد مخلوقاته، أودع فيه قوانين محددة بأمره.

هل يستوي هذا التَّصوُّر العقلانيُّ المنطقيُّ، والتَّصوُّر الأعمى الذي يدعي أن هذا الكون المنظم جاء صدفة، ويسير وفق صدفة عمياء؟!

إنها الرؤية القرآنيَّة تبصرك، تنير وجدانك، وتنفي عن قلبك غباء الجبريَّة والصُّدفيَّة لترى إرادة الله ﷻ الخالقة والفاعلة والمحركِّة، والرَّقيبة والقادرة والمحيطة.. هناك يهتزُّ لساك بالتَّسبيح لمن له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

الفِكرَ يا إنسانُ لو أَطلقْتَهُ ... متأمِّلًا في قُدْرةِ الرَّحمنِ
لخَضَعتَ إجلالًا وتسبيحًا لهُ ... سبحانه ربٌّ عظيمُ الشَّانِ
يعلو ولا يُعلى وجلَّ عُلُوُّهُ ... وصِفاتُهُ كَمُلتْ بلا نُقصانِ
سُلطانُهُ باقٍ ويبقى مُلْكُهُ ... هذا ويفنى كلُّ ذي سُلطانِ
في كلِّ شيءٍ قد تكامل صُنْعُهُ ... ذا مُحكَمُ التَّنزيلِ خيرُ بيانِ
قد عمَّ أرجاءَ الفضاءِ بِآيِهِ ... انْظُرْ ترى ما لا يَصِفه لساني
هذه السَّماء تزيَّنت بكواكبٍ ... لجمالِها رُفِعَتْ بلا أَركانِ
والرِّيحُ تَجْرِي والسَّحابُ بِأَمرهِ ... يُحْيِي بها ما مَاتَ مِنْ بُلدانِ
هذا ومن آياتِهِ تِلكَ الَّتي ... حَمَلَتْ بلا رَجُلٍ ولا بُهتانِ
والكلُّ جُندٌ للإلهِ أَمَا ترى ... جُنْدًا يَقُضُّ مضاجعَ الطُّغيانِ[1]

(١) كلمات: ناصر السعيد. ينظر: https://youtu.be/kN4iGoGwRIs

شبهة ورد:

من أهمِّ الشُّبَه التي تَرِدُ على مبدأ البعث: زعم بعضهم أن البعث لو وقع فهو لا يدلُّ على العدل؛ لأن الأجساد تتبدل، فلن يقع الجزاء بالحسنى أو بالعذاب على الجسد نفسه الذي كان في الدنيا، فكيف يمكن يُرَدُّ على هذه الشُّبهة؟

الجواب: يتلخَّص الردُّ على هذه الشُّبهة فيما يأتي:

أولًا: إذا آمنت بقدرة الله ﷻ المطلقة على كلِّ شيء، ومن ذلك البعث، فيسهل عليك أن تؤمن بعدله جلَّ في علاه.

ثانيًا: من الناحية المنطقيَّة فإنك ترى أن أَجْسَادَنَا تبدَّلت مِرَارًا بتغير الخلايا التي تكوِّنها، والتي تتجدَّد بصورة مذهلة، ولكن ذلك لم يؤثِّر على حقائقنا وأرواحنا وتصوراتنا وأفكارنا وأعمالنا واهتماماتنا، بَلْ لَمْ يَكُنْ هَذَا التَّبَدُّلُ إِلَّا كَتَبَدُّلِ الثِّيَابِ، وَقَدْ قَالَ بَعْضُ أَعْلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ بِمِثْلِ هَذَا وَلَمْ تَكُنِ الْمَسْأَلَةُ الْأَخِيرَةُ مَعْلُومَةً فِي عَصْرِهِمْ، قَالَ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ فِي "شَرْحِ الْمَقَاصِدِ" وَهُوَ أَشْهَرُ كُتُبِ الْكَلَامِ فِي التَّحْقِيقِ بَعْدَ بَيَانِهِ لِمَا قَالَهُ الْغَزَالِيُّ فِي إِثْبَاتِ كَوْنِ الْحَشْرِ وَالْمَعَادِ لِلرُّوحِ وَالْجَسَدِ جَمِيعًا مَا نَصُّهُ:

نَعَمْ رُبَّمَا يَمِيلُ كَلَامُهُ وَكَلَامُ كَثِيرٍ مِنَ الْقَائِلِينَ بِالْمَعَادَيْنِ إِلَى أَنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَفَرِّقَةِ لِذَلِكَ الْبَدَنِ بَدَنًا فَيُعِيدُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ الْمُجَرَّدَةَ الْبَاقِيَةَ بَعْدَ خَرَابِ الْبَدَنِ. وَلَا يَضُرُّنَا كَوْنُه غَيْرَ الْبَدَنِ الْأَوَّلِ -فالمقصود أن ذات الشخص وحقيقته موجودة فيه- بِحَسَبِ الشَّخْصِ، وَلَا امْتِنَاعُ إِعَادَةِ الْمَعْدُومِ بِعَيْنِهِ، وَمَا شَهِدَتْ بِهِ النُّصُوصُ مِنْ كَوْنِ أَهْلِ الْجَنَّةِ جُرْدًا مُرْدًا، وَكَوْنِ ضِرْسِ الْكَفَّارِ مِثْلَ جَبَلِ أُحُدٍ يُعَضِّدُ ذَلِكَ، وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] -وتبديل الجلود لا يعني أنها ليست لهم، بل هم يشعرون بذلك، كما أن الخلايا تشعر بأنها لم تغيِّرك عندما تتبدَّل في جسدك وأنت

لا تشعر بها في حياتك الموجودة ههنا- وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] إِشَارَةً إِلَى هَذَا.

(فَإِنْ قِيلَ): فَعَلَى هَذَا يَكُونُ الْمُثَابُ وَالْمُعَاقَبُ بِاللَّذَّاتِ وَالْآلَامِ الْجُسْمَانِيَّةِ غَيْرَ مَنْ عَمِلَ الطَّاعَةَ، وَارْتَكَبَ الْمَعْصِيَةَ.

(قُلْنَا): الْعِبْرَةُ فِي ذَلِكَ بِالْإِدْرَاكِ، وَإِنَّمَا هُوَ لِلرُّوحِ وَلَوْ بِوَاسِطَةِ الْآلَاتِ وَهُوَ بَاقٍ بِعَيْنِهِ، وَكَذَا الْأَجْزَاءُ الْأَصْلِيَّةُ مِنَ الْبَدَنِ، وَلِهَذَا يُقَالُ لِلشَّخْصِ مِنَ الصِّبَا إِلَى الشَّيْخُوخَةِ إِنَّهُ هُوَ بِعَيْنِهِ وَإِنْ تَبَدَّلَتِ الصُّوَرُ وَالْهَيْئَاتُ، بَلْ كَثِيرٌ مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَعْضَاءِ، وَلَا يُقَالُ لِمَنْ جَنَى فِي الشَّبَابِ فَعُوقِبَ فِي الْمَشِيبِ إِنَّهَا عُقُوبَةٌ لِغَيْرِ الْجَانِي[1].

حتى نكون من المتذكرين حقًّا.. فما مجمل الآيات الكونية التي ذكرتها هذه الآية القرآنيَّة؟

الجواب: لاحظ كيف أن الآيات رسمت لنا صورة عجيبة في الكون، لقد ذكر الله ﷻ أهمَّ الآيات العظمى التي تسبح البشريَّة في وسط نعيمها دون أدنى عناء، وأعظم هذه الآيات:

الرِّيح (وهو الهواء المتحرك)، وتصوَّرْ لو توقَّف الهواء.. هل يمكن للحياة أن تستمر؟

والماء وهو الذي يحيي البشريَّة، ويحيي الأرض بعد موتها.

وقد قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «فَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ (الْهَوَاءُ وَالْمَاءُ وَالنُّورُ وَالْحَرَارَةُ) أَثْمَنُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ الْكَرِيمَةِ كُلِّهَا، وَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى أَنْ جَعَلَهَا عَامَّةً مَبْذُولَةً لَا يُمْكِنُ احْتِكَارُهَا، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا مِنْ مَنَافِعِهَا مَا يَسْهُلُ عَلَى كُلِّ قَارِئٍ لِلْمَنَارِ -أي: لتفسيره- أَنْ يَفْهَمَهُ، وَإِلَّا فَإِنَّ لَهَا مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْفَوَائِدِ مَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا أَسَاطِينُ عُلَمَاءِ الْكِيمْيَاءِ وَالطَّبِيعَةِ، وَهُمْ لَا

(١) تفسير المنار (٨/ ٤٢١).

يَزَالُونَ يَزْدَادُونَ بِهَا عِلْمًا، وَهَذَا مِصْدَاقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»، وقد نظم عبد الرحمن القاضي رحمه الله هذه المراحل لدورة الحياة، فقال:

كُنْ يا أخي إلى السَّحاب ناظِرَا ... كيف غَدَا سَيلًا يَسيرُ طَائِرا
أرسلْه لنا الإلهُ رحمهْ ... فهل شكرتَ للإله النِّعمهْ
فَسَلَّط الشَّمسَ على البِحارِ ... لرفعِ ما فيها من البُخارِ
ورَفْعِ مائِهِ إلى السَّماءِ ... فوقَ الجبالِ هذه الشَّماءِ
وحَاطَهُ ببارِدِ الهواءِ ... لوقفِ رفعِهِ إلى السَّماءِ
ولو أراد أوجد الحرارهْ ... فلا ننال عندها قُطَارَهْ
وساق نحوَه الرِّياحَ نُشُرا ... تثيره بعدُ سحابًا مُعْصِرَا
فلا الجبالُ تستطيعُ ردَّ ذا ... إن شاء مِنْ ورائها أن يَنْفُذا
فيا ترى أذلك التَّدبيرُ ... تدبيرُ مَنْ ليس له تفكيرُ
مِنْ وثنٍ أصمَّ أو طبيعهْ ... جامدةٍ لربِّها مطيعهْ
أم أن ذاك هو حقًّا شاهدُ ... بأنَّ مولانا الإلهُ الواحدُ

نتنقل إلى قوله جل شأنه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، **فما المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الذي تقدِّمه لنا هذه الآية المباركة؟**

الجواب: هنا يأتي المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الحادي عشر.

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ الحادي عشر: الله ﷻ هو القادر الذي يحكم نتائج دورة الحياة، حيث تظهر النَّتيجة بعد نزول الماء على الأرض بإذن الله ﷻ، وتختلف هذه النتيجة من موضع لآخر ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]:

المناسبة والاتصال:

انعقد هذا المحور للتَّعريف بالله ﷻ في صفاته وأفعاله وآياته، فجاءت الآية (٥٤) لتعرِّفنا بالله ﷻ من خلال ثمانية معالم ظهرت أنوارها فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ثم ذكر الله ﷻ لنا المَعْلم التاسع في الدُّعاء ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ [الأعراف: ٥٥]، والدُّعاء يمثِّل كلام العبد مع ربِّه ﷻ، فيناجيه، ويطلب منه، فيلبِّي له دعاءه ويحقِّق رجاءه.

ثم جاء المَعْلم العاشر من خلال دورة الحياة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وهنا يخبرنا الله ﷻ بأنه يحكم نتيجة إنزال الماء، وفي الوقت ذاته يبيِّن لنا سبب اختلاف النَّتيجة بعد نزول الماء، فتجمع الآية بين قدرة الله العظيمة، وإحاطته الشَّاملة، وبين اختيار العبد.

فقد جعل الله ﷻ لكلِّ أرضٍ خصائصها، وهذه الخصائص تجعل نتيجة التَّفاعل مع رحمة الله ﷻ النازلة بالمطر مختلفة، فهناك الأرض الطَّيِّبة التي تخرج النَّبات بإذن الله ﷻ، وهناك الأرض الخبيثة التي تخرج النَّبات النَّكِد على الهيئة النَّكدة مع أن المادة التي نزلت على كلِّ منهما واحدة وهي الماء، فهذه الآية تصف ذلك لتبيِّن قدرة الله ﷻ في تنويع الخلق مع وحدة المادَّة العامَّة.

وكلُّ ذلك يبصِّرك بأن هذه الحياة تتنوَّع، فتجد فيها أرضًا طيِّبة في هيئة خروج النَّبات منها، وما يحمله هذا النَّبات من الثَّمرات الخارجة، وتجد نوعًا آخر للحياة، وهي حياة النَّكد، فتكون نكدة في هيئة خروجها، وكذلك تكون نكدة في ثمراتها.

وانظر لقوَّة الاتِّصال في خاتمة الآيتين:

ففي الآية السَّابقة نرى أن الله جَّل شأنه يحيي بالماء الأرض الموات في الدنيا، فكذلك يخرج الله ﷻ الموتى يوم القيامة، ولِذَلِكَ ختمت الآية السَّابقة بقوله ﷻ في مشهد الاعتبار: ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي الآية الثانية نرى أن الله ﷻ يَحْكُم للطَّيِّب من الأرض بخروج ما فيها طيِّبًا، ويَحْكُم للخبيث من الأرض بخروج ما فيها نكدًا، وكذلك يثيب الله ﷻ الخلق في تعاملهم مع الوحي الذي يحيي النُّفوس، ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى في مشهد الاعتبار: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

وتعال ننظر في تفاصيل كلمات هذه الآية، فقد تكوَّنت من ثلاثة أقباس "جُمَل":

القَبَس الأول: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ [الأعراف: ٥٨]:

فما معنى كلمات هذا القَبَس؟

احتوى هذا القَبَس من الآية على خمس كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿وَٱلۡبَلَدُ﴾ فالواو رابطة عاطفة تصل هذه الآية بما قبلها، فكأن الله ﷻ يقول: كما أنَّ الله ﷻ يرسل الرِّياح بشرًا بين يدي رحمته، وينزل الماء ليحيي به الأرض بعد موتها، كذلك يُخرج الله ﷻ من هذه الأرض النَّباتَ الطَّيِّب إذا كانت الأرض طيِّبة، ولو شاء أن يمنعها منعها، ولو شاء أن يخرج منها شيئًا خبيثًا لقدر على ذلك، ولكنه يجازي الأرض

حسب طيبها أو خبثها، فهذه وظيفة الواو وأما كلمة: ﴿ٱلْبَلَدُ﴾ فهي تعني الأرض الواسعة المنبسطة التي تجمع أهلها، سواء أكانوا بشرًا أم غير ذلك.

الكلمة الثانية: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾:

الطَّيِّبُ: وصْفٌ عَلى وزْنِ فَيْعِلٍ، وهي صِيغَةٌ تَدُلُّ عَلى قُوَّةِ الوَصْفِ في المَوْصُوفِ مِثْلُ: قَيِّمٍ أي: شديد القيام، ومثل ذلك الطَّيب أي: المُتَّصِفُ بِالطَّيبِ الظاهر الواضح، وقد اتَّصف به اتصافًا قويًّا بخلاف ما لو كان الطِّيبُ عنده يسيرًا، فإنك تقول: فلان عنده بعض الطيبة، أما إذا قلت: طيِّب، فهذا يعني غلبة الطيبة عليه، فقوله: ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ جاء على وزن فَيْعِلٍ، وأدركنا لماذا جاء على هذا الوزن، ولكن ما معنى: الطيبة في ذاتها؟

يقال: طاب الشيء يَطِيب طِيْبًا وطابًا، و(طِيبَةً) بِزِيَادَةِ الهَاءِ، و(تَطْيَابًا) بالفَتْح فهو طَيِّب، إذا لذَّ وزَكَا، وترتَّب عليه ما يُرغب به فيه، فيقال: طَابَتِ (الأَرْضُ) طِيبًا: إذا أَخْصَبَت، أي: ظهر نباتها، و(أَكْلَأَت) أي: ظهرت ثمارها، أو ما يستفاد به منها، فهي الأرض النَّقية التي:

- تطيب في ذاتها، فترى تربتها زكيَّة نقيَّة.
- وتطيب في طريقة معالجتها لخروج نباتها.
- وتطيب في هيئة النَّبات الخارج، فيشعر الإنسان بجمالها وخضرتها.
- وتطيب في الخارج من شجرها وثمراتها.

والطَّيِّب: ما تستلذه الحواس ويستهوي النفوس، ولطيب البلد تعشق تربتها كما تجذبك أشجارها:

روضٌ إذا زُرْتَهُ كئيبًا ... نفَّسَ عن قلبِكَ الكُرُوبَا

أرضٌ إذا زارها غريبٌ أصبحَ عن أرضِهِ غَرِيبَا[1]

فأنت ترى الغيث ينزل في بقعة واحدة، لكن الأثر في تلك البقعة يختلف، فنبات يخرج طريًّا، وترى الأرض تهتزُّ في حياتها وجمالها، وترى بذورًا أو فسائل يغلب عليها النَّكد في الأرض نفسها، فلا تنفعل لنزول الغيث، وكأنها حجارة جافَّة جامدة، وترى بذورًا أخرى تنبت لكن دون نباتٍ مثمر، أو خضرة بهيجة.

الكلمة الثالثة: ﴿يَخۡرُجُ﴾:

الخروج هو انبعاث شيء من جهة داخلية بالنسبة له إلى جهة خارجية، والمراد به هنا انبعاث النبات من داخل الأرض إلى خارجها.

الكلمة الرابعة: ﴿نَبَاتُهُۥ﴾:

أي: نبات الأرض، والمراد به كلُّ ما ينبت صغيرًا كان أم كبيرًا، شجرة باسقة مرتفعة أم حشائش ملتصقة بالأرض.

الكلمتان الخامسة والسادسة: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾:

هذه الجملة ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ في مَوْضِعِ الحالِ مِن ﴿نَبَاتُهُۥ﴾، أي: يخرج نبات البلد حال كون خروجه لا بنفسه، ولا بتطوُّره، وإنما بإذن ربِّه ﷻ، فتصوَّرْ كيف ترد هاتان الكلمتان على المادِّيين الذين يظنُّون أن الأشياء يمكن أن تقوم بنفسها، وهي لا تقوم إلا بإذن الحيِّ القيوم ﷻ، فهذا الوصف ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾ احتراسيٌّ يبيِّن لك فائدتين:

١) أمر الله ﷻ، فالله هو الملك المالك الحيُّ القيوم الذي يسيرُ كلَّ شيء وَفْقَ أمره وتدبيره، فلا يخرج النَّبات إلا أن يشاء ربُّه ﷻ، وحينها يأمر الله تعالى هذا المكان بأن يُنبِت.

---

(١) للشاعر إيليا أبي ماضي في ديوانه (ص: ١٨٣).

٢) عناية الله ﷻ، أي: يُخرج النَّبات حال كون الله ﷻ قد أخرجه بفضله ورحمته وعنايته على خير.

فكما يحرص الفلَّاح على حرث أرضه، وتعاهدها، والاهتمام بها، فإن جاء الماء ووافق هذه العناية، فعند ذلك تنبت وتثمر، إلا أنك ترى بعض البلدان لا تُنتج بالرَّغم من بذل كلِّ الأسباب، وهنا لا بدَّ أن تتدخَّل المشيئة الإلهيَّة؛ إما للإذن بإخراج النباتات، وإما للمنع.. وما ذلك إلا ليبيِّن لك الله ﷻ أنه لا بدَّ من التَّعلُّق بمسبِّب الأسباب، وربِّ الأرباب، الملك الوهَّاب ﷻ.

وهذه الآية بيَّنت لنا دليلين من أدلَّة التَّعرُّف إلى الله ﷻ، ومن التَّعرُّف إليه التَّعرُّف إلى أثر كلامه جلَّ في علاه، ولكن بعض المفسِّرين جعل علاقة هذه الآية بما قبلها الاستطراد، كقول الزَّمخشريِّ رحمه الله: «وهذا التَّمثيل واقع على إثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميِّت، وإخراج الثَّمرات به على طريق الاستطراد»[1].

ولكنني أميل إلى أن الاستطراد علاقة تحتمل الضَّعف أحيانًا؛ لأنها توهم أنَّ الكلام المذكور لم يكن مقصودًا، بخلاف ما نحاول إثباته في منهج "تسوير السُّورَة القرآنيَّة" من أن القرآن المجيد على نسقٍ فريد في التَّرقيم والتَّنضيد، فكلُّ كلمة فيه مقصودة، وأنت ترى أننا نظرنا إلى هذه الآية نظرة مكملة لمعالم التَّعريف بالله ﷻ، وليست مجرد استطراد لما سبق.

(١) الكشاف (٢/ ١١٢).

القبس الثاني: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف: ٥٨]:

وينبغي أن نسأل: تكوَّن هذا القبس من ستِّ كلمات، فما معناها مفردة ومجموعة؟

الجواب:

الكلمة الأولى: ﴿وَٱلَّذِى﴾: اسم موصول يعود على البلد.

الكلمة الثانية: ﴿خَبُثَ﴾: كلمة تقابل كلمة (طاب) التي فهمناها من القبس الأول، والخُبْثُ والخَبِيثُ: ما يكره رداءةً وخساسةً، عكس الطَّيِّب لاحتوائه على مفسدٍ لما يدخل عليه، كالذي يفسد الطَّبيعة الإنسانيَّة الجسديَّة، أو الفكريَّة، أو طبيعة الأشياء مثل: المفسد لطبيعة الأرض، ومنه خَبَثُ الحديد والذَّهب والفضَّة: وهو الشَّيء الدَّخيل عليها، فليس منها، فيسلط الناسُ النارَ عليها لتُخرج الخبيث الزَّائف، ويبقى الجيِّد النَّقيُّ، كما قال الشاعر:

سَبَكْنَاهُ وَنَحْسَبُهُ لُجَيْنًا ... فَأَبْدَى الكِيرُ عَن خَبَثِ الحَدِيدِ[1]

فصدأ الحديد ونحوه، وطعم الثوم ورائحته وما يخرج من الأحياء من الفضلات في الجملة كالبول والغائط.. هذه كلها خبيثة مستكرهة.

ثم ينقسم الخبيث إلى ما اشتدَّ خبثه وأُبعد؛ إذ لا خير فيه، وما فيه خبث نِسْبيٌّ من وجه ما مثل الكَرِيه الطَّعم أو الرَّائحة، لكنه طيبٌ من جهة أخرى كأصل المأكول، مثل: الثُّوم والبَصَل والكُرَّاث والدَّواء المر.

فيدخل في الخبيث الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال، قال ﷻ: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي: المفسدات لطبيعة الأشياء، ومن ذلك قوله

(١) الأبيات لابن زُرَيك، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (٦/ ٤٠٤).

تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، فقد أتوا أقبح القبائح المخالفة للفطريَّة؛ استجابة لشهوة عارضة حين أتوا الذُّكران.

الكلمة الثالثة: ﴿لَا﴾: حرف نفي، فتمنع أو تطرد معنى الكلمة التي بعدها.

الكلمة الرابعة: ﴿يَخْرُجُ﴾: أي: يبرز من الدَّاخل إلى الخارج كما سبق.

الكلمة الخامسة: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، أي: تستثني ما بعدها مما قبلها، فما قبلها ﴿لَا يَخْرُجُ﴾، وما بعدها ﴿نَكِدًا﴾، فهو لا يكون إلا في حالة واحدة.. نكدًا في خروجه أو في ذاته.

الكلمة السادسة: ﴿نَكِدًا﴾: هنا قراءتان تبينان مشهدين، وتوضِّحان معنى النَّكد:

القراءة الأولى: قرأ أبو جعفر بفتح الكاف ﴿نَكَدًا﴾ على أنه مصدر نَكِدَ الشَّيْءُ نكَدًا، إذا كانَ عَسِرًا وسُوءًا، ولُؤمًا، أو كان فيه قِلَّة عَطاءٍ، فيُتعب صاحبه، ولا يغنيه عن الاحتياج، والمعنى: والبلد الطيب لا يخرج إلا خروجًا ذا نكَدٍ، وأن خروج النَّبت كان على هيئة نكدة في ذاته.

القراءة الثانية: وقرأ الجمهور ﴿نَكِدًا﴾ بكسر الكاف[1]، على أن الكلمة صفة لمحذوف، ويكون التقدير: لا يخرج إلا خروجًا نكِدًا، أو لا يخرج إلا نباتًا نكدًا أي: عَسِرًا مُمْتَنِعًا مِن إعْطاءِ الخَيْرِ عَلى جِهَةِ البُخْلِ الذي يصيب من يتعامل معه بالشَّرِّ، ورَجُلٌ أنْكَدُ ونَكِدٌ كما قيل:

وأعْـطِ مـا أعْـطَـيْـتَـهُ طَـيِّـبًـا ... لا خَـيْـرَ في الـمَـنـكُـودِ والـنَّـاكِـدِ[2]

وقراءتهم توضِّح أن النَّبات في ذاته نكد إما أن يكون لقلَّته أو لضعف ثمره، أو قبحه، أو لضعف منفعته.

---

(١) ينظر: النشر في القراءات العشر (٢/ ٢٧٠).

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (٣/ ٤٢٧).

وذهب ابن عاشور رحمه الله إلى وجود احتباكٍ في الآية، فكلمة (الَّذِي) تعود على نَباتِ الأرْضِ؛ إذْ لَمْ يُذْكَرْ وصْفُ الطَّيِّبِ بَعْدَ ذكْرِ نَباتِ البَلَدِ الطَّيِّبِ، ولَمْ تُذْكَرِ الأرْضُ الخَبِيثَةُ قَبْلَ ذِكْرِ النَّباتِ الخَبِيثِ، لِدَلالَةِ كِلا الضِّدَّيْنِ عَلى الآخَرِ، والتَّقْدِيرُ: والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَباتُهُ طَيِّبًا بِإذْنِ رَبِّهِ، والنَّباتُ الَّذِي خَبُثَ يَخْرُجُ نَكِدًا مِنَ البَلَدِ الخَبِيثِ، وهَذا صُنْعٌ دَقِيقٌ لا يُهْمَلُ في الكَلامِ البَلِيغِ[1].

وبذلك ينتج لنا معنيان:

المعنى الأول: قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾ صِفَةٌ لِلْبَلَدِ، ويكون المعنى: والبَلَدُ الخَبِيثُ لا يَخْرُجُ نَباتُهُ إلّا حال كونه نَكِدًا ينكد على من ينتظر خروجه في مذاقه، ومنفعته.

المعنى الثاني: والبَلَدُ الخَبِيثُ لا يَخْرُجُ نَباتُهُ إلّا حال كون خروجه نَكِدًا ينكد على من ينتظر خروجه في زرعه ورعايته، وهيئة خروجه.

فإن قلت: ما القراءات الواردة في كلمة ﴿يَخْرُجُ﴾؟ وما المشاهد التي تتضح من خلالها؟

في كلمة ﴿يَخْرُجُ﴾ قراءتان توضِّحان مشهدين:

قراءة الجميع ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ بِفَتْحِ الياء التَّحْتِيَّةِ وضَمِّ الرّاءِ، أي: النَّبات إلا نكدًا، وقرأ ابْن وَرْدانَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ بِضَمِّ الياء وكَسْرِ الرّاءِ في إحدى الطرق عنه[2]، وهو يقرأ ﴿نَكِدًا﴾ بفتح الكاف، ويكون المعنى: لا يُخْرِج البلد الخبيث نباتَهُ إلا نَكَدًا، لأنَّ أرضه تحوي المفسدات، أو المكروهات في طبيعتها وإنتاجها، فلا يُقْبَل على منظرها ولا على ما تنتجه؛ لشدَّة خبثها، وتمتلئ تربتها بالحجارة أو بالشَّوك أو تكون تربتها ليست خصبة.

---

(١) التحرير والتنوير (٨-ب/ ١٨٦).

(٢) ينظر: تحبير التيسير في القراءات العشر (ص: ٢٧٣).

وقد تسأل: هل نجد في هذه الآية: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]: **معنى آخر يعرِّفنا بالله ﷻ؟**

الجواب:

المَعْلم التَّعريفيُّ الثاني عشر: الله ﷻ عدل في حكمه، ويجزي كلًّا وَفْقَ ما اختار من قبول الهدى أو الصَّدِّ عنه :

أنزل الله ﷻ الكتاب الذي فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة، فانتفع به الطَّيِّبون، وصدَّ عنه الخبثاء الذين أغلقوا قلوبهم، فحالهم كحال البلد الطيب، والبلد الذي خبث في التَّعامل مع الماء النازل ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [الأعراف: ٥٨].

هذه الآية دليلٌ على مطلق القدرة الإلهيَّة، وكمال العدل الإلهيِّ في آن، فالمعنى الذي نفهمه أن الأرواح الطَّيِّبة التي تقبَّلت الوحي الهادي سيظهر الطيب في نتائج أعمال أصحابها، وتبدو ثمراته ريَّانة مباركة، والنُّفوس التي استسلمت لخبثها ستجد الخبث في خاتمة أعمالها، فهنا ترى أن المادِّيات يختلف تفاعلها مع العنصر الواحد، فترى أرضين متجاورتين نزل عليهما غيث مدرار مبارك؛ فإذا إحداهما تنبت طيِّبًا من النباتات يخرج منها، والطَّيِّب هنا يشمل هيئة خروجه، والعمل الذي أدَّى إلى خروجه، والشَّكل الذي يكون عليه بعد خروجه، والثَّمر الذي ينتجه بعد خروجه، والحَطَب الذي يؤخذ منه بعد ذلك، وسائر أنواع النَّفع المختلفة التي نجدها منه.

وترى الأرض الأخرى ينزل عليها الماء ذاته لكنَّ خروج النَّبات يكون نكدًا في معالجته، وفي هيئة خروجه، وفي الثمار والمنافع المرجوَّة منه، ونكدًا في الإفادة منه، ويكون نكدًا حتى في إزالته؛ فالتَّعامل مع هذا النَّوع عناء وألَم وخسارة.

بصيرة: القرآنُ الذي أنزله الله ﷻ رحمة لا يُنتفع منه إلا إذا أُقبل عليه، ولا يَنتفع به إلا مَنْ فتح عقلَه وسمعَه فنجع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين، أما سائر الأغبياء والمعاندين، فيفرُّون من رحمته معرضين.

فهَذا مَثَلٌ تصويريٌّ واضح للذي ينتفع بالهدى والذي يرفض الهداية، ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى للصَّالح والمفسد، والمؤمن والكافر، حيث شَبَّهَ الله ﷻ نُزُولَ القُرْآنِ بِنُزُولِ المَطَرِ، فَشَبَّهَ المُؤْمِنَ بِالأَرْضِ الخَيِّرَةِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْها المَطَرُ فَيَحْصُلُ فِيها أَنْواعُ الأَزْهارِ والثِّمارِ، وأَمَّا الأَرْضُ السَّبِخَةُ فَهي وإِنْ نَزَلَ المَطَرُ عَلَيْها لَمْ يَحْصُلْ فِيها مِنَ النَّباتِ إِلّا النَّزْرُ القَلِيلُ.

فَكَذَلِكَ الرُّوحُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ عَنْ شَوائِبَ الجَهْلِ والأَخْلاقِ الذَّمِيمَةِ إِذا اتَّصَلَ بِهِ نُورُ القُرْآنِ ظَهَرَتْ فِيها أَنْواعٌ مِنَ الطّاعاتِ والمَعارِفِ والأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ، والرُّوحُ الخَبِيثَةُ الكَدِرَةُ وإِنِ اتَّصَلَ بِهِ نُورُ القُرْآنِ لَمْ يَظْهَرْ فِيها مِنَ المَعارِفِ والأَخْلاقِ الحَمِيدَةِ إِلَّا القَلِيلُ.

ويشعر بهذا المعنى للآية الإمام قتادة رحمه الله فيقول: «المؤمن سمع كتاب الله ﷻ فوعاه بعقله، وانتفع به، كالأرض الطَّيِّبة أصابها الغيث فأنبتت، والكافر بخلاف ذلك».

وهذه الطبائع البشريَّة تعكس طبيعة الأرض التي خلقوا منها، فعن مجاهد رحمه الله: «آدم وذرِّيَّتُه منهم خبيث وطيب»[1].

(١) الكشاف (٢/ ١١٢).

وهناك لفتة أخرى: فإن الأرض التي لا تُخرج نباتها إلا نكدًا يمكن القيام على أمرها حتى يستفاد من القليل الصالح الذي يخرج منها، وحتى تزكو النَّفس لا بدَّ أن يجتهد صاحبها في مكابدتها ومجاهدتها لتُقْبِلَ على الأعمال الفاضلة الصَّالحة، مثل الأرض التي لا تُخرج ثمارها إلا نكدًا، فإنها تحتاج إلى عناء حتى يمكن تحويلها إلى أرض يستفاد منها.

وتلفت الآية إلى مدى تأثير دور البيئة في تكوين شخصيات ما حولها، فالبِقَاع تؤثِّر في الطِّباع، والإنسان ابن بيئته، كما عبر ابن خلدون رَحِمَهُ اللَّهُ، والجغرافيا تعيد صياغة أبنائها، ولكن الغلوَّ في هذا التقعيد غير صحيح، فكم من إنسان نشأ في بيئة، واستطاع أن يغلب الطِّباع التي غلبت على قومه فيها.

وقد تسأل: ما الحكمة في اختلاف التعبير عن الحالين، قال الله عَزَّوَجَلَّ في الطَّيِّب: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ ٥٨﴾، فوصفه بكلمة ﴿ٱلطَّيِّب﴾، وقال في الخبيث: ﴿وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ ٥٨﴾ فوصفه بالفعل (خَبُثَ)؟

الجواب: هذا تعبير راق جدًّا، فالوصف بكلمة ﴿ٱلطَّيِّب﴾ على وزن فَيعِل يدلُّ على تأصُّل الطِّيب فيه، لأن هذا الوزن يأتي لصاحب الخصال الكاملة، وهذا يعني أن الإنسان الطَّيِّب الذي يستقبل الهدى، ويعمل بالهدى يزداد إيمانًا بكثرة الأعمال الصالحة حتى تصير الأعمال الصالحة غالبة عليه، فيكون طيِّبًا، كما أن البلد الطَّيِّب طيِّب في ذاته، وكلما عمل صالحًا زادت طِيبه طِيْبًا، حتى يصبح كما قال النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ

بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(١).

أما الذي خبُث فهو في الأصل على الفطرة لكن هو يُخْبِثُ نفسَه حتى يصبح الخبثُ سجيَّةً له، ليبيِّن أنه مسؤول عن تصرفاته، فلم يقل: (الخبيث)؛ لأن صِيغَةَ فَعِيلٍ مِنَ الصِّيَغِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ الثَّابِتَةِ، بل قال: ﴿خَبُثَ﴾، وهذا فعلٌ متحرِّك، والتَّعبير بالفعل يقتضي أمرين:

١) أنه خَبَّث نفسَه بنفسه، فجلب على نفسه الخُبْث بالأفعال السَّيِّئة التي يقترفها، فلم يقبل هدى الله ﷻ، ولم يتبع ما أنزل الله ﷻ، وبدأ بممارسة المعاصي.

٢) التحذير من فعل الفعل الخبيث الواحد؛ لأنه يجعل النَّفس تميل إلى الخبث تدريجيًّا، ثم ما تلبث مع تكرُّر الأمر منها أن يصبح الخُبث طبيعة لها، وهنا يقال عن صاحبها: خَبُث كأن الخُبث صار له سجية.

القبس الثالث من أقباس الآية: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]:

فما معنى كلمات هذا القبس؟

الكلمة الأولى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف للتَّشبيه، و﴿ذلك﴾: اسم إشارة للبُعد في الأصل، وقد يُطلق على البعيد مكانة أي: العظيم منزلة، وقد يطلق على ما فيه تفصيل عظيم أو شيء مميَّز، والمعنى: مثل اختلاف تعامل الأرض مع الماء حسب طِيبها وخبثها، ومثل اختلاف التَّعامل مع القرآن نصرِّف الآيات القرآنيَّة والكونية لقوم يشكرون، أو يكون المعنى: مثل ما رأيتم من

(١) البخاري (٦٥٠٢).

تصريفنا للآيات القرآنيَّة فمرَّة نكلِّمكم عن قصَّة آدم عليه السلام ، ومرَّة نكلِّمكم عن الذي يجب أن تفعلوه في الأرض حتى لا تفسدوا فيها، ومرَّة نكلِّمكم عن الآخرة.. فهذا التَّصريف - التَّنويع- نفعله في آياتنا لقوم يستفيدون منه، فإذا استفادوا منه شكروا.. اللهم اجعلنا من الشَّاكرين.

الكلمة الثانية: ﴿نُصَرِّفُ﴾: التَّصريف مشتقٌّ من (صَرَفَ)، ويعني: ردَّ الشَّيء من حالةٍ إلى حالة أخرى، أو نَقْلَهُ من حال إلى حال مخالف، أو إبدالَهُ بغيره كما تُصْرَفُ العُمُلات، أو توجيهَهُ إلى جهة أخرى، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران : ١٥٢]، ومِنْ ذَلِكَ: صَرَفْتُ الْقَوْمَ صَرْفًا فانْصَرَفُوا، إِذَا وجَّهتهم إلى جهة أخرى، أو أرجعتهم إلى مكانهم، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان : ١٩]، أي: لا يقدرون أن يَصْرِفُوا عن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا أنفسهم عن النَّار. وقيل: أن يصرفوا الأمر من حالة إلى حالة في التَّغيير.

وَالصَّرِيفُ: اللَّبَنُ سَاعَةَ يُحْلَبُ وَيُنْصَرَفُ بِهِ، أو اللّبن إذا سكنت رغوته، كأنه صُرِفَ عن الرَّغوة، أو صُرِفَتْ عنه الرّغوة، وَيُقَالُ لِحَدَثِ الدَّهْرِ: صَرْفٌ، وَالْجَمْعُ: صُرُوفٌ، وَسُمِّي بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَتَصَرَّفُ بِالنَّاسِ، أَيْ يُقَلِّبُهُمْ وَيُرَدِّدُهُمْ(١).

فالمعنى في الآية: كذلك ﴿نُصَرِّفُ﴾ أي: نحوِّل الآيات ونغيِّرُها من جهة إلى جهة، ومن معنى إلى معنى، فنصرفكم من آيات الكلام عن آدم عليه السلام إلى آيات الكلام عن بَنِيه، ومن آيات الكلام عن الدُّنيا إلى آيات الكلام عن الآخرة، ومن آيات الكلام عن التَّعريف بربِّكم إلى آيات الكلام عن التَّعريف بخلقكم أو بدورة الحياة.. فنُكثر عليكم الآيات المتنوعة عسى أن تنتفعوا بها، لتشكروا.

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٣/ ٣٤٢).

الكلمة الثالثة: ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾: هي العلامات المميِّزة العظيمة، والمراد بها هنا: آيات القرآن، وآيات الأكوان، كما ذكر الله ﷻ في سابق السياق إرساله للرِّياح.

الكلمة الرابعة: ﴿لِقَوْمٍ﴾ اللام حرف جرٍّ، ويعني الاختصاص والاستحقاق، وكلمة ﴿قوم﴾ من قولنا: قام: إذا تحرَّك من قعود، أو اضطجاع، أو راحة، يبتغي الوقوف للاهتمام بشيء، أو يتحرَّك من مكانه قائمًا على ما يستحقُّ القيام عليه، وسمِّي القوم كذلك؛ لأنهم يقومون لبعضهم وعلى بعضهم.

الكلمة الخامسة: ﴿يَشْكُرُونَ﴾: **هذه هي الكلمة العظيمة التي سبق ذكرها في هذه السُّورَة مرتين**، والشُّكر بالنسبة للنِّعم قيدٌ للموجود، وصيدٌ للمفقود، فهو يقيِّد ويُثبت النِّعم الموجودة، وبه نصيد ونجلب النِّعم المفقودة، وهذا معنى قول ربِّنا ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولا يمكن أن تكون زيادة إلا إذا كانت النعم الموجودة باقية؛ فالشُّكر هو السَّبيل لبقاء النِّعم الحاضرة، واقتناص النعم المستقبلة المنتظرة.

> **بصيرة: الشكر قيدٌ للنعم الموجودة، وصيدٌ للنعم المفقودة.**

والشُّكر يقتضي:

- أن يكفَّ الإنسان أطماعه الأنانية عندما توسوس له نفسه أن يأخذ حق غيره.
- وجود الشُّكر يعني ظهور أثر النِّعمة الدُّنيويَّة، وبهاء النِّعمة الدِّينيَّة.
- الشُّكر يعني أن تتزيَّن مفتخرًا بالانتماء للإسلام الذي هو رحمةٌ للعالمين، ولذا أوصي النَّبيُّ ﷺ معاذ بن جبل ﷺ أن يقول دُبرَ كلِّ صلاة: «اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(١).

---

(١) أحمد (٢٢١١٩)، وصحَّح إسناده النووي في خلاصة الأحكام (١/ ٤٦٨)، وابن حجر في نتائج الأفكار (٢/ ٢٩٧).

هنا قد يسأل سائل: فيقول: الله جلَّ مجدُه ذكر صنفين عند الكلام عن الزيادة بالشكر، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، فقد يقول قائل: فإذا لم يشكر ولم يكفر، وكان بين المنزلتين، فما حكمه؟

الجواب: المقصود هنا شكر نعمة الله، ويقابل ذلك: كفر نعمة الله، ولا نتصور منزلة بينهما أبدًا؛ لأن وجود الإنسان مثلًا من أعظم النِّعم، فإذا لم يشكر هذه النِّعمة، وسكت، ولم يجحد أن الله ﷻ أوجده، فحقيقة سكوته أنه كفر، فلم يشكر المنعِم ﷻ، ولذا أوجب الله ﷻ الشُّكر في سورة البقرة له ﷻ ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]

وأمر بشكر النِّعمة في سورة النحل ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]

وذكر في سورة البقرة أن الذي يقابل الشُّكر هو الكفر فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فلا توجد منزلة بين المنزلتين، وأنت ترى هذا، فإذا أعطيت أحدًا نعمة، وسكت، فلم يشكر جهرًا، وأخبرك أنه لم يشكر سرًّا، فماذا يعني عدم الشُّكر هنا؟! يعني الكفر بها، لكن التصريح بالكفر ذنب أعظم.

وسبق تعريف الشكر في المحور الأول من مفصَّل هذه السورة، ونذكره هنا بشكل موجز: فالشكر[1] ثلاثة أركان:

الأول: الرِّضا بالموجود مهما بدا أنه يسير؛ ولذا يقولون: فرس شكور، إذا كفاه لِسمَنه العلف القليل.

---

(١) العين (٥/ ٢٩٢)، تهذيب اللغة (١٠/ ١٠)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٧٠٢)، مقاييس اللغة (٣/ ٢٠٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٢٦٥).

والثاني: الانتفاع بالموجود، حيث تظهر بالبركة، وتتكاثر الموارد بطريقة ذاتية، عند الانتفاع بها، والكف عن الاعتداء على الآخرين، فإذا نزل القوم منزلًا، وأصاب نَعَمهم شيئًا من بَقْلٍ، فدَرَّتْ قيل: أَشْكَرَت.

الثالث: الشُّعور بأنه نعمة، والامتلاء من ذكر المنعم عليه.

والشكر ثلاثة أضرب:

١) شكر القلب، وهو تصور النعمة.

٢) شكر اللِّسان، وهو الثَّناء على المنعم، بنشر الإحسان، وحمد مُولِيه.

٣) شكر سائر الجوارح، وهو مقابلة النِّعمة بعمل لائق بها، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد يسَّر الله سبيل الشُّكر، وخذ هذا المثال الجميل الذي يرويه أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ في الشُّكر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»(١).

ومن رحمة الله ﷻ، وفضلِه الكبير العظيم أن ينعم علينا النِّعمة مثل إقدارنا على التَّنفس، ثم ينعم علينا، فيوفقنا لأن نشكره على ذلك، فيكون شكر الله نعمة جديدة يجب أن نشكره عليها، ويقبل منا مثل ذلك، فلذلك قال محمود الورَّاق ﷺ في هذا المعنى:

إذا كان شكري نعمةَ اللهِ نعمةً ... عليَّ له في مِثْلِها يجب الشُّكْرُ

فكيف بلوغُ الشُّكرِ إلَّا بفضلِهِ ... وإن طالتِ الأيَّامُ واتَّصلَ العُمْرُ

إذا مسَّ بالسَّرَّاء عمَّ سُرُورُها ... وإن مسَّ بالضَّرَّاء أعقبها الأجرُ

---

(١) مسلم (٢٧٣٤).

وما منهما إلَّا له فيه نعمةٌ تَضِيقُ بها الأوهامُ والبَرُّ والبحرُ[١]

فهذا معنى لطيف، يعنى أن الله ﷻ لا يُحمد إلَّا بتوفيق، فيجب أن يحمد على توفيقه، ثم وجب في الحمد الثاني ما وجب في الحمد الأوَّل، ثم إلى ما لا نهاية له، ولو بقي العبدُ مرتميًا بينَ يدي مولاه، شاكرًا أبد الدَّهر، ما أدى حقَّ شكر المنعِم جَلَّ فضله.

وشكر الله ﷻ يلفت نظرنا إلى أنه ينبغي ألا ننسى أن نشكر بعضنا على فضائل الأخلاق، وجميل الأعمال كما قيل:

فلو كان يَسْتَغْنِي عَنِ الشُّكرِ ماجِدٌ لِعِزَّةِ مَجْدٍ أو عُلُوِّ مَكَانِ

لَمَا أَمَرَ اللهُ العِبادَ بِشُكْرِهِ فَقَالَ: اشْكُرُوا لي أيُّها الثَّقَلانِ[٢]

ولقوَّة الارتباط ندرك الجمال الذي زيَّن الآية عندما ختمت بقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]، أي: كَذلِكَ التنوع المدهش في بيان الأدلة التي تثبت الألوهية، وعظمة النِّعمة، نُصَرِّفُ الْآياتِ فننوِّعُها ونردِّدُها ونكرِّرُها لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ نعمة الله ﷻ، وهم المؤمنون، ليفكِّروا فيها ويعتبروا بها.

فإن قلت: كيف نرى علم الاتِّصال القرآنيِّ في ختم الآية بقوله تَعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]؟

الجواب: يبين البقاعي ﷺ المناسبة والاتِّصال، فيقول: «ولَمَّا اسْتَوَتْ هَذِهِ الآياتُ عَلى الذُّرْوَةِ مِن بَدائِعِ الدِّلالاتِ، كانَ السَّامِعُ جَدِيرًا بِأنْ يَقُولَ: هَلْ تُبَيِّنُ جَمِيعُ هَذِهِ الآياتِ هَذا البَيانَ؟ فَقِيلَ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أيْ: نَعَمْ، مِثْلَ هَذا التَّصْرِيفِ، وهو التَّرْدِيدُ مَعَ اخْتِلافِ الأنْحاءِ

(١) ينظر: عدة الصابرين (ص: ١٢٨).

(٢) ينظر: العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ٢/ ٢٢).

لِاخْتِلافِ الدِّلالاتِ وإبْرازِها في قَوالِبِ الألْفاظِ الفائِقَةِ، والمَعانِي الرّائِقَةِ في النُّظُومِ المُعْجِزَةِ، عَلى وُجُوهٍ لا تَكادُ تَدْخُلُ تَحْتَ الحَصْرِ: ﴿نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أيْ: كُلَّها. ولَمَّا تَمَّ ذَلِكَ عَلى هَذا المِنهاجِ الغَرِيبِ، والمِنوالِ العَجِيبِ، المُذَكِّرِ بِالنِّعَمِ، في أُسْلُوبٍ دالٍّ عَلى التَّفَرُّدِ وتَمامِ القُدْرَةِ، كانَ أنْسَبُ الأشْياءِ خَتْمَهُ بِقَوْلِهِ -مُخَصِّصًا بِها المُنْتَفِعَ لِأنَّها بِالنِّسْبَةِ إلى غَيْرِهِمْ كَأنَّها لَمْ تُوجَدْ-: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ أيْ: يُوجَدُ مِنهم الشُّكْرُ لِلنِّعَمِ وُجُودًا مُسْتَمِرًّا فَلا يُشْرِكُونَ، بَلْ يَنْتَفِعُونَ بِما أنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهِ وحْدَهُ في عِبادَتِهِ وحْدَهُ، ويَنْظُرُونَ بِعُقُولِهِمْ أنَّهُ أقْدَرَهم بِنِعَمِهِ عَلى ما هم عاجِزُونَ عَنْهُ، فَلا يَسْلُبُونَ عَنْهُ شَيْئًا مِن قُدْرَتِهِ عَلى بَعْثٍ ولا غَيْرِهِ، فَإنَّهم يَزْعُمُونَ أنَّهم أهْلُ مَعالِي الأخْلاقِ، الَّتِي مِنها: أنَّهُ ما جَزاءُ الإحْسانِ إلّا الإحْسانُ»[1].

وقد تسأل: بماذا يذكِّرنا هذا الختم العظيم للآية بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]؟

الجواب: إنه يذكِّر ببداية المحور الأول في السُّورَة حيث بدأنا رحلة الإنسانيَّة، وهناك قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

ولمَّا كان هذا الختم عظيمًا رائعًا ظهر لك كثافة الحكمة وقوَّة الإحكام في آيات القرآن المجيد، فهذا الختم يَفْصِل بين نصفين عظيمين تكوَّنت منهما سورة الأعراف: النِّصف الأوَّل الذي احتوى على المقدِّمة والمحور الأول والمحور الثاني، وبين النصف الثاني، وهو الذي يشمل المحاور القادمة، حيث يوجد عرض تاريخيٌّ عذب جميل مفصَّل عن سِيَر الأنبياء عليهم السلام، وهذا كلُّه ينبغي أن يدفعك إلى الشُّكر.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٧/ ٤٢٥).

وكما بدأ المحور الأول بالتذكير أنه خلق الأرض وجعل فيها معايش للإنسانيَّة، ولكنها قليلًا ما تشكر، ختم المحور الثاني بذكر الآيات الكونيَّة في الأرض، حيث يرسلُ الرِّياح، ويجعلها تُقِلُّ السَّحاب، ويسخِّرُها لتسوق السَّحاب إلى بلد ميت، ويأمرها أن تُنزل الماء، فإن كانت الأرض طيبة أخرجت الثَّمرات كأنها تتفاعل إيجابًا شكرًا على نعمة الإحياء، وإن كانت خبيثة كانت نكدة فانقلب شكرها إلى نكد رديء.

إنَّ الشُّكر «ينبع من القلب الطَّيِّب، ويدلُّ على الاستقبال الطَّيِّب، والانفعال الطَّيِّب. ولهؤلاء الشَّاكرين الذين يحسنون التَّلقي والاستجابة تُصَرَّف الآيات. فهم الذين ينتفعون بها، ويصلحون لها، ويصلحون بها، والشُّكر هو لازمة هذه السُّورَة التي يتكرَّر ذكره فيها.. كالإنذار والتذكير».

وصلَّى الله تعالى وسلَّم على نبيِّنا السَّيِّدِ العبدِ المُنِيب مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصَحْبِه، عَدَدَ خَلْقِهِ، ورِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ.

والحَمْدُ لله ربِّ العالمين.

الفقير إلى ربِّه الغني جلَّ ذِكْرُهُ:

عبد السلام مقبل المجيدي

أستاذ القراءات والتفسير والدراسات القرآنية

كلية الشريعة/ جامعة قطر

s1435y@gmail.com

قالوا عن هذا الكتاب

انطباع فضيلة الدكتور/ خالد بُرَيه

إنَّ مَأَمَّ كل كتابٍ أن يجعلَ القارئ يعيشُ في العلمِ المكتوبِ عنه، ليجد هذا العلم من ذلك القارئ مسكنًا يحيا فيه ويحيا به، ومن اكتفى بأن يقيم العلم فيه ثمَّ يمضي ولم يَسْعَ إلى أن يجعل منه ما يستبقي هذا العلم زكيًّا ذكيًّا متوقِّدًا، فإنَّه لا يكونُ قد أحسنَ إلى العلم الذي أحسنَ إليه.

وقد أحسنَ الكتابُ الذي بينَ يديكَ إحسانًا عظيمًا في سَبْرِ غَور السُّورة القرآنية، والوقوف على أسرارها، ومحاورها، ومعالمها، وعمودها، وبصائرها، وهذا ضربٌ من التَّصنيف لا يقوى عليه إلا من حلَّلَ وتدبَّر، فتذوقَ واستطعم النُّصوص في أُفقِ سماء بيانِ الوحي قرآنًا وسنَّة، أو في جنباتِ أرض البيانِ العالي.

فعند شروعه في استنطاقِ وتفسير سورةِ الأعراف، عَمَدَ إلى سكِّ موضوعٍ فريدٍ لها، ثمَّ أتبع الموضوع بمحاور دقيقة تضمُّ طائفة من معانيها، في استخلاصٍ مدهشٍ من صُلبِ مجملِ الآيات، ومن ثمَّ معالمها الجامعة، ليتناولها تناولًا عِلميًّا حاذقًا، تنتظم به بين يديكَ صورة جُلَّى من صورِ التَّماسكِ النَّصيِّ، عن طريقِ الرَّبطِ المحْكَم بينَ الآيات، والتَّواصل والتَّلاقي بين المعالم التي تفتحُ للعقلِ آفاقًا واسعة في فَهْمِ النَّصِّ الإلهي، بل ومن ورائه اعتناءٌ بالتَّنبيه على دقائق ولطائف عزيزة، فشأنُ الحُسْن أن يختبئ في دقيق التَّعاريج والتَّقاسيم والفروق وتناغمها.

وقد عُقِدَت المعالم "لتعرِّفَ باللهِ – جلَّ مجدُه – وضرورة اتِّباع المنزل من ربِّ العالمين"، ثمَّ انسلَّت المعالم الأخرى بتتابعٍ رشيقٍ لبيان حقيقة هذا المعنى، فعرَّفت بالله، وأسمائه، وخَلْقه، وتدبيره، وتفرُّدِه بالأمر، وخَتَمَت بقدرته، وعَدله، وبينَ المعلمِ الأول والأخير رحلةٌ علمية ضافية في رحابِ الجمالِ والجلال.

وممَّا حظي الكتاب به وانماز، جمعُه بينَ مناهج تفسيرية متعدِّدة وصوغُها في قالبٍ واحد، مع حسنِ تخلص، فنجد اعتناءً بالمنهجِ "اللغوي، والأَثَري، والعِلمي، والبياني"، أي إنَّ الكتابَ تطبيقٌ تفسيريٌّ مشرقٌ لكلِّ ما حصَّلهُ طالب العلم في مناهجِ المفسِّرين، وطُرُق فهمهم للقرآن، وخصائص تناولهم، ولعلَّ المزيَّة التي استوقفتني في هذا الشَّأن، إشراكُ الأسلوب الوعظي، ليحصل النَّفعُ لكلِّ صنوف القرَّاء، وهو ضربٌ من أساليب القرآن وعاداته، في استدعاء بعض النُّصوص الوعظية المؤثِّرة في سياق الحديث عن الأحكام الشَّرعية – آيات الطَّلاق نموذجًا – لما لها من الحِكَمِ الجمَّة، التي تدفعُ النَّاظر إلى اليقينِ بأنَّ هذا الكتاب الإلهي "ليس من هذه الأرض منبعُه ومنبتُه، وإنَّما كان من أُفُقِ السَّماء مطلعه ومهبطه"، فهو يخاطبُ عباده بخطابٍ يلمسُ إنسانيتهم، ويقف على طبيعتهم، ويستخرج كنائز فطرهم ومكنون أسرارهم، فهو واقعيٌّ، يجمعُ بين حاجة العقل، وأشواق الرُّوح.

ومن المطرب ما تلحظه من تخيُّر الألفاظ، وابتكارِ العناوين، وتطويعها لخدمةِ التَّفسير، وكذا اجتراحه لبعضِ المسائلِ الشَّائكة، وتناولها تناولًا عِلميًّا جليًّا، ومحاولته الحثيثة للتَّقعيد التَّفسيري أو لِنَقُل: تقنين فَهْم المحورِ المدروس بكلامٍ موجزٍ جامع، يلملمُ شتات المعنى بعبارةٍ مكثَّفة، وكلُّ ذلك ثمرة معاناةٍ وطولِ معايشةٍ وملازمةٍ لدرسِ التَّفسير.

وأمَّا البيان القرآني، فهو أحد فرسانه، وممَّن كتبَ فيه وأطال في تفاريقِ كتبه. وفي كتابِه هذا تذوقٌ بيانيٌّ بديع، يورده كلَّما اقتضت الحاجة، ففي الكتابِ منهاجُ نظر، ونفاذُ بصيرة، وبراعةُ بيانٍ وإفهام، واحتفاءٌ بتحليلِ السُّورةِ القرآنية تحليلًا جامِعًا، وقراءةُ قضايا البلاغة ومسائلها في البيانِ العالي البديع، وفي البيان العليِّ المعجز قرآنًا وسُنَّة، فكان تذوقُ البيانِ وتدبُّره سبيلًا لأن يعالج هذه القضايا والمسائل معالجةً تتسمُ بالجدِّ والجِدَّة.

وأختمُ بما كانَ يحسنُ أن أبدأَ به، وهو إحساسي بتفاعلِ المؤلف مع النَّصِّ القرآني، تفاعلًا مثيرًا، يسترعي الانتباه، وكذا الرُّوح التي يكتبُ بها، فهو ممَّن اختلط القرآنُ بلحْمهِ ودمه، فلا يكتبُ كلامًا علميًّا باردًا، بل يخطُّ نورًا وضياءً اقتبسه من أنوارِ البيانِ الإلهي، فلا مفرَّ من أن يلمسَ القارئ هذا الإحساس والتَّفاعل الجَلِي بينه وبين النَّص.

ولعلَّ التَّنوع الذي ستقفُ عليه في بنيةِ الكتاب، مقصودٌ لذاته، فلمَّا كانَ في طباعِ البشر محبَّة الانتقال من شيءٍ إلى شيء، والاستراحة من معهودٍ إلى مستجِد؛ **عمدَ المؤلفُ إلى ترصيعِ كتابه بما يزيلُ عن النَّفس نبْوَتها، فكل منتقَلٍ إليه أشهى إلى النَّفسِ من المنتقَلِ عنه؛ ولذا تفنَّنَ في معالجةِ المسائل، وطرائقِ العَرْض، وأتى بما يدفع الملال، ويثيرُ العقل، ويُذكي شرارة السُّؤال، وهذه إحدى محاسنه وليست آخرها.**

وفي ظني أنَّ أستاذنا الدكتور عبد السَّلام المجيدي -متَّعَ اللهُ به -قد وُفِّقَ- في مشروعه "بصائر المعرفة القرآنيَّة"- في إبرازِ القرآنِ الكريم من النَّاحية المعنوية، وبَثَّ في رُوع المتلقِّي كيف يكونُ النَّظر إلى الحياةِ نابعًا من إشراقاتِ النَّصِّ الخالد، كما حَقَّقَ -في مشروعه العلمي العامر- وظيفة النَّبي ﷺ في بيانِ الألفاظ ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ﴾، والمعاني ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، والتَّطبيق ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وبذلكَ رَسَمَ "منهج الاتِّباع والتَّلقي" بدقةٍ لا مزيدَ عليها؛ ليتمكن الخَلْقُ من التَّأسي به ﷺ، والمضي في ظلالِ وظيفته المنيفة، وإنَّ النَّاظرَ لبنيةِ هذا المشروع القرآنيِّ، واجدٌ أنَّه معنيٌّ بتحقيقِ هذه الوظيفة النَّبوية الشَّريفة التي حقَّقها النَّبيُّ الأعظم ﷺ وظهر أثرها في صَحْبه وأُمَّته من بعده.

الفقير إلى عفو مَولاه/ خالد بُرَيه

دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن

تركيا – سفران بولو: ٢٥/ مايو/ ٢٠٢٤م

فهرس الموضوعات

تقديم فضيلة الدكتور/ الخضر سالم بن حليس اليافعي ٥

المحور الثاني: **المعالمُ العامَّة التي تُعَرِّف بالله ﷻ، وتقتضي ضرورة اتِّباع المنزل من ربِّ العالمين** [الأعراف: ٥٤-٥٨] ٩

المناسبة والاتِّصال ٩

جسر الاتِّصال، وموقع الجلال والجمال ١٦

حِكَمُ التَّعريف بالله ﷻ في القرآن ٢٠

المعالم التَّعريفيَّة العامَّة بالله ﷻ الخبير اللطيف الموصلة للشرف المنيف ٢١

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ [١]: الاسم المعظَّم: فالرَّب الذي يجب أن تتخذوه ربًّا هو الله ﷻ ٢٢

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ [٢]: خلق الكون "وهو المكان": ٢٦

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ [٣]: مدَّة خلق الكون: فخلق السَّمَوات والأرض حدث في ستَّة أيَّام ٣٠

قصَّة بداية خلق الكون، وتحديد الموعد الزَّمنيِّ لخلق الأرض والسماء ٣١

المراحل التي مرَّ بها خلق السَّمَوات والأرض ٣٢

المرحلة الأولى: الدُّخانيَّة ٣٣

المرحلة الثانية: الفتق بعد الرَّتق ٣٣

المرحلة الثالثة: مرحلة التَّمييز لتكوين كلٍّ من السماء والأرض ٣٣

المرحلة الرابعة: مرحلة التَّكليف للسَّماء والأرض ٣٤

المرحلة الخامسة: بناء السماء ٣٤

المرحلة السادسة: مرحلة دحو (دحي) الأرض ٣٤

حديثٌ في وصف بدايات الخلق والإشكال الوارد فيه ٣٧

البصائر في ذكر الأيَّام السِّتَّة تبرزها أسئلة وجوديَّة ٣٩

المَعْلَمُ التَّعريفيُّ [٤]: استواء الله ﷻ على العرش، استواء يليق بجلاله وكماله ٥٢
أولًا: المعنى اللُّغويُّ لكلمة ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ ٥٣
ثانيًا: المعنى اللغوي لكلمة ﴿ٱلْعَرْشِ﴾ ٥٨
ثالثًا: مقتضيات الاعتقاد باستواء الله ﷻ على العرش ٦٤
خلل وإيغال في معنى الاستواء ٦٨
فرادة المنهج القرآني في سَوق صفات ربِّ البريَّات، وجناية الكلاميين على هذا المنهج ٧٠
المَعْلم التَّعريفيُّ [٥]: خلق الله ﷻ الزَّمان، وتحكَّم به ٧٣
المَعْلم التَّعريفيُّ [٦]: خلق الله ﷻ ما بين السَّماء والأرض ٨٢
المَعْلم التَّعريفيُّ [٧]: يتفرَّد الله ﷻ بخلق الكون وإدارته بتدبيره دون أن ينازعه أحد ٩٤
المَعْلم التَّعريفيُّ [٨]: ثبتت الخيرات التي تصدر عن الله ﷻ، ودامت، وتنوعت، وتكاثرت . ١٠٢
جمال السَّبك وقوَّة الحبك والاتِّصال بين جمل الآية الثَّمان ١٠٥
المَعْلَم التَّعريفيُّ [٩]: دعاؤه ﷻ يعرِّفنا به ١٠٨
آداب الدُّعاء التي تحبونا بها هاتان الآيتان ١١٦
الأدب الأول: التَّضرُّع ١١٧
الأدب الثاني: الاستخفاء بالدُّعاء ١٢٠
الأدب الثالث: عدم الاعتداء في كلِّ شيء: في الدُّعاء، وعلى الأرض، وعلى العباد ١٢٥
أنواع الاعتداء في الدُّعاء ١٢٩
الأدب الرابع: عدم الإفساد في الأرض ١٣٤
الأدب الخامس: دعاء الله ﷻ مع الخوف من عقابه والطمع في فضله وثوابه ١٤٢
الأدب السادس: الإحسان في دعاء الرَّحمن، وقبل دعائه، وعند دعائه، وبعد دعائه ١٤٥
ختام محكم وصياغة مدهشة ١٤٦

المَعْلم التَّعريفيُّ [١٠]: إحياء البلد الميت بالماء ١٥٤
مراحل إحياء البلد الميت ١٥٨
المرحلة [١]: إرسال الرِّياح ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]..... ١٥٨
المرحلة [٢]: النَّشر والتَّبشير ﴿بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٧] ١٦٥
المرحلة [٣]: السحاب الثقال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]..... ١٧١
السَّحاب الثِّقال والإعجاز العلمي..... ١٧٥
المرحلة [٤]: سياقة منظَّمة إلى موقع محدَّد سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ [الأعراف: ٥٧] ١٧٩
المرحلة [٥]: نزول الماء ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧] ١٨٥
المرحلة [٦]: ظهور الحياة، وبُدُوُّ الثمرات ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٥٧]..... ١٨٧
المرحلة [٧]: الحاضر والغائب "الغيب والشهادة والحياة الآخرة" ١٨٩
المرحلة[٨]: التذكر، فالعقل والقلب يتذكران فيُكبران ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ١٨٩
شبهة ورد..... ١٩٧
المَعْلَمُ التَّعريفيُّ [١١]: الله ﷻ هو القادر الذي يحكم نتائج دورة الحياة..... ٢٠٠
القَبَس الأول: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨] ٢٠١
القبس الثاني: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] ٢٠٥
المَعْلم التَّعريفيُّ [١٢]: الله ﷻ عدل في حكمه، ويجزي كلًّا وَفْقَ ما اختار..... ٢٠٨
القبس الثالث: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]: ٢١١
قالوا عن هذا الكتاب: انطباع فضيلة الدكتور/ خالد بُرَيه ٢١٩
فهرس الموضوعات..... ٢٢٢

للتعرف على مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

امسح الرمز

الأستاذ الدكتور عبد السلام مقبل المجيدي

- رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.
- أستاذ دكتور في قسم القرآن والسنة/كلية الشريعة/ جامعة قطر حاليًا، وجامعتي حضرموت وذمار سابقًا.
- شارك في تحكيم نحو **30** مسابقة دولية للقرآن الكريم في أنحاء متفرقة في العالم.
- أشرف وناقش العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. في جامعات ذمار وحضرموت، وقطر وعمان.
- قدَّم عددًا من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في عدة دول.

بصائر المعرفة القرآنية — تسوير السور القرآنية — مقصد تفسير سورة الأعراف الجزء الثالث

هاكَ مَنْظَرًا بَدِيعًا ومَهْيَعًا فَسِيحًا تُوقِفُكَ عَلَيهِ بَصَائِرُ المَعرِفَةِ القُرآنِيَّةِ في تَسْوِيرِها للسُّوَرِ القُرآنِيَّةِ في مِحْوَرٍ مُهِمٍّ مِن مَحاوِرِ سورة الأعراف، وهو مِحْوَرُ: "المَعَالِمِ العَامَّةِ الَّتي تُعَرِّفُ بالله عز وجل، وتَقْتَضِي ضَرورةَ اتِّباعِ المُنْزَلِ مِن رَبِّ العَالمِينَ" .

في هذه البَصائِرِ الَّتي بَيْنَ يَدَيكَ سَتَجِدُ ما يَمْلَأُ قَلْبَكَ رِضًا ونَفْسَكَ إشراقًا وأنتَ تَقرأُ صِفاتِ مَلِكِ المُلُوكِ، جَبَّارِ السَّماواتِ والأرضِ، خالِقِ هذه الحَياةِ، ومَنْ إليه المَصيرُ بَعْدَ المَوتِ، مالِكِ المُلْكِ عزوجل، فالبَشَرُ في ضَرُورةٍ ماسَّةٍ أن يَعْلَموا عَنِ اللهِ عز وجل، بل ذاك أعظمُ الضَّرُورِيَّاتِ، فإذا تَعَرَّفوا عَلَيه مِنْ خِلالِ أَسمائِهِ وصِفاتِهِ عَبَدُوهُ، وتَقَرَّبُوا إليه، وخَضَعُوا بَيْنَ يَدَيهِ.

سوف ترى أَيُّها القارئُ العزيزُ الذَّهَبَ الإبْرِيزَ في جُسُورِ الاتِّصالِ ومَواقِعِ الجَلالِ والجَمالِ، وسَتَنظُرُ بِمِنْظارٍ قُرآنِيٍّ مُدهِشٍ قِصَّةَ بِدايةِ الخَلْقِ، ثُمَّ تَدخُلُ إلى عَالَمِ الدُّعاءِ فَتَشْعُرُ بالرَّهبَةِ والرَّغبَةِ وأنتَ تقرأُ بَيْنَ السُّطُورِ مَعَالِمَ الدُّعاءِ وآدابَهُ، فَتَحْيا نَفْسُكَ بهذا الخِطَابِ، كَمَا تَحْيا الأرضُ بِوَابِلِ السَّحَابِ.

مكتبة الأسرة العربية
خيارك الأفضل للمعرفة الآمنة
UFUK neşriyat
BASIN-YAYIN-DAĞITIM

www.arabfamilybs.com
+90 212 631 8109
+90 555 028 1155
info@arabfamilybs.com